مكتبة ٣٠١

غيوم ميسو



اللحظة الراهنة

رواية

غيوم ميسو

اللحظة الراهنة

العنوان الأصلي للرواية :

L'instant présent

By: Guillaume Musso

الكتاب
اللحظة الراهنة

تأليف
غيوم ميسو

ترجمة
معن عاقل

الطبعة
الأولى، 2019

الترقيم الدولي :
ISBN: 978-9953-68-897-8

الناشر
المركز الثقافي العربي

الدار البيضاء ـ المغرب

ص. ب: 4006 (سيدنا)
42 الشارع الملكي (الأحباس)
هاتف: 0522 303339 ـ 0522 307651
فاكس: 305726 522 212+
Email: markaz.casablanca@gmail.com

بيروت ـ لبنان

ص. ب: 5158 ـ 113 الحمراء
شارع جاندارك ـ بناية المقدسي
هاتف: 01 750507 ـ 01 352826
فاكس: 343701 1 961+
Email: cca_casa_bey@yahoo.com

غيوم ميسو

اللحظة الراهنة

رواية

ترجمة: معن عاقل

المركز الثقافي العربي

سما للنشر

إلى ابني.

إلى أبي.

للحب أنياب لا تُشفى لدغاته أبداً.

ستيفن كينغ

تاريخ مخاوفنا

تاريخ حياتنا هو تاريخ مخاوفنا.

بابلو دي سانتيس

1971

- لا تخف يا آرثر. اقفز! سأتلقّفك وأنت طائر.

- أنت... أنت متأكدٌ يا بابا؟

عمري خمس سنوات. أجلس فوق فراش الطابق الثاني للسرير الذي أتقاسمه مع أخي، وساقاي متدليتان في الفراغ. رمقني أبي بنظرة عطف وهو يفتح ذراعيه.

- هيا، يا كبيري!

- لكنني خائف...

- قلت لك أنني سأتلقفك. أنت تثق بأبيك، أليس كذلك يا كبيري؟

- طبعاً...

- إذاً. اقفز يا بطل!

تريّثتُ لثوان، وهززتُ رأسي المستدير. ثم ألقيتُ نفسي في

الهواء وابتسامة عريضة تعلو وجهي، وأنا متأهّب للتشبث برقبة أكثر رجل أحبه في العالم.

لكن أبي، فرانك كوستيلو، تراجع في اللحظة الأخيرة خطوة إلى الخلف عمداً، فانطرحتُ أرضاً على كامل طولي. وارتطم فكي وجمجمتي بأرضية الغرفة على نحوٍ مؤلم. احتجتُ للحظة كي أنهض وأنا مترنّح. وشعرت برأسي يدور وأنّ عظم وجنتي تهشم. وقبل أن أنفجر بالبكاء، لقَّنني أبي درساً لن أنساه ما حييت:

- عليك ألّا تثق بأحدٍ في الحياة. هل تفهم يا آرثر؟

نظرتُ إليه مرعوباً.

- ولا أحد! كرّر بمزيج من الحزن والغضب رغماً عنه. ولا حتى بأبيك نفسه!

القسم الأول

منارة الأربع وعشرين ريحاً

المنارة

أتساءل عما يخبئه الماضي لنا.

فرانسواز ساغان

.1

بوسطن
ربيع 1991

وصل أبي فجأة إلى بيتي يوم السبت الأول من يونيو في تمام الساعة العاشرة صباحاً. وقد جلب معه خبزاً إيطالياً وحلوى الكانولي بالليمون أعدَّتها زوجته لي خصيصاً.

- أتدري يا آرثر؟ قد يسعنا أن نقضي النهار معاً، اقترح وهو يشغِّل آلة القهوة الإكسبريسو وكأنه في بيته.

لم ألتقه منذ عيد الميلاد الأخير. اتكأتُ على طاولة المطبخ، ورحتُ أتأمّل صورتي المنعكسة على معدن محمصة الخبز الكروم. كانت اللحية قد التهمت وجهي وتشَعَّثَ شعري، وغارت نظرتي بسبب الهالات وقلة النوم والإفراط في شرب مارتيني التفاح. كنت أرتدي تي شيرت قديمة ماركة بلو أويستر كولت اشتريتها في أثناء

سنوات دراستي الثانوية وسروالاً ماركة بارت سيمسون ناصل اللون.
في سهرة الأمس، وبعد ثمان وأربعين ساعة من المناوبة، تجرعتُ بضع أقداح إضافية في حانة زانزي مع فيرونيكا يلنسكي، الممرضة الأكثر شبقاً والأقل فظاظة في مشفى ماساتشوستس العمومي.

كانت الحسناء البولونية قد أمضت جزءاً من الليل معي، لكن أصابت في فكرتها بالانصراف قبل ساعتين، آخذةً معها كيس الحشيش الصغير وورق لفائف تبغها، وبذلك تحاشت تصادماً مؤسفاً مع أبي، أحد الأطباء المشهورين في قسم الجراحة في المستشفى الذي نعمل فيه سوية.

- فنجان قهوة إكسبريسو، هو أفضل منشِّط لتبدأ نهاركَ، أكّد فرانك كوستيلو وهو يضع أمامي فنجاناً من القهوة المركَّزة.

فتح النوافذ لتهوية الحجرة التي كانت تفوح فيها رائحة مقرفة قوية، لكنه أحجمَ عن التعليق. قضمتُ إحدى قطع المعجّنات، وأنا أتملّاه بطرف عيني. لقد احتفلَ ببلوغه سن الخمسين قبل شهرين، لكنه بسبب شعره الأشيب والتجاعيد التي تخدّد وجهه، كان يبدو أكبر من عمره بعشر سنوات أو خمس عشرة سنة. ورغم كلّ شيء، حافظ على هيئة وسيمة وقسمات أليفة ونظرة بول نيومان الزرقاء الصافية. كان قد تخلى ذاك الصباح عن بزّاته ذات العلامات التجارية الشهيرة وحذاء الموكاسان المفصَّل على مقاس قدمه وارتدى بنطالاً قديماً من الكاكي، وكنزة سائق شاحنة بالية وحذاءً ثقيلاً من الجلد السميك.

- القصبات والطعوم في الشاحنة، قال وهو يتجرّع قهوته السوداء. إذا غادرنا الآن، سنكون في المنارة قبل الظهر. سنأكل بسرعة وسيكون بوسعنا اصطياد سمك المرجان طيلة العصر. إذا كان

الصيد وفيراً، سنتوقف في المنزل ونحن عائدان. سنجهّز السمك في ورق الشواء مع البندورة والثوم وزيت الزيتون.

كان يحدِّثني كأننا افترقنا ليلة أمس. في صوته شيء من النشاز، لكنه لم يكن مزعجاً. وبينما أحتسي قهوتي برشفات صغيرة، رحتُ أتساءل عن مصدر رغبته المفاجئة في قضاء الوقت معي.

صارت علاقتنا في السنوات الأخيرة شبه معدومة. سأبلغ عمّا قريب الخامسة والعشرين من عمري. كنت أصغر الأخوة المؤلّفين من صبيين وفتاة. وبالتراضي مع أبي، أخذ أخي وأختي الشركة الصغيرة العائلية التي أنشأها جدي -وكالة إعلان متواضعة في مانهاتن- وطوّراها بما يكفي ليأملا ببيعها في الأسابيع القادمة إلى شركة اتصالات كبيرة.

أمّا أنا فبقيتُ في منأى عن أعمالهما. كنتُ أحد أفراد العائلة، لكن «من بعيد»، تقريباً على طريقة عمّ بوهيمي غادر ليعيش في الخارج ونلتقيه من دون استياء على مائدة عيد الشكر. والحقيقة أنه ما أن سنحت لي الفرصة حتى غادرتُ للدراسة أبعد ما يمكن عن بوسطن: مرحلة الطب التمهيدي في جامعة ديوك، في كاليفورينا الشمالية، أربع سنوات في مدرسة بيركلي الطبية وعام كطبيب مقيم في شيكاغو. لم أعُد إلى بوسطن إلّا منذ بضعة أشهر لأنهي سنتي الثانية كطبيب مقيم في الطبابة الإسعافية. كنت أشتغل نحو ثمانين ساعة في الأسبوع، لكنني كنتُ أحب هذا العمل ومخاطره. كنت أحب الناس، وأحب العمل في الإسعاف وأن أتحمّل مشقّة الواقع في جانبه الأقسى. وفي بقية الوقت، رحت أجرجر كآبتي في حانات نورث إند، أدخن الحشيش، وأعاشر الفتيات قليلات الاحتشام وعديمات المشاعر على شاكلة فيرونيكا يلنسكي.

ظلّ أبي لوقت طويل يستنكر أسلوبي في الحياة، لكنني قلما تركتُ له زاوية للهجوم: أنفقتُ على دراستي في الطب من دون أن أطلب منه قرشاً واحداً. وفي الثامنة عشرة من عمري، بعد وفاة أمي، وجدتُ في نفسي القوة لأترك المنزل ولا أعود أنتظر منه شيئاً. ولم يبدُ أنّ هذا الابتعاد أزعجَه. فقد تزوّج بإحدى عشيقاته، امرأة فائقة الجمال وذكية كان لها الفضل في تحمّله. كنت أزورهم مرتين أو ثلاث مرات في العام، وبدا أنّ هذه الوتيرة تُناسب الجميع.

ذاك الصباح، لم تفتأ دهشتي تتصاعد. ومثل شيطان خرج من قمقم، ظهر أبي من جديد في حياتي، وأمسَكَني من كمّي ليقودني على طريق مصالحة لم أعُد أتوقّعها.

- حسنٌ، هل تغريك، نزهة الصيد هذه، أم أنها تافهة؟ ألحّ فرانك كوستيلو، وهو لم يعُد قادراً على إخفاء سخطه زمناً أطول بإزاء صمتي.

- لا بأس، بابا. امنحني فقط وقتاً لأستحمّ وأبدّل ملابسي.

سحب علبة تبغ من جيبه وهو يشعر بالرضى وأشعل لفافة بقداحة قديمة فضية تلازمه دوماً.

أبديتُ دهشتي:

- بعد خمود سرطان حنجرتك، ظننتُ أنك توقفت...

اخترقتني نظرته القاسية.

- أنتظرك في الشاحنة، أجاب وهو ينهض عن كرسيه وينفث دفعة من الدخان الأزرق.

2.

تستغرق المسافة من بوسطن حتى شرق كاب كود أقل من ساعة ونصف. كان صباحاً جميلاً من أواخر الربيع. كانت السماء صافية وزاهية والشمس تتشظى على زجاج السيارة، ناثرة حبيبات مذهّبة تطفو على لوحة القيادة. ووفاءً لعاداته، لم يُزعج أبي نفسه بفتح حديث، فالصمت لم يكن ثقيلاً. كان يحبّ في عطلة نهاية الأسبوع أن يقود شاحنة الشيفروليه الصغيرة وهو يستمع إلى رزمة أشرطة التسجيل عينها في راديو السيارة: ألبوم الأفضل لفرانك سيناترا، وكونشيرتو دين مارتن وألبوم كئيب سجّله الأخوان إيفرلي في نهاية حياتهما المهنية. وألصق على الزجاج الخلفي ملصقاً دعائياً يشيد بترشيح تيد كينيدي لحملة مجلس الشيوخ عام 1970. كان أبي يحبّ من حين إلى آخر أن يلعب دور الفلاح القروي، مع أنه واحد من أشهر الجرّاحين في بوسطن، ولا سيما أنه يملك أسهماً في شركة تقدَّر قيمتها بعشرات ملايين الدولارات. وفي الأعمال، كلّ أولئك الذين تعاملوا معه على أساس شخصيته الفلاحية، أصيبوا بالخيبة.

اجتزنا جسر سيغامور، وقطعنا أيضاً نحو أربعين كيلومتراً قبل أن نتوقف في سامس سيفود لنشتري شطائر سرطان البحر(*)، وبطاطا مقلية وعلبة بيرة شقراء.

لم يكد الوقت يتجاوز منتصف الظهر حين دلفت الشاحنة الصغيرة في ممرّ مفروش بالحصى يفضي إلى الرأس الشمالي من خليج وينشستر.

(*) شطائر سرطان البحر: هي عبارة عن خبز الهوت دوغ مرفق بسلطة سرطان البحر. (المترجم)

كان المكان موحشاً، يحفّ به المحيط والصخور، وتضربه الريح على الدوام تقريباً. هناك تنتصب منارة **24 ويندز لايتهاوس** على أرض معزولة ومحدّدة بالجروف الصخرية: إنها منارة الأربع وعشرين ريحاً.

كان مبنى الإشارة القديم هيكلاً خشبياً ارتفاعه نحو اثني عشر متراً. ينتصب إلى جانب بيت مصفّح بألواح خشبية مطلية بالأبيض ومغطى بسطح مدبّب من حجر الأردواز. كان مكاناً رائعاً للإقامة في الأيام المشمسة في أثناء العطل، ولكن يكفي أن تتلبّد السماء بالغيوم أو يحلّ المساء حتى يفسح المنظر الطبيعي لبطاقة بريدية المجال للوحة كئيبة وحالمة جديرة بألبيرت بنكهام رايدر(*). حازت العائلة على البناء منذ ثلاثة أجيال. اشتراه جدي سوليفان كوستيلو عام 1954 من أرملة مهندس طائرات اقتنصه حين عرضته الحكومة الأميركية عام 1947 للبيع في مزاد علني.

في ذلك العام، تخلّصت الدولة الفيدرالية من مئات المواقع التي فقدت أهميتها الاستراتيجية في البلاد بسبب شحّ موارد الخزينة. وكانت هذه هي حال **24 ويندز لايتهاوس**، إذ أصبح موقعاً مهجوراً بعد بناء منارة أكثر حداثة فوق هضبة لانغفورد، على بعد أكثر من خمسة عشر كيلومتراً إلى الجنوب.

وهو فخور باقتنائها، أخذ جدي يرمّم المنارة والبيت الريفي

(*) ألبيرت بنكهام رايدر: رسام من الولايات المتحدة الأميركية، ولد في نيو بيدفورد، أحد مرافئ صيد الحيتان في أميركا، لأسرة تمتهن الملاحة، ولكن ضعف بصره وفرط حساسيته حالا دون تمكينه من المشاركة في مواجهة الأخطار البحرية، فعاشت في عروقه أسرار المياه المتأرجحة والوحدة في الأماكن النائية وعبّر عنها كرمز للمصير في ظلمات التوحد والغربة. (المترجم)

الصغير ليحوّلهما إلى مسكنٍ مريحٍ ثانوي. وفي تلك الأثناء راح ينفّذ ترميمات أبقاها سرّية حتى بداية خريف 1954.

عثروا على سيارته مركونة أمام المنزل. كانت سيارة الشفروليه ذات السقف القابل للفتح مفتوحة السقف ومفاتيحها موضوعة على لوحة القيادة. وقد اعتاد سوليفان عند استراحةِ الظهيرة أن يجلس فوق الصخور ليستمتع بوجبة خفيفة. وسرعان ما استنتجوا أنه حادث غرق. ومع أنّ المدّ والجزر لم يحملا جثته قط، إلّا أنهم أعلنوا موت جدي غرقاً على سواحل ولاية مين.

ومع أنه لم يقيَّض لي التعرّف عليه، لكنني غالباً ما سمعتُ أولئك الذين عاشروه يصفونه كشخصية أصيلة ونضرة. ومن اسمه الثاني، ورثتُ عنه اسمه في المعمودية، وأنا أيضاً مَن ارتدى ساعة يد سوليفان لأنّ أخي البكر لم يرغب بها. ساعة يد تانك ماركة لوي كارتييه تعود إلى بداية عام 1950، ذات علبة مستطيلة وعقارب من الفولاذ الأزرق.

3.

- أحضِرْ الكيس الورقي والبيرة، سنتناول وجبة خفيفة في الشمس!

صفقَ أبي باب الشاحنة الصغيرة. لاحظتُ أنه يحمل تحت ذراعيه الحقيبة الجلدية المهترئة التي أهدَتها له أمي، حين كنتُ طفلاً، بمناسبة أحد أعياد زواجهما.

وضعتُ إناء الثلج على طاولة خشبية قريبة من حوض الشواء المصنوع من الآجر الذي بُنِي على بُعد نحو عشرة أمتار من مدخل البيت. لا أدري كيف قاوم أثاث الحديقة ومعه الكرسيان الخشبيان

منذ عقدين كلّ تأثيرات تقلبات الأحوال الجوية. كانت الشمس في كبد السماء لكن الهواء منعش. رفعتُ سحاب قميصي الصيفي قبل أن أبدأ بفك شطائر سرطان البحر. أخرَجَ أبي من جيبه سكيناً سويسرية، ونزع سدّادتَي عبوتين من بيرة بودوايزر. وجلس على أحد المقاعد من الصنوبر الأحمر.

- في صحَّتك! قال وهو يناولني زجاجة.

أمسكتها وجئتُ وجلستُ إلى جانبه. وبينما أرتشفُ أول جرعة من البيرة، رأيتُ وميض قلقٍ يلتمع في عينيه. وتلا الصمتَ صمتٌ. ابتلع بضعة لقيمات من شطيرته وسارع إلى إشعال لفافة تبغ جديدة. صار التوتر ملموساً، وفهمتُ حينها أنه لم يأتِ بي إلى هنا لقضاء عصر هادئ بين أب وابن، وأنه لن يكون هناك نزهة صيد، ولا تَربيتٌ على الظهر، ولا سمك مرجانٍ مطهو في ورق الشواء على الطريقة الإيطالية.

- لدي أمر مهم لأخبرك به، بدأ وهو يفتح حقيبته ليُخرجَ منها وثائق عديدة مرتّبة في مصنّف من الورق المقوى.

وعلى كلّ وثيقة، رأيتُ الشعار الرزين للمكتب القانوني وكسلر آند ديلاميكو الذي يدافع عن مصالح العائلة منذ عقود.

أخذَ سحبة مديدة من لفافة تبغه قبل أن يتابع:

- قررتُ أن أسوي أعمالي قبل أن أرحل.

- ترحَل إلى أين؟

لوت تكشيرة خفيفة شفته السفلى. استفززْتُه:

- تقصد قبل أن تموت؟

- هو ذاك. ولكن لا تفرح بهذه السرعة: لن يحدث هذا غداً، حتى لو صحّ أن الأجَلَ يدنو.

دقّق النظر وحاول أن يلاقي نظرتي قبل أن يعلن بصوت جهوري:

- أنا آسف يا آرثر، لكنك لن تحصل على دولار واحد من بيع الشركة. ولا على دولار واحد من عقود التأمين على حياتي أو من أموالي العقارية.

وجدتُ صعوبة في إخفاء ذهولي، ولكن في غمرة المشاعر التي اجتاحتني، تغلَّبَتْ المفاجأة على الغضب.

- إذا جئتَ بي إلى هنا لتُخبرني بهذا، ما كان عليكَ أن تحمِّل نفسك هذا العناء. فأموالكَ لا تهمّني. كان عليك أن تعرف ذلك...

أحنى رأسه ليُشير إلى مصنفات الورق المقوى الموضوعة على الطاولة، كأنه لم يسمع كلمة واحدة ممّا قلته للتو.

- اتخذتُ كلّ الإجراءات القانونية ليؤول كلّ ميراثي إلى أخيك وأختك...

شددتُ على قبضتي. ماذا تعني هذه اللعبة الملتوية؟ فليحرمني أبي من الإرث بهذه القسوة، لكن لماذا يفتعل هذا المشهد ليُعلن لي ذلك؟

أخذَ سحبة جديدة من لفافة التبغ.

- ميراثكَ الوحيد...

سحق عقب لفافة تبغه بكعبه تاركاً بضع ثوان لتعويم بداية جملته، وهي طريقة لإثارة نوع من التشويق وجدته مبتذلاً.

- ميراثك الوحيد سيكون **24 ويندز لايتهاوس**، أكّد وهو يشير إلى البناء. هذه الأرض وهذا المنزل وهذه المنارة...

هبّت الريح مثيرة سحابة من الغبار. غرقتُ في ذهول تام، واحتجتُ إلى بضع ثوانٍ قبل أن أردّ.

- ماذا تريدني أن أفعل بهذا البيت المهمَل؟

وبينما هو يفتح فمه ليُخبرني بالتفاصيل، سعل سعالاً مقلقاً. شاهدته يُتعب رئتيه وشعرت بالأسى لأنني تبعته إلى هنا.

- لك أن تأخذه أو تتركه يا آرثر، ابتدرني وهو يستردّ أنفاسه. وإذا قبلتَ هذا الميراث، ستتعهّد باحترام شرطين. شرطان غير قابلين للتفاوض.

هممتُ بالنهوض عندما تابع:

- أولاً، عليك التعهّد بعدم بيع العقار أبداً. هل تفهمني؟ أبداً!!! يجب أن تبقى المنارة ضمن العائلة. إلى الأبد.

اغتظتُ:

- والشرط الثاني؟

مسّد جفنيه طويلاً وتنهّد تنهيدةً عميقة.

- اتبعني، قال وهو يغادر كرسيه.

حذوت حذوه مكرَهاً. قادني إلى البيت القديم لحارس المنارة. كان عبارة عن منزل ريفي بسيط يسبح في مائه وتفوح منه رائحة العفونة. كانت تزيّن جدرانه شِباك صيد ودفّة خشبية بطلاء لامع ولوحات رديئة متنوعة لفنانين محليين تتناول مناظر طبيعية للمنطقة. وعلى غطاء مدفأة الخشب، يوجد قنديل وكذلك مَركب شراعي صغير محبوس داخل زجاجة.

فتح أبي باب الدهليز -ممرّ طوله نحو عشرة أمتار مفروش بألواح خشبية مطلية بالورنيش يربط البيت الصغير بالمنارة- ولكنه بدل أن يسلك السلالم للوصول إلى قمة البرج، رفع باباً أرضياً خشبياً يُفضي إلى القبو.

- تعالَ! أمرني وهو يُخرج مصباحَ جيبٍ من صندوقه الصغير.

انحنيتُ ونزلتُ في إثره على درجات تُصدر صريراً ووصلتُ إلى الحجرة تحت الأرض.

حين شغّلَ القاطع الكهربائي، اكتشفتُ مكاناً مستطيلاً، سقفه واطئ، وجدرانه من الآجر الضارب إلى الحمرة. في ركنه تكدّست براميل وصناديق خشبية تُغطيها شباك العناكب وتراكم عليها الغبار منذ دهر. وثمة شبكة أنابيب مهترئة تلتفّ بشكلٍ دائري حول السقف. ورغم تحريم دخول هذا المكان علينا، تذكرتُ بوضوح أنني جئت أستكشفه ذات مرة مع أخي عندما كنا صغاراً. حينذاك، عاقبنا أبي عقاباً ردعنا عن أن نطأه بأقدامنا ثانية.

- أيّ لعبة نلعبها بالضبط، بابا؟

وحتى يُجيب إجابة كاملة، سحب قلم طباشير أبيض من جيب قميصه ورسم صليباً كبيراً على الجدار. ووضع إصبعه على الرمز.

- عند هذا المستوى، وراء الآجر، يوجد باب معدني.

- باب؟

- ممرّ سددتُ مدخله بجدار منذ أكثر من ثلاثين عاماً.

قطبتُ حاجبيَّ.

- ممرّ نحو ماذا؟

تهرّب أبي من السؤال وانتابته نوبة سعال جديدة.

- هذا هو الشرط الثاني يا آرثر، قال وهو يستردّ أنفاسه. يجب ألّا تحاول أبداً فتح هذا الباب.

لبرهة، ظننته فعلاً أنه أصبح خرفاً. كانت لدي أسئلة أخرى لأطرحها عليه، لكنه سارع إلى قطع التيار ومغادرة القبو.

الميراث

لا يمكن التكهن بالماضي.

جان غروجان

.1

كان الهواء البحري الذي يهبّ من المحيط يُنعش بقدر ما يُخبل.

عدنا من جديد إلى الحديقة وجلسنا أحدنا مقابل الآخر إلى الطاولة الخشبية.

ناولني أبي قلم حبر قديم ريشته من الفولاذ الصقيل اللامع.

- أنت تعرف الآن يا آرثر الالتزامين الواجب احترامهما. كلّ شيء مدون في هذه الوثيقة. ولكَ حرية القبول أو الرفض. أمنحكَ خمس دقائق لتقرّر وتوقعّ الأوراق.

فتح لنفسه زجاجة بيرة جديدة وبدا أنه استعادَ قواه.

حدّقتُ في وجهه طويلاً. لم أفلح قطّ في الإحاطة به، أو فَهمه أو معرفة رأيه بي حقيقةً. لكنني حاولتُ أن أحبّه طيلة أعوام رغم كلّ شيء.

لم يكن فرانك كوستيلو أبي البيولوجي. ومع أننا لم نتحدّث في

هذا الأمر قط، إلّا أننا كنّا نعرف ذلك. كان هو يعرف ذلك بالتأكيد قبل ولادتي بكثير؛ أمّا أنا فعرفتُ بالأمر منذ بداية المراهقة. في اليوم التالي لعيد ميلادي الرابع عشر، اعترفَت لي أمي أنها في شتاء 1965، خاضت مغامرة استمرّت لبضعة أشهر مع مَن كان آنذاك طبيب أسرتنا. وقد رحل هذا الرجل -المدعو أدريان لانغلوا- إلى الكيبك بُعيد ولادتي بزمن قصير. تلقيتُ الخبر برباطة جأش. ومثل الكثير من أسرار العائلة، حظيَ هذا السرّ بوقت كافٍ لينتشر بمَكر. لذلك أراحني هذا البوح إلى حدٍّ ما: كان له الفضل في تسليط الضوء على بعض تصرفات أبي الغامضة تجاهي.

قد يبدو هذا غريباً، لكنني لم أسعَ قط للقاء والدي البيولوجي. كنتُ قد وضعتُ هذه المعلومة في إحدى زوايا رأسي، وأهمَلتها بالتدريج حتى كدتُ أنساها. ليست روابط الدم هي التي تشكّل الأسرة وفي أعماقي كنت كوستيلو وليس لانغلوا.

- حسنٌ، هل قرَّرت يا آرثر؟ صاحَ. هل تريد هذا الكوخ، أم لا؟

هززتُ رأسي. لم أكُن أريد إلّا شيئاً واحداً: أن أضَعَ حداً لهذه المهزلة بأسرع ما يمكن وأعود إلى بوسطن. فتحتُ غطاء قلم الحبر، ولكنني في اللحظة التي كنت سأضع الإمضاء أسفل الوثيقة، حاولتُ مرة أخيرة استئناف الحوار.

- لا بدّ أنّ لديكَ المزيد لتُخبرني به يا أبي.

- أخبرتكَ بكلّ ما يجب أن تعرفه! قال بانفعال.

عاندته.

- لا! إذا لم تفقد صوابك، فأنتَ تعرف حقّ المعرفة أنّ كلّ هذا لن يصمد!

- أسعى إلى حمايتك!

انفجرَت كلماته. مثيرةً للفضول، غير متوقّعة، يوشيها الصدق. وبينما أحملق، رأيت يديه ترتعشان.

- وممَّ تحميني؟

أشعلَ سيجارة جديدة ليهدّئ نفسه وبدا أن شيئاً داخله ينحلّ.

- لا بأس... يجب أن أعترف لك بأمرٍ ما، بدأ بنبرة بوح. أمرٌ لم أخبر به أحداً من قبل.

خيَّم الصمت واستمرّ زهاء دقيقة. تناولتُ بدوري لفافة تبغ من علبته لأفسَح له المجال كي يستجمع ذكرياته.

- في ديسمبر من عام 1958، تلقيتُ اتصالاً هاتفياً من أبي، أي بعد اختفائه بأربعة أعوام ونصف.

- هل تمزح؟

سحب سحبة أخيرة مديدة من دخان تبغه، وقذف بعقب اللفافة على الحصى بحركةٍ عصبية.

- أخبرني أنه موجود في نيويورك ويريد لقائي بأسرع ما يمكن. وطلب مني ألّا أخبر أحداً باتصاله وحدَّد لي موعداً في اليوم التالي في حانة في محطة مطار جون كينيدي.

شبكَ أصابعه المتشنّجة بانفعال. وبينما راحَ يتابع سرده، رأيتُ أظافره تنغرز في لحمه.

- استقليتُ القطار لأوافيه في المطار. لن أنسى أبداً ذلك اللقاء. كان يوم السبت السابق لعيد الميلاد. الثلج يتساقط. وقد تأخّرت الكثير من رحلات الطيران أو ألغيَت. كان أبي ينتظرني وهو جالس إلى طاولة وأمامه قدح مارتيني. بدا منهمكاً ورأسه كأنه خارجٌ من التراب. تصافَحنا بحرارة ورأيته يبكي لأول مرة.

- وماذا جرى بعد ذلك؟

- قال لي أولاً أنّ عليه أن يستقلّ طائرة وأنّ وقته ضيق. ثم شرحَ لي بأنه تركنا لأنه لم يكن لديه خيار آخر. أسرّ لي أنه يعاني متاعب كبيرة من دون أن يحدِّد ماهيتها. سألته كيف يمكنني مساعدته، لكنه أجابني أنه وقع في مأزق لوحده تماماً وعليه أن يجد بنفسه وسيلة للخروج منه.

كنتُ مذهولاً.

- وبعد؟

- جعلني أقسم على أشياء عديدة. ألّا أكشف لأحدٍ أنه لم يزَل على قيد الحياة، وألّا أبيع أبداً **24 ويندز لايتهاوس**، وألّا أفتح أبداً باب قبو المنارة المعدني وأن أسدّه بجدار فوراً. طبعاً، تهرّب من كلّ أسئلتي. أردتُ أن أعرف متى سأراه مرة أخرى. وضعَ يده على كتفي وقال لي: «ربما غداً، وربما لن تراني أبداً». منعني من البكاء وأمرَني أن أكون قوياً وأن أتصرَّف كربّ أسرة الآن ما دام هو لم يعُد موجوداً. ثم نهض بعد خمس دقائق، وازدرد آخر جرعة مارتيني، وقال لي أن أذهب وأنفّذ تعليماته. «إنها مسألة حياة أو موت، يا فرانك»: تلك كانت كلماته الأخيرة.

وأنا مذهول من هذا الاعتراف المتأخر، ألححتُ عليه:

- وأنت، ماذا فعلت؟

- اتّبعتُ تعليماته حرفياً. عدتُ إلى بوسطن، وفي المساء ذاته، قصدتُ المنارة وبنيتُ في القبو جدار الآجر.

- ولم تفتح الباب قط؟

- أبداً.

ركنتُ إلى الصمت لبرهة.

- لا أصدّق أنك لم تسعَ قطّ إلى معرفة المزيد.

باعَدَ ذراعيه كتعبير عن العجز.

- لقد وعدتُ يا آرثر... وفضلاً عن ذلك، إذا أردتَ رأيي، لا يوجد سوى الترهات خلف هذا الباب.

- وماذا تظن؟

- أدفع أيّ شيء لأعرف ذلك، لكنني سأفي بوعدي حتى مماتي.

أخذتُ وقتي في التفكير، ثم قلتُ:

- مهلاً، ثمة أمر لا أفهمه. في خريف 1954، حين اختفى سوليفان فجأة، فتّشتم المنارة، أليس كذلك؟

- أجل، قلبناها رأساً على عقب. أولاً جدتك، ثم أنا، وبعدها شريف البلدة ومساعده.

- وفي ذلك الوقت، هل فتحتم الباب؟

- أجل. أتذكّر بوضوح حجرة فارغة لا تتجاوز العشرة أمتار مربعة أرضها ترابية.

- ألم يكن هناك باب أو ممر سرّي؟

- لا، لا شيء. لكنتُ لاحظت ذلك.

حككتُ رأسي. كلّ هذا لا معنى له.

- لنكن واقعيين، قلتُ. ماذا عساه يوجد هناك في أسوأ الأحوال؟ جثة؟ عدة جثث؟

- فكرتُ في هذا، طبعاً...

- في كلّ الأحوال، إذا سددت الباب بجدار عام 1958، وكان الأمر يتعلق بقضية قتل، فقد سقطَت بالتقادم منذ زمن طويل.

سكتَ فرانك لبضع ثوان، ثم اعترفَ بصوت واضح:

- أعتقد أن خلف هذا الباب شيء أفظع من جثة.

.2

اكفهرّت السماء وأرعدت. لطخت بضع قطرات من المطر الوثائق القانونية. تناولتُ قلم الحبر، ووقّعت بالأحرف الأولى كلّ الأوراق ووضعت إمضائي على آخر صفحة.

- أعتقد أنّ الطقس غير مناسب للصيد، قال أبي وهو يحتمي من المطر. هل أقلّكَ إلى بيتك؟

- إنني في بيتي، أجبتُ وأنا أمدّ له يدي بالعقد الموقّع على نسختين.

ندّت عنه ضحكة عصبية ووضع الوثيقة في حقيبته. رافقتُه بصمتٍ إلى شاحنته الصغيرة. جلس وراء المقود، وأدخل مفتاح التشغيل، ولكنني نقرتُ على الزجاج قبل أن يشغّل المحرك.

- لماذا تطلب هذا مني **أنا بالذات**؟ أنا لست الابن البكر في العائلة. وأنا لستُ أفضل مَن تتفاهم معه. إذاً، لماذا أنا؟

هزّ كتفيه، ولم يستطِعْ الإجابة.

- تريد أن تحمي الآخرين، أليس كذلك؟ أولادك **الحقيقيين**.

- لا تتحامق! قال بانفعال.

تنهّد بصوت مسموع.

- في البداية، كرهتُ أمك لأنها خانتني، قال مسلّماً بالأمر. ثم كرهتكَ أنت، هذا صحيح، لأن وجودك كان يذكّرني كل يوم بهذه الخيانة. ولكنني بتوالي السنين انتهيتُ إلى كره نفسي...

أشارَ برأسه إلى شبح المنارة الذي يتقطع تحت المطر ورفعَ صوته ليغطّي على ضجيج العاصفة.

- الحقيقة أنّ هذا اللغز يشغَل بالي منذ أكثر من ثلاثين عاماً. وأعتقد أنك الشخص الوحيد القادر على حلّه.

- كيف تريدني أن أحلّه من دون أن أفتح الباب؟

- هذه أصبحت مشكلتك الآن! أفلتَ كلماته وهو يشغّل المحرك.

ضغط على دواسة الوقود وأقلع فجأة، جاعلاً الحصى تطقطق تحت عجلات الشاحنة الصغيرة التي توارت في بضع ثوان، كأنّ العاصفة ابتلعتها.

3.

هرعتُ نحو البيت لأحتمي.

بحثتُ من دون جدوى في الصالون ثم المطبخ عن بقية ويسكي أو فودكا، ولكن لم يكن يوجد أيّ قطرة كحول في هذه المنارة الملعونة. عثرتُ في خزانة جدارية على آلة قديمة لتحضير قهوة موكا الإيطالية وبقية من بن مطحون. وضعتُ الماء كي يسخن، وسكبت المسحوق في مصفاةٍ وحضّرتُ لنفسي فنجاناً كبيراً من مشروبٍ كنتُ آمل أن يُنعشني. وخلال بضع دقائق، اجتاحت الحجرة رائحة زكية. كانت القهوة السريعة مُرة وبلا رغوة، لكنها ساعدتني على استعادة حيويتي. بقيتُ في المطبخ، وجلستُ إلى طاولة الشرب الخشبية المطلية بالإسبيداج. وطيلة ساعة كاملة، رحت أتصفّح بتأنٍّ مجموعة الوثائق القانونية التي تركها لي أبي، بينما تتضاعف غزارة المطر. كانت نسخٌ عن عقود البيع المختلفة تسمح بإعادة تشكيل تاريخ المبنى.

شيِّدت المنارة في عام 1852. كانت في البداية عبارة عن بيت حجري صغير تعلوه قبة صغيرة فيها برج مؤلف من عشرة قناديل استُبْدِلَتْ بعد فترة وجيزة بعدسة فريسنل. وفي نهاية القرن التاسع عشر، دمّر المبنى انهيار وحريق. بُنِي الهيكل الحالي -البرج الخشبي والمنزل المجاور- في عام 1899، وبعد عشرة أعوام، زوِّدت المنارة بفانوس أحدث يعمل بالكيروسين. ووصلت إليها الكهرباء في عام 1925.

في عام 1947، اعتبرت الحكومة الأميركية أنّ المنارة لم تعُد موقعاً استراتيجياً وتخلَّصت منه عن طريق بيعه في مزادٍ علني جرى خلاله التنازل عن أبنية عديدة عسكرية قديمة أخرى.

بحسب الوثائق التي أمامي، كان المالك الأول يُدعى ماركو هورويتز المولود عام 1906 في بروكلين، والمتوفى عام 1949. وأرملته مارثا المولودة عام 1920 هي مَن باعت المنارة إلى جدي سوليفان كوستيلو عام 1954.

أجريتُ حساباً ذهنياً: يبلغ عمر مارثا اليوم واحداً وسبعين عاماً. وثمة احتمال كبير أنها لم تزل على قيد الحياة. تناولتُ قلم حبرٍ مرميّ على طاولة الشراب ووضعتُ خطاً تحت العنوان الذي أعطته في ذلك الوقت: 26 برستون درايف في تالاهاسي، في فلوريدا. رفعتُ سماعة الهاتف المعلّق على الجدار واتصلتُ بالاستعلامات. لم يعُد هناك أحد يدعى مارثا هورويتز في تالاهاسي، لكن عاملة الاستعلامات وجدت امرأة تُدعى أبيغيل هورويتز في المدينة ذاتها. رجَوتها أن تصلني برقمها.

رفعَت أبيغيل السماعة. قدَّمتُ نفسي وذكرتُ لها سبب اتصالي. أخبرتني أنها ابنة ماركو ومارثا هورويتز. لم تزَل أمها على قيد

الحياة، لكنها منذ عام 1954 تزوّجت مرتين. وهي تحمل الآن اسم زوجها الحالي وتعيش في كاليفورنيا. وحين سألتُ أبيغيل إن كانت تتذكر **24 ويندز لايتهاوس**، كان الجواب صاعقاً:

- بكلّ تأكيد، فقد كنتُ في الثانية عشرة من عمري حين اختفى أبي!

اختفى... قطبتُ حاجبيَّ وأنا أعيد قراءة وثائقي.

- بحسب عقد البيع الذي أمامي، توفي والدك عام 1949، صحيح هذا؟

- **لقد أُعلن عن موت أبي في هذا التاريخ، ولكنه اختفى قبل ذلك بعامين.**

- كيف اختفى؟

- حدث ذلك نهاية العام 1947، بعد ثلاثة أشهر من شراء المنارة ومنزلها الصغير. كان البابا والماما يعشقان المنطقة وينويان أن يجعلا منها مكاناً لقضاء الإجازات والعطل. في تلك الفترة، كنا نعيش في ألبانيا. وفي صباح يوم سبت، تلقى أبي اتصالاً هاتفياً من شريف بلدة بارنستيبل أخطره أنّ الصاعقة ضربت شجرة من العقار في الليلة السابقة وسقطت على خط كهربائي. وبحسب الشرطي، خربت العاصفة أيضاً ألواح سطح البيت. استقلّ أبي سيارته وقصد **24 ويندز لايتهاوس** ليقدِّر حجم الأضرار. ولم يرجع من هناك قط.

- ماذا تقصدين؟

- بعد يومين، عثروا على سيارته الأولدز موبيل مركونة أمام البناء، لكن لا أثر لبابا. مشّط عناصر الشرطة المنارة ومحيطها تمشيطاً دقيقاً، ولم يجدوا أيّ أثر يفسِّر اختفاءه. ظلّت أمي تأمَل وتنتظر. أيام، أسابيع، أشهر... حتى بداية عام 1949 حين أعلن

أحد القضاة موت أبي رسمياً لكي نستطيع القيام بإجراءات الميراث.

رحتُ أنتقل من مفاجأة إلى مفاجأة. لم أسمعهم قط يتحدّثون عن هذه القصة!

- هل انتظرَت أمك خمس سنوات قبل أن تعرض المنارة للبيع؟

- أمي لم تكن تريد أن تسمع أيّ حديث عن هذا المنزل. وظلّت غير مكترثةٍ به حتى اللحظة التي احتاجت فيها إلى المال. فأوكلَت مسؤوليته إلى سمسار عقارات في نيويورك، وطلبت منه ألّا يعرضه على سكان المنطقة بشكلٍ خاص، لأنهم علموا جميعاً باختفاء أبي وصار العديد منهم يعتبرون المنارة تجلب المصائب...

- وبعد ذلك، لم تتلقوا أخباراً عن أبيك إطلاقاً؟

- على الإطلاق، أكّدت.

قبل أن تستدرك:

- ما عدا مرة واحدة.

لزمتُ الصمت لأتيح لها أن تتابع.

- في سبتمبر عام 1954، وقع حادث مأساوي في نيويورك بين محطّتي ريتشموند هيل وجامايكا. كان مجزرة مروعة: في ساعة الذروة وبأقصى سرعة، صدم قطار مكتظّ بالركاب قطاراً آخر يدخل المحطة. خلّف الحادث أكثر من تسعين ضحية وأربعمائة جريح. كان أسوأ كوارث الخطوط الحديدية على مرّ الزمان...

- سمعتُ به من قبل، ولكن ما علاقته بأبيكِ؟

- كان أحد زملائه موجوداً في أحد القطارين. أصيب بجروح لكنه نجا من الموت. وبعد المأساة، جاء مراراً وتكراراً ليرى أمي مدَّعياً أن أبي كان موجوداً في العربة ذاتها التي كان هو فيها وأنه قضى في الحادث.

وبينما كانت تتحدث، رحتُ أدوّن الملاحظات بأقصى سرعتي.
كانت التشابهات مع ما حدث لجدِّي صاعقة.

- بالتأكيد، لم يعثروا إطلاقاً على جثة أبي في ذاك القطار، لكنني كنتُ مراهقة في تلك الفترة وقد بلبلتني أقوال هذا الرجل كثيراً. كان يؤمن إيماناً مطلقاً بما يقول.

حين أنهَت أبيغيل روايتها، شكرتُها على معلوماتها.

وأنا أغلق السماعة، فكَّرتُ بأبيها وجدي: رجلان ابتلعتهما أحشاء المنارة، وبفاصل بضع سنين بينهما، ضَرَبَتهُما لعنة تحوم فوق هذا المكان.

مكانٌ أصبحتُ أنا مالكه الوحيد من الآن فصاعداً.

الأربع والعشرون ريحاً

كانت الشمس هناك تموت في الهاوية.

فيكتور هيغو

1.

كان دم متجمّد يجري في عروقي.

مسحتُ بكمٍّ كنزتي البخار الذي تكاثف على زجاج النوافذ. لم تكن الساعة قد بلغت الرابعة عصراً، ومع ذلك هبط الليل تقريباً. في سماء مظلمة، ظلّ المطر يجلد النوافذ. كانت الريح تعصف. يكنس هبوبها كلّ شيء: الأشجار تنحني، والأسلاك الكهربائية تتراقص، وهياكل النوافذ ترتعش. كان هيكل الأرجوحة المعدني يصرّ، وينوح نواحاً حاداً يشبه بكاء طفل.

احتجتُ أن أتدفأ. ثمة أخشاب صغيرة وبعض الحطب قرب المدفأة. أشعلتُ ناراً وحضَّرت لنفسي القهوة مجدداً. أغرقتني هذه المكاشفات المتتابعة في الاضطراب. على الأرجح لم يمُت جدي غرقاً على سواحل ولاية مين. لقد هجرَ زوجته وابنه الوحيد ليرتكب الحماقات. ولكن لماذا؟ بالتأكيد، لا أحد في منأى البتة عن ضرب

من الجنون أو ضربة صاعقة، إلّا أنّ هذا التصرف كان بعيداً جداً عمّا نُهِي إليّ عن شخصية سوليفان كوستيلو.

كان ابن مهاجر إيرلندي، شغّيل كادح كسب بمشقة نصيباً من الحلم الأميركي. لماذا تبخّر ذات يوم خريفي وقطَعَ بفظاظة العلاقة مع كلّ ما شكّل وجوده؟ أيّ أسرارٍ مخزيَة ورهيبة كان يخبئها في حنايا نفسه؟ ماذا فعل بين خريف 1954 ونهاية عام 1958؟ وعلى الأخص، هل هناك أيّ فرصة لأن يكون على قيد الحياة حتى اليوم؟

وفجأة بدا لي بديهياً أن هذه الأسئلة لا يمكن أن تظل بلا أجوبة.

2.

تحدّيتُ المطر لأصلَ إلى المستودع الملتصق بالبيت الريفي الصغير. وحين دفعت بابه، اكتشفتُ بين أدواته الخربة والصدئة مطرقة كبيرة جديدة لامعة لم تزَل تحمل لصاقة باسم «هوم ديبو»[1]. كانت طرازاً ألمانياً قبضَتُها من الخشب الطبيعي والجزء المعدني عبارة عن سبيكة من النحاس والبيريليوم. لا بد أن أبي اشتراها منذ فترة وجيزة. وحتى وجيزة جداً... بالتأكيد لأجلي.

شعرتُ أنّ الفخّ يُطبق فكّيه عليَّ.

ودون أن أفكر، تناولتُ المطرقة، وإزميلاً قديماً ومُخْلاً كانا هناك. خرجتُ من المستودع ودلفتُ إلى البيت الريفي، ثم إلى الممرّ. كان الباب المُفضي إلى القبو قد بقي مفتوحاً. نزلتُ السلم مع أدواتي وشغّلتُ القاطع الكهربائي لأضيء الحُجرة.

---

(1) هوم ديبو: سلسلة متاجر أميركية كبيرة لبيع الخردوات.

لم يزل بمقدوري أن أعود أدراجي. يمكنني أن أطلب سيارة أجرة تقلّني حتى المحطة، ثم أعود إلى بوسطن بالقطار. وأستطيع أن أطلب من سمسار عقارات أن يضع 24 ويندز لايتهاوس في الإيجار. في الصيف، تؤجَّر مساكن من هذا النوع بآلاف الدولارات شهرياً في إنجلترا الجديدة. وهكذا أحصل على دخلٍ منتظمٍ وأتابع حياتي بهدوء.

لكن أيّ حياة؟

خارج مهنتي، لم يكن لوجودي أيّ معنى. لا ارتباطات. لا أحد أحبّه.

طرفتُ بعينيَّ. فرَضَت صورة منبثقة من الماضي نفسها على ذهني. أنا في الخامسة من عمري. رأسي الأشقر مرفوع نحو أبي الذي تركني لتوّه أسقط على أرضية الغرفة. إنني مذهول.

- عليكَ ألّا تثق بأحد في الحياة، هل تفهم يا آرثر؟ لا أحد! ولا حتى بأبيك ذاته!

كان هذا الميراث هديّة مسمومة، وفخاً نصَبَه فرانك. لم يتحلَّ أبي بالشجاعة ليفتح الباب بنفسه. ولا بالشجاعة لينقض وعداً قديماً. لكنه قبل أن يموت، أراد أن يقوم شخصٌ آخر بذلك نيابةً عنه.

وهذا الشخص، هو أنا.

3.

مسحتُ قطرات العرق المتصبِّبة على جبيني. كانت حرارة مزعجة تسودُ هذا الجزء من البناء. كان الهواء شحيحاً والجوّ خانقاً، كما في حجرة محرّكات سفينة.

شمَّرتُ أكمامي ورفعتُ المطرقة بيديَّ الاثنتين، ووازنتها فوق رأسي لأشحَذَ همّتي. ثم هويتُ بها على مركز الصليب.

وأنا أغضن عينيَّ لأتجنَّب قطع الآجر المتطايرة والغبار، هويتُ بضربة ثانية وثالثة.

في الضربة الرابعة، رفعتُ المطرقة بقوة أكبر، بئس ما فعلت: قطعَت المهدة أنبوبين يمتدان في السقف. انسكبت تدفقات من المياه الباردة فوقي قبل أن أستدرك وأعكس مفتاح علبة عداد الماء وأوقف الطوفان.

تباً!

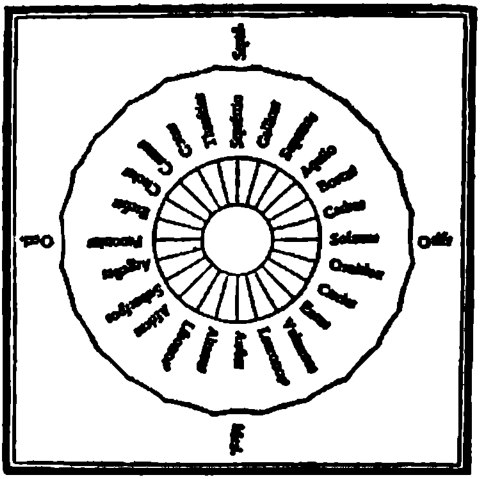
تبللتُ من رأسي حتى قدمي. وكان الماء بارداً جداً ومصفرّاً وينشر رائحة عفونة. خلعتُ فوراً قميصي وبنطالي. كان الحسّ السليم يقتضي أن أصعد وأبدِّل ملابسي، لكن حرارة الحجرة والرغبة بمعرفة ما وراء الباب كانتا كافيتين لأستأنف العمل.

وأنا عاري الجذع ومرتدياً سروالاً داخلياً مبرقعاً بدوائر وردية اللون، تابعتُ بحماسة أكبر، ورحتُ أطرق الآجر بغضبٍ شديد. كان كلام أبي يتردّد صداه في داخلي: **أعتقد أن ما يوجد خلف الباب هو أفظع من جثة.**

وبعد نحو عشر ضربات، أحسستُ بالسطح المعدني خلف الجدار. وبعد ربع ساعة عريتُ تماماً فتحته: بابٌ منخفض وضيق من الحديد المصفّح يكسوه الصدأ. مسحتُ بساعدي العرق المتصبب على جذعي واقتربت من الدهليز. ميّزتُ على صفيحة نحاسية مثبتة على الباب ببراغي وردة الرياح(*) المحفورة على المعدن.

(*) وردة الرياح: هي دائرة تبيّن الجهات الأصلية والفرعية وتنقسم إلى اثنين وثلاثين رأساً. (المترجم)

سبق لي أن رأيتُ هذا الرسم التخطيطي: يوجد رسمٌ مطابق له ممهورٌ على الجدار الحجري المحيط بالمنارة. كان يلخّص اللائحة الكاملة للرياح المعروفة في الأزمنة الغابرة.



وكان يليه نقش باللاتينية يحذّر:

بعد هبوب الأربع وعشرين ريحاً، لن يبقى شيء أبداً.

وببداهة -لكنني لا أعرف السبب- أخذَت المنارة اسمها من صورة هذه الوردة. وفي أوج هيجاني، حاولتُ فتح الباب، لكن القبضة استعصَت، كأن الصدأ صَلَّبَ حركتها. ضغطتُ عليها لكنها ظلّت في يدي. لمحتُ الأدوات التي أحملها معي وتناولتُ المُخل. أدخلتُ رأسه المشدوف المائل في مفصل الباب لأستخدمه ككلَّاب. وعقصته بكلّ قواي حتى سمعت طقطقة حادة. لقد انخلع القفل.

4.

أشعلتُ مصباحي الكهربائي. وقلبي يخفق، دفعتُ الإطار المعدني الذي كشط الأرضية بقسوة. سلَّطتُ المصباح على الداخل. أضاءت الحزمة الضوئية صالة مشابهة للصالة التي وصفها لي أبي: أقلّ من عشرة أمتار مربعة ذات أرضية موحِلَة مُحاطة بأربعة جدران من الحجارة غير المتجانسة. أخذ الدم ينبض في صدغيَّ. دلفتُ إلى الحجرة بحذر، وأنا أضيء كلّ ركن فيها. للوهلة الأولى، بدا المكان فارغاً. كانت الأرضية الترابية غير مستقرة. أحسستُ أنني أخوض في الوحل. فتّشت الجدران بانتباه فائق: كانت خالية من أي نقش.

كل هذا الجهد من أجل هذا؟

هل روى لي فرانك ترهات؟ وذاك اللقاء مع أبيه في مطار كينيدي هل حصلَ فعلاً أم أنه كان مجرَّد حلم؟ لماذا بنى حول هذه المنارة أسطورة لا وجود لها إلّا في هذياناته؟

كانت تجول في رأسي كلّ هذه الأسئلة حين اجتاز الحجرة تيار هوائي غير متوقّع، جليدي وقوي. ومن شدّة المفاجأة، أفلتُّ مصباحي. حين انحنيت لالتقطه، رأيت بغتة الباب ينغلق عليّ.

غرقتُ في الظلام الدامس، نهضتُ ومددتُ يدي لأفتحه، لكن جسدي تجمّد، كأنه تحوّل إلى تمثال من جليد. ودوّى خرير الدم في أذني.

زعقتُ. ثم مزَّقَت حشرجة الشهيق طبلة أذني حتى دوختني، بينما أحسستُ الأرض تميد تحت قدمي.

القسم الثاني

في أماكن مريبة

1992
أضواء المدينة

الطريق إلى جهنم مُعَبَّدٌ بمهارة حتى
أنه لا يحتاج أي صيانة.

روث ريندل

.0

نفحات واخزة من صمغ المر وخشب مطلي بالورنيش.
رائحة كافور وبخور وشمع.
مطرقة مدبّبة تدقّ داخل جمجمتي.
أحاول أن أفتح عيني، لكنني أخال أجفاني مُخاطة. إنني متمدِّد على أرضٍ صلبة وباردة. وخدّي مهشّم بحجر. أشعر أنني محموم وأرتعش. وثمة حازوقة تلازمني. يسد صدري ألمٌ يمنعني عن التنفس بشكل طبيعي. حلقي جاف، وطعم إسمنت في فمي. بقيت خائر القوى لثوان عديدة أخرى، وعاجزاً عن الحركة.

.1

ورويداً رويداً، بدَّد لغطُ حشدٍ غاضبٍ الصمتَ من حولي. ودوّى الغضب.

لكن ضدّ ماذا؟

وبجهدٍ يفوق طاقة البشر، وقفتُ وفرجتُ جفنيّ. شعرتُ بحرقة في عيني، ونظري مشوّشٌ. بذلت جهداً لأميّز الديكور من حولي.

إضاءة متناثرة، صليب، شمعدانات تحمل شموعاً طويلة، قبّة من البرونز، وأخرى من المرمر. مشيتُ بضع خطوات مترنحاً. يبدو أنني كنت وسط مذبح كنيسة، وحتى كاتدرائية: فناء من نحوِ مئة متر ينبسط أمامي، يحفّ به صفان طويلان من مقاعد خشبية منحوتة. رفعتُ رأسي: عشرات النوافذ متعدّدة الألوان تُسَرِّب ضوءاً متلألئاً من زجاجها المتعدّد الألوان. القناطر القوطية التي يبلغ ارتفاعها أكثر من ثلاثين متراً أصابتني بالدوار.

ومقابل المذبح، كان أورغ أثري ينشر منفاخه وأنابيبه العديدة تحت العين العملاقة لوردة زجاجية تتلألأ بدرجات لامتهية من اللون الأزرق.

- اطلبوا الشرطة!

انبعثَ الصراخ من الحشد. عشرات العيون المذعورة حدّقت بي: سائحون، مؤمنون راكعون يؤدّون صلاتهم، قساوسة ينتظرون بصبرٍ قرب كراسي الاعتراف. فهمت فجأة زمجرة استهجانهم وأنا ألاحظ أنني شبه عار، لا أرتدي من ملابسي سوى سروالي الداخلي ذي الدوائر الصغيرة الوردية وحذائي ستان سميث الملوث بالوحل.

ماذا أفعل هنا، تباً؟

كانت ساعة جدّي في معصمي. ألقيت نظرة سريعة عليها -إنها الساعة السابعة عشرة واثنتا عشرة دقيقة - عندها أخذَ كلّ شيء يدور حولي. رحتُ أتذكر حديثي مع أبي، وبحثي حول المنارة، والحُجرة

المسدودة بجدار في القبو حيث تسود حرارة استوائية والباب المعدني الذي انغلق عليّ بفظاظة.

لكن ماذا حدث بعد ذلك؟

كانت ساقاي مرضوضتين. وحتى لا أسقط، استندتُ إلى مِقْرَأ يحمل كتاب توراة ثقيل مقروءٍ مراراً. مسحتُ قطرات العرق الباردة المتصبّبة على امتداد ظهري. يجب أن أخرج من هنا. والأفضل بأقصى سرعة.

فات الأوان!

- شرطة! لا تتحرك! ضَع يديك فوق رأسك!

كان رجلا شرطة بزيّ رسمي قد دخلا للتو إلى الكنيسة وصعدا راكضين ممرّ الفناء المركزي.

ليس وارداً أن يوقفوني قبل أن أفهم ما يحصل لي. استجمعتُ قواي واندفعتُ نازلاً بسرعة الدرجات الرخامية التي تفضي إلى مغادرة المذبح. كانت الخطوات الأولى مؤلمة. بدت لي عظامي هشّة مثل الكريستال، ومع كلّ خطوة، كنت أخال أن ساقيّ ستُكسران مُصدِرَتين طقطقة. كزَزت على أسناني، وسرتُ على امتداد المصلى الجانبي، وأنا أدفع الناس، وقلبتُ في أثناء عبوري ورود زينة وحامل شموع حديدي وأكداساً من الكتاب المقدس مرتبة في خزانة.

- هيه، أنت! توقف!

ودون أن ألتفت، اندفعتُ بسرعة على الأرضية الملساء. عشرة أمتار أخرى، ودفعتُ أول باب أمامي. حسنٌ، أصبحتُ في الخارج.

نزلتُ صحن الدرج الحجري وأسرعتُ إلى الفناء و...

.2

. . . كونشيرتو من أبواق السيارات وصفارات الإنذار صَمَّتْ أذنيّ. كانت أعمدة دخان أبيض تتصاعد من طريق لزج قبل أن تتبدَّد في سماء قذرة تهدر فيها طائرة مروحية. كان الهواء مكهرباً، ورطباً، وخانقاً كما في مرجل.

تهتُ، وبذلت ما بوسعي حتى لا أفقد توازني. حاولتُ الهرب، ولكن قبل أن أتمكن من استئناف ركضي، انقضَّ علي أحد الشرطيين، وتشبَّث برقبتي. انتزعَت قبضته مني صرخة. ورغم ضغطه، نجحتُ في الاستدارة ودفعت مهاجمي بركلة قوية من قدمي أصابته وسط وجهه.

حين أصبحت حراً، استأنفتُ ركضي فلاحقتني زميلته -امرأة قصيرة والأصحّ مربوعة- التي اعتقدتُ أنني أستطيع الفرار منها بسرعة. لكنني بالغت في تقدير قواي. كانت ساقاي الواهنتان توشكان أن تخذلاني، ووجدتُ صعوبة في استرداد أنفاسي. حاولتُ اجتياز الشارع رغم حركة السير، لكن الشرطية الصغيرة عرقلتني بقدمها وثبّتتني على الأرض بكل ثقلها. وقبل أن يُتاح لي المقاومة، شعرتُ بأصفادٍ فولاذية تنغلق وراء ظهري، وتضغط على رُسغيَّ.

تشكّل عندئذٍ شريط من الصور المهتزة أمام عينيّ: سيارات أجرة صفراء تتعرّج في قناة من الزجاج والإسمنت، أعلام الولايات المتحدة ترفرف في الريح، شبح كنيسة قديمة غارقة في غابة ناطحات سحاب، تمثال برونزي للاعب قوى يرفع قبّة زرقاء هوائية. . .

ورأسي مسحوق على الرصيف، رحتُ أتشنّج من الخوف. كانت النار تستعر في أحشائي، وارتداد الحمض ينخر بلعومي. وبينما كانوا يجرّون جسدي المتعرّق وشبه العاري على الإسفلت،

أخذتُ أتساءل كيف استطعتُ الوصول إلى كاتدرائية سانت-باتريك في الجادة الخامسة في نيويورك.

3.

الساعة 20:00

في السجن.

دفنتُ وجهي بين يدي، ورحتُ أمسّد صدغيّ بالإبهامين وأنا أحلم بثلاثة ظروف من الأسبرين وحقنة مضاد التهاب.

بعد توقيفي، قادتني سيارة شرطة إلى السجن السابع عشر، وهو عبارة عن حصن من الآجر البني يقع على تقاطع ليكسنغتون والطريق الثاني والخمسين. وفور وصولي إلى المخفر، حبسوني في زنزانة جماعية وسط طغمة من المتشردين، من المهمّشين وتجار المخدرات.

كانت الزنزانة تقع تحت أرض المبنى، والجو فيها خانق. لا يوجد تكييف، وليس ثمة أية نافذة، ولا أية نسمة هواء. لا بدّ أن السجناء يتجمّدون في الشتاء؛ وفي الصيف يتعرّقون كأنهم في حمام ساونا. كنت أجلس على مقعد مثبت بالجدار، وأنتظر منذ ثلاث ساعات، دون أن يكلّف أحد نفسه عناء تزويدي بالملابس. وأنا عاري الجذع وأرتدي فقط سروالي الداخلي ذي الدوائر الوردية، عانيت جميع أنواع السخريات من قبل «رفاقي» في الزنزانة.

متى سينتهي هذا الكابوس؟

- هل يروقك أن تتنزه عارياً، يا صغيري الشاذ؟

منذ ساعة والمتشرد الجالس إلى جانبي يضايقني. إنه هزيل مثل كلب أجرب، حثالة حقيقية بوجهٍ مائل للحمرة تغطيه البثور. واضح أنه بحاجة إلى المخدرات، يمضي وقته في كَيل الشتائم بكلام بذيء

وفي حكّ لحيته الخشنة المصفرّة حتى إدمائها. في بوسطن، كانوا يحضرون يومياً نماذج عديدة من صنفه إلى قسم الإسعاف حيث أعمل: كائنات حطّمَتها الحياة والشارع، كائنات هشّة، لكنها عدوانية، ومنفصلة عن الواقع، تراجعنا في حالة غيبوبة كحولية، وفتور حرارة أو اضطراب نفسي.

- مرتاح أنت في هذا اللباس، أليس كذلك، أيها المخنث؟

كان يثير شفقتي، ولكنه يُخيفني أيضاً. أشحتُ بوجهي لأتجاهله؛ نهض فجأة وأمسكني من ذراعي.

- أخبرني، أليس لديك بعض الشراب المخبأ في سروالك الداخلي؟ شيءٌ من الكحول مثلاً...

دفَعْته برفق. رغم الحرارة، كان متدثراً بمعطف صوفي سميك، تصلّب من شدّة القذارة. حين تهاوى على المقعد، لمحتُ صحيفة مطوية أربع طيات تظهر من جيبه. تمدّد السكير على المقعد، ووجهه إلى الجدار. وبينما راح يتابع هذيانه، نشلتُ الصحيفة وفتحتها بانفعال. كانت نسخة من صحيفة **نيويورك تايمز** يتصدرها مانشيت عريض:

في السباق إلى الرئاسة،

مؤتمر الحزب الديمقراطي

يدعم بيل كلينتون

صوت جديد من أجل أميركا جديدة.

تحت هذا العنوان، صورة كبيرة تُظهر المرشح يتأبّط ذراع زوجته هيلاري وابنته تشيلسا ويخترق صفوف الجمهور المتراصة. كان تاريخ الصحيفة 16 يونيو 1992.

من جديد، دفنتُ رأسي بين يديّ.

هذا مستحيل...

عبثاً شحذتُ ذهني، لا جدوى: كانت آخر ذكرى لي تعود إلى بداية يونيو 1991. كنت منهاراً. وفي غضون دقيقة، انفتحت هاوية في داخلي وخفق قلبي. وكي أستردّ هدوئي، حاولتُ مراقبة تنفسي واستعادة رشدي. كيف أفسِّر اضطراب ذاكرتي؟ أهي آفة دماغية؟ أم صدمة مرحلية؟ أم تعاطي المخدرات؟

كنت طبيباً. وحتى لو لم يكن علم الأعصاب من اختصاصي، فقد أجريتُ ما يكفي من التدريبات في مختلف المستشفيات لأعرف أنّ فقدان الذاكرة غالباً ما يبقى لغزاً.

من الواضح أنني أعاني من فقدان ذاكرة لاحق: لم يعد لدي أي ذكرى عن الأحداث التي تلت دخولي إلى الحجرة «المحظورة» في المنارة. ومن الجلي أنّ شيئاً ما انسدّ في دماغي منذ ذلك اليوم. لقد اختفيتُ من حياتي ما ينوف عن عام!

ولكن لماذا؟

فكرتُ. لقد سبق لي أن رأيت مرضى عاجزين عن تثبيت ذكريات جديدة بعد صدمة عنيفة: إنه ردّ فعل دفاعي كي لا يغرقوا في الجنون. لكن ذكرياتهم عموماً كانت تطفو على السطح بعد بضعة أيام؛ أمّا في حالتي، فالأمر يتعلق بفترة تزيد على عام...

آه تباً...

- آرثر كوستيلو؟

شرطي بزيّ رسمي صرخ لتوّه على اسمي أمام باب الزنزانة.

- أنا، قلتُ وأنا أنهض.

فتح قفل شبك الحديد وأمسكني من ذراعي ليُخرجني. اجتزنا متاهة من الممرات قبل الوصول إلى قاعة الاستجواب: عشرون متراً مربعاً، مرآة عريضة، طاولة معدنية مثبتة بالأرض مُحاطة بثلاثة كراسي غير متجانسة.

تعرّفتُ على الشرطي الأول الذي حاول توقيفي وركلته بضربة من قدمي. كان يضع عصابةً على مستوى قوس حاجبيه ورمقني بنظرة شريرة تعني «أيها الساقط القذر». ومن دون تحدٍّ، غمزته غمزة تعني: «بلا حقد، يا رجل» كانت ترافقه شرطية أخرى، لاتينية ذات شعر أسود داكن مرفوع بشكل كعكعة. وبهيئة هازئة، قدَّمَت لي بنطالاً بالياً وكذلك كنزة قطنية رمادية وخشنة. وبينما رحتُ أرتدي ملابسي الجديدة، قدَّمَت نفسها على أنها ضابط الحجز المكلفة بالادّعاء ضدّي، ونصحتني بعدم التذاكي معها.

وبناء على دعوتها، عرّفت بهويتي، عمري، عنواني، مهنتي. وبعد أن أخبرتني بالأفعال المتّهم بها -كشفُ العورة في مكان عبادة، رفض الاستدعاء، ضرب وجرح أحد عناصر حفظ النظام- سألتني إن كنتُ أعترض على هذه التهم. وبينما ألتزم الصمت، حاوَلَت أن تعرف إن كنت عانيت من مشاكل نفسية سابقة. تمسَّكتُ بحقّي في عدم الإجابة عن أسئلتها وطالبتُ بمحام.

- وهل لديكَ نقود لدفع أتعابه، أم تريد محام منتدب؟

- أتمنى أن يتولى الدفاع عني مكتب الأستاذ جيفري وكسلر، محامٍ في بوسطن.

لم تلحّ الشرطية؛ جعلتني أوقّع على تصريحي، وأخبرتني أنني سأقدَّم إلى قاضٍ غداً صباحاً، ثم نادَت أحد مساعديها ليقودني إلى غرفة البصمات، وفيها أُخذت بصماتي الرقمية والتقطوا صورة

شخصية لي. وقبل أن تأمر بإعادتي إلى الزنزانة، وافقَت ضابطة الحجز أن أجري اتصالاً هاتفياً.

4.

بلا حماس، قرَّرت أن أتصل بأبي، فرانك كوستيلو. كنتُ أتوجّس من ردة فعله، ولكنني كنتُ أعرفُ أيضاً أنه هو وحده يستطيع أن يُخرجني بسرعة من الوضع المزعج الذي ألفيتُ نفسي فيه. اتصلتُ إذاً ببولين، سكرتيرته المخلصة في المشفى التي كانت لفترة من الزمن عشيقته. فُوجِئَتْ باتصالي، وأخبرتني أنّ فرانك يقضي حالياً إجازة مع زوجته في منطقة بحيرة كوم، في إيطاليا.

- ما هذا الاختلاق يا بولين؟ أبي لا يأخذ إجازات أبداً وعلى الأخص على بُعد ستة آلاف كيلومتر من بيته!

- حسنٌ، يجب أن تصدّق أنّ كل شيء يتغيّر، أجابت بشيء من عدم الارتياح.

- اسمعي، ليس لديّ وقت لأشرحَ لك أسباب اتصالي، لكن من الضروري أن أتحدّث إلى فرانك فوراً.

تنهّدت، ووضعتني قيد الانتظار، وبعد أقلّ من دقيقة، جاءني صوت أبي الأجش والمبحوح:

- أيها الشقي، أهذا أنت حقاً يا آرثر؟

- مرحباً بابا.

- لماذا بقيتَ عاماً دون أن تُخبرنا عن أحوالك؟ أقلقتنا عليك!

وبثلاث جمل، رسمت له الصورة العامة لوضعي الصعب.

- ولكن أين كنتَ طيلة هذا الوقت، بالله عليك؟

كنت أسمعه يختنق من الغضب على الطرف الآخر من الخط. كان صوته أجشاً وكأنه يتكلم من القبر.

- ليس لدي أدنى فكرة، تصوَّر! آخر ذكرى لي تعود إلى ذاك اليوم الصيفي حين جعلتني أوقِّع الأوراق بشأن ميراث المنارة.

- لنتحدّث عنها، عن المنارة! رأيتُ أنك حطَّمت جدار الآجر! مع أنني منعتكَ بقوة أن تفعل هذا!

أخرَجَني ردّه عن طوري.

- لم تكن تنتظر مني إلّا هذا! وحتى اشتريت لي كلّ الأدوات. . .

لم يكذِّبني. على العكس، شعرتُ وراء غضبه المفتعل أنه يتشوّق ليعرف. وتتمّة المحادثة أكّدت حدسي.

- إذاً. . . ماذا وجدتَ وراء الباب؟

- كنيسة تفاهات، قلتُ لأتملّص من سؤاله.

- ماذا وجدت؟ كرَّر رافعاً وتيرة التهديد.

- لتعرف ذلك، على محاميك أن يُخرجني أولاً من السجن.

انطلق في سعالٍ مديد، وانتهى به الأمر أن يَعدني.

- سأتصل بجيفري حالاً. سيُخرجك من هناك.

- شكراً. أخبرني بابا، هل أنتَ متأكد من أنك أصدَقتني القول بكل ما تعرفه عن تلك المنارة؟

- طبعاً! لماذا سأخفي عنك أي شيء؟ لكن لعله كان من الأفضل لي لو لزمتُ الصمت، ما دمتَ لم تستمعْ إليّ.

لم أشأ أن أتوقف عند هذا الحد.

- أفكِّر على الأخص بقصّة جدي.

- ماذا، جدك؟ صدِّقني، لقد أخبرتكَ بكلّ شيء. أقسم لك بحياة أولادي.

اجتاحني ضحك عصبي. أمضى حياته وهو يقسم لأمي أنه لم يخُنْها. وبحياة أولاده...

- فرانك، أخبرني بالحقيقة، أيها الشقي!

سمعته يبصق رئتيه على الطرف الآخر من الخط. وفجأة، فهمت. بما أنّ بولين نجحت في إيصالي به بهذه السرعة، فهو لم يكن في إيطاليا، وإنما في مشفى ليعالج انتكاس مرض السرطان لديه، وقد احتاط لَئلا يعرف أحد بالأمر واقتنع بأنه نجحَ مرة أخرى في تمرير ذلك من خلال داء المفاصل عنده.

- لا بأس، استسلم أخيراً. حقاً هناك أمر لم أحدِّثك عنه وربما تستحقّ أن تعرفه.

رحت أتوقّع كل شيء... ولا شيء.

- جدّكَ لم يمُت.

وأنا غير مصدِّق، سألتُ أبي إن كان يسخر مني.

- للأسف، لا.

- ولماذا للأسف؟

سمعتُ تنهيدة عميقة ثم:

- سوليفان في نيويورك. محجور عليه في مشفى روزفلت آيلند النفسي.

وبينما كنت أتلقى بَوحَه، ربَّت أحدهم على ظهري: كانت الشرطية اللاتينية تحاول إفهامي أنّ اتصالي لا يمكن أن يطول إلى هذا الحد. وبإشارة من يدي طلبتُ منها دقيقة إضافية.

- منذ متى تعرف أنه حيّ؟

- منذ ثلاثة عشر عاماً.

- ثلاثة عشر عاماً!

تنهيدة جديدة من التعب.

- ذات مساء، في عام 1979، تلقيتُ اتصالاً هاتفياً من مسؤول إحدى جمعيات مانهاتن التي تهتم بالمشرّدين الذين ليس لديهم مسكن ثابت. لقد عثر شبابه للتو على سوليفان تائهاً في المحطة الرئيسة. كان عدائياً، وفاقداً رشده بالكامل، ولم يعُد يعرف أين هو ولا حتى في أيّ عصر.

- وأنتَ، ابنه من صلبه، حجرتَ عليه؟

- لا تظنّ أنني فعلتُ هذا عن طيب خاطر! انفجَرَ فرانك. كان قد اختفى منذ أكثر من أربع وعشرين سنة. كان مريضاً، وعنيفاً، ولا يمكن السيطرة عليه... كان يحكي أي شيء! ومتهمٌ بقتل امرأة... ثم إنني لم أتّخذ هذا القرار بمفردي. هناك معاينات نفسية عديدة كان تشخيصها قاطعاً: هذيان الاضطهاد، ذهان، خرف الشيخوخة...

- لكن كيف استطعتَ الاحتفاظ بهذا السر؟ كان من حقّي أن أعرف! لقد حرمتني من جدي. كان بمقدوري أن أزوره، وربما استطعتُ أن...

- ترّهات! ما كنتَ لتحبِّذ ما آلت إليه حاله. بماذا ستُفيدك زيارة رجلٍ خَرِف؟ عدا عن أنّ هذا سيؤلمك!

رفضتُ أن أوافقه على هذه العقلانية.

- ومَن كان يعرف بالأمر؟ ماما؟ أختي؟ أخي؟

- وحدها أمك كانت تعرف. ماذا تظن؟ لقد فعلت ما بوسعي حتى لا يُشاع الخبر. أردتُ أن أحمي سمعة عائلتنا، وأن أحمي الشركة...

- حماية المظاهر، كالعادة... هذا هو الأهم بالنسبة لك دوماً، أليس كذلك؟

- أنتَ تُضجرني يا آرثر!

أردتُ أن أردّ، لكنه أغلق السماعة.

5.

الساعة التاسعة من صباح اليوم التالي

- تعرف ما يُقال، يا بني: لا تُسنح الفرصة للمرء ثانية أبداً ليُحدث تأثيراً حسناً.

بينما ننتظر بفارغ الصبر في رواق المحكمة، أخذ جيفري وكسلر يساعدني في تسوية عقدة ربطة العنق؛ وراحت مساعِدَته المتسلّحة بريشة مستديرة تحاول إخفاء الهالات حول عينيّ والشحوب بمسحوق تجميل. لم يكن أمامنا سوى بضع دقائق لنقرِّر الاستراتيجية التي يجب اعتمادها قبل المثول أمام القاضي، لكن جيفري الوفي لفلسفة أبي كان يهتمّ بالمظهر أكثر من جوهر القضية.

- هذا غير منصفٍ، لكن هكذا تجري الأمور، استطردَ المحامي العجوز. إذا نجحت في خداع القاضي، تكون قد اجتزتَ نصف الطريق. وأنا سأتكفَّل بالباقي.

أعرفه منذ طفولتي، وأحبّه حبّاً جماً من دون أن أعرف السبب. وينبغي القول إن رجل القانون أجادَ تسيير الأمور. لم يحضر لي طقماً وحسب، وإنما فكّر أيضاً في استعادة محفظتي وبطاقتي المصرفية وجميع أوراقي -بطاقة هوية شخصية، رخصة قيادة، جواز سفر- لكي يثبت بالدليل القاطع هويتي أمام المحكمة. والله وحده يعلم كيف تدبّر أمره لكي تحظى قضيّتي بالأولوية.

دامت جلسة الاستماع الأولى أقلّ من عشر دقائق. وتبعاً لروتين بطيء، تلا قاضٍ لم يزل خاملاً الوقائع التي تُدينني، ثم أعطى الكلام على التوالي لجهة الاتهام والدفاع. بدأ جيفري عندئذٍ كلامه المعسول. بلهجة مقنعة، فنَّد القرائن المضلّلة، وراح يثبت أنّ قضية برمتها بُنيَت على سوء فهم لا يُعتد به، وطلب إسقاط التهم الموجّهة ضدّي. ودون أن يبالغ في رفضه، وافق المدعي العام على إسقاط تهمة كشف العورة. ولكنه بعد مبارزة أخيرة في استعراض العضلات مع جيفري، رفض التنازل عن الاتهام بضرب وجرح ممثّل حفظ النظام. أعلن جيفري أننا في هذه الحالة سنترافع على أساس عدم الإقرار بالذنب. طلب المدعي العام كفالة مقدارها عشرين ألف دولار واستطاع جيفري تخفيضها إلى خمسة آلاف دولار. ثم أخبرني القاضي أنه سيستدعيني قريباً من أجل القضية وأنزلَ مطرقته.

القضية التالية!

6.

لم تكَد جلسة الاستماع تنتهي حتى فهمتُ أنّ جيفري مكلف بإعادتي إلى بوسطن. أصرَّ على عودتي معه، لكنني كنت أريد البقاء حراً في تحركاتي.

– لن يكون فرانك مسروراً، تذمّر.

– إنْ كان ثمَة مَن هو قادر على الوقوف في وجهه، فهو حقاً أنت، أليس كذلك؟

سلّمَ بالأمر ودسَّ في جيبي أربع أوراق نقدية من فئة الخمسمئة دولار.

وأخيراً أنا حرّ.

خرجتُ من المحكمة واجتزتُ ماشياً مجموعة بيوت. كانت الساعة تجاوزت العاشرة صباحاً، لكن هواء المدينة لم يزل بارداً. وهزيزه يسكّن رَوعي. لم يغمض لي جفن في الليل، لكنني كنت أشعر بالتحرّرِ من ثقلي واستعدتُ شيئاً من اللياقة البدنية. أصبَحَت مفاصلي مَرِنَة، ورحت أتنفّس بانتظام، واختفى صداع رأسي. وحده بطني يؤلمني ويقبقب. توقفتُ للراحة في دانكن دونتس، ومنحت نفسي فنجاناً من القهوة وفطيرة مقلية قبل أن أستأنف مسيري: بارك أفينيو، ماديسون، الشارع الخامس. آخر مرة وطئت فيها قدماي نيويورك، كانت لحضور حفل زفاف أحد زملائي الأطباء. أول استراحة في نيويورك، ثم توجهتُ إلى أتلانتيك سيتي. وطفقتُ أتذكّر أننا استأجرنا سيارة من مركز هيرتز في فندقنا، وماريوت ماركيز، المشهور بحانته المرتفعة الدوارة التي تتيح الإطلال على مانهاتن وهي تدور.

حين وصلت إلى تايمز سكوير، شعرتُ بالغثيان كما في كلّ مرة. وإذا كانت شلالات من مصابيح النيون في الليل تخفي الطفيليات التي تلتهمه، فإنّ الحي لم يكن يستطِع إخفاء بُعْدِه القذر في عزّ النهار: لافتات العروض الإباحية وواجهات دور السينما الخلاعية المحتلة من المشردين ومتعاطي المخدرات برؤوسهم الزومبي، والعاهرات المتعبات. كان بعض السياح ينبشون في محلات التذكارات الكئيبة. وثمة رجل بلا أسنان يتسوّل حاملاً يافطة «مُصاب بالإيدز» مربوطة بحبل رفيع حول عنقه. إنها ساحة المعجزات على ملتقى طرق العالم[1].

---

(1) ملتقى طرق العالم: هو أحد الأسماء المعروفة بها تايمز سكوير.

اجتزت شارع برودواي واندفعتُ إلى ممرٍّ تحت الأرض يقود إلى بهو الفندق. وجدت بسهولة مركز وكالة تأجير السيارات. استعانَ الموظف بحاسوبه كي يتأكد من أن وثائقي لم تزل في أرشيفهم. وحتى لا أضيّع الوقت، قبلتُ أول سيارة عُرِضَتْ عليّ: سيارة مازدا نافاجو ذات بابين بخطوط حادة ومربعة. وعند دفع الإيجار، فوجئتُ بارتياح أنّ بطاقتي المصرفية لم تزل سارية المفعول. جلستُ وراء المقود وغادرتُ مانهاتن عبر طريق فرانكلين روزفلت السريع باتجاه الشمال.

وحتى أسترجع ذاكرتي، كان يجب أن أعود إلى الصدمة الأولية. هناك حيث بدأ كل شيء: في قبو منارة الأربع وعشرين ريحاً.

خلال الأربع ساعات التي استغرقتها المسافة حتى كاب كود، انتقلتُ من محطة إذاعية إلى أخرى، واستمعتُ بالتناوب إلى برامج إخبارية وبرامج موسيقية. أربع ساعات من التدريب المتسارع لأسترجع «غيبة» أكثر من عام. قدّرتُ شعبية بيل كلينتون الذي كنت أجهل وجوده قبل عام؛ وشعبية فرقة الروك البديل، نيرفانا، التي تجتاح أنغام غيتاراتها الإلكترونية المحطات الإذاعية. علمت أنّ أحداث شغبٍ اكتسحَت لوس أنجلس في الربيع بعد تبرئة أربعة رجال شرطة ضربوا رودني كينغ ضرباً مبرحاً. ومن الطريقة التي اختتم بها المذيع الإعلان عن أغنية **أحيا وحيداً**، أدركتُ أنّ فريدي ميركوري مات منذ فترة قصيرة. وعلى محطة مخصّصة للسينما، راح مستمعون يتناقشون في أفلام لم أسمع بها قط: **غريزة أساسية**، **الالتزامات**، **إيداهو بلدي**...

7.

حين تجاوزت الساعة الرابعة عشرة، دخلتُ في الطريق المفروش بالحصى الذي يقود إلى **24 ويندز لايتهاوس**. كان شبح المنارة الضخم، الراسخ والخلّاب، ينتصب بصلابة وسط الصخور، معرِّضاً جوانبه الخشبية المطلية لشمس الصيف الساطعة عالياً في السماء. وأنا أخرج من السيارة، وضعتُ يديَّ كواقٍ لأحتمي من الغبار الذي تجرفه ريح مزوبِعَة تهبّ من الجروف الصخرية.

صعدتُ الدرجات الحجرية المؤدية إلى البيت الريفي الأنيق. كان باب المنزل الصغير الملاصق للمنارة مقفَلاً بالمفتاح، لكن ضربة عنيفة من كتفي أتاحت لي أن أخلعه.

لم يتغيّر شيء منذ ثلاثة عشر شهراً. الأثاث البسيط ذاته، والديكور الجامد في الزمن ذاته. عثرتُ على آلة صنع قهوة موكا والفنجان الذي شربتُ به قهوتي قبل أكثر من عام في مجلى المطبخ. أمّا رماد مدفأة الحطب فلم يُنظّف.

فتحتُ باب الدهليز ذي الجدران المكسّوة الذي يصل المنزل الصغير ببرج المنارة. وفي نهاية الممر، رفعتُ الباب الخفي الذي يُفضي إلى القبو ونزلتُ الدرجات المُصدرة صريراً لأصل المكان تحت الأرض.

شغّلتُ القاطع. كانت الغرفة المستطيلة على حالها كما تركتها قبل عام. ما عدا أنّ الحرارة الرطبة هذه المرة أفسحت المكان لهواء جافّ ومنعش. عثرتُ قرب البراميل والصناديق الخشبية على أدواتي: المطرقة، الإزميل، والمخل، تغطيها شباك العنكبوت.

وخلف جدار الآجر المثقوب كان يوجد باب الحديد المصفّح. كنتُ قد نسيتُ أن أغلق الباب السري فوق السلالم. فراح تيار هواء

يهزّ الباب على مفصلاته الصدئة ويجعله يُصدر صريراً. اقتربتُ بلا خوف آملاً أن تبدأ الذكريات بالتدفّق وأن أراها في نهاية المطاف بوضوح. أن أفهم. حرصتُ على القيام بالحركات عينها، ماسحاً براحة يدي الغبار عن الصفيحة النحاسية وعن نقشها اللاتيني الذي بدا يستهزئ بي:

بعد هبوب الأربع وعشرين ريحاً، لن يبقى شيء أبداً

أخذ الجو يزداد برودة. ولم يكن المكان أكثر حفاوة حتماً، لكنني لم أترك عزيمتي تلين. دخلتُ إلى ما كان يبدو سجناً وأنا أحاول ألّا أرتعش. هذه المرة، لم أكُن أحمل مصباح جيب معي. كان الظلام يلفّ الزنزانة. أخذتُ شهيقاً عميقاً لأشحَذَ شجاعتي وأغلق الباب. وبينما رحتُ أمدّ يدي نحو القبضة، سبَقتني هبّة ريح وأوصدت فجأة الباب عليّ. انتفضتُ، ثم انتظرتُ لبضع ثوان وأنا مشلول، تشنَّج جسدي واستعدّ للمواجهة.

لكن... لم يحدث شيء. لا اختلاج، ولا اصطكاك أسنان، ولا دم يطن في أذنيّ.

8.

غادرتُ المنارة مطمئناً وخائباً في آنٍ معاً، لكنني اقتنعتُ أنني قاربتُ شيئاً ما.

كنتُ أحتاج إلى إجابات، لكن يجب أن أجدها في مكان آخر. ربما في عيادة طبيب نفسي أو في أثناء استشارة اختصاصي أمراض عصبية.

خلف مقود سيارتي الرياضية، اتّجهت إلى بوسطن عائداً إلى

بيتي. بدَت لي مسافة الساعة والنصف لا تنتهي. ووراء مقودي، داهمني نعاس شديد. وبسبب التعب، راح رأسي يدور، وعيناي تغمضان رغماً عني. شعرتُ أنني قذر ومنهك. كنتُ أحتاج إلى الاستحمام، وأن أنام اثنتي عشرة ساعة لأعوض النوم الذي فاتني. وعلى الأخص، شعرتُ بجوع شديد. كانت معدتي خاوية، وتتشنج، وتصرخ من الجوع.

ركنتُ سيارتي في أول مكان شاغر من شارع هانوفر لأذهب مشياً إلى المبنى الذي أعيش فيه في نورث إند. كيف سيكون حال شقتي؟ ومَن أطعم قطي في أثناء غيابي؟

وفي الطريق، توقفتُ عند جويز فود لأتمون: معكرونة، صلصة الحبق، ألبان، ومنظفات جلي، ومعلبات للهر... وحين خرجتُ من الحانوت، كنتُ أحمل كيسين كبيرين من ورق الكرافت. سلكتُ السلّم المحفوف بأزهار الوستريا المعرّشة الذي يربط هانوفر بالتلة التي بُنيت فوقها عمارتي. انتظرتُ المصعد حاملاً الكيسين تحت ذراعي. دخلتُ المقصورة الصغيرة التي تفوح داخلها رائحة زهر البرتقال والتفتُّ لأضغط زر الطابق الأخير.

وبينما ينغلق الباب الحديدي وأعيد التفكير بما قاله لي أبي، استقرّ بصري على ميناء ساعتي. كانت الساعة السابعة عشرة. في هذه الساعة ذاتها من يوم البارحة، استيقظتُ نصف عارٍ في كاتدرائية سانت-باتريك.

قبل أربع وعشرين ساعة...

رنّ الرقم أربع وعشرون في داخلي بطريقة غريبة. أولاً، منارة الأربع وعشرين ريحاً، ثم اختفاء سوليفان الذي دام... أربعةً وعشرين عاماً.

بدا لي هذا الاتفاق غريباً، لكن الوقت لم يسنح لي للتفكير فيه ملياً. تشوّش نظري فجأة. شعرتُ بوخز في أطراف أصابعي وثار غثيان في معدتي. وراحت جميع أطرافي ترتعش. توتر جسدي، كأنني رحتُ أفقد السيطرة عليه. كأنّ دارة كهربائية تسري فيه. كأن آلاف الفولتات تجتاز دماغي.

أفلتُّ كيسَي المؤنة.

ثم انتزعني انفجارٌ من الزمن.

1993
سوليفان

اعلَموا أنّ بمقدوري تصديق كلّ شيء،
شرط أن يكون لا يُصدّق فعلاً.

أوسكار وايلد

.0

ينهمر عليَّ مطر غزير حارق.

بمثل هذه القوة أخال أنّ مسامير تنغرس في جمجمتي. الهواء مشبع ببخار استوائي مُرْهِق يزوبع ويُبقي أجفاني مغمَضة. أنفي مسدود، أختنق. أمكث واقفاً، لكن على مضض تقريباً، في حالة قريبة من السبات. ساقاي ترتخيان ولن تتأخّرا في الترنّح. فجأة، يمزّق صوت مرعب صدغيَّ.

أفتح عينيّ جفلاً. إنني... في مقصورة دوش تحت رشق قويّ من رذاذ الماء!

.1

ثمة امرأة شابة عارية، تقف إلى جانبي، يغطّيها الصابون والشامبو، راحت تصرخ بأعلى صوتها. جمدت المفاجأة والهلع

قسماتها المشوّهة. وضعتُ يدي على كتفها بحركة مهدِّئة، لكنها سدّدت لكمة عنيفة على أنفي قبل أن أتمكّن من تقديم أي تفسير. وأنا أترنح، وضعتُ يديَّ على وجهي لأحمي نفسي. وبينما أحاول أن أسترد أنفاسي، أصابتني لكمة ثانية وسط صدري وجعلتني أتعثّر بحافّة المقصورة الخزفية. حاولتُ التمسّك بستائر الدوش، لكن الأرض كانت زلقة فسقطتُ وارتطم رأسي بالمغسلة.

خرَجَت الشابة من المقصورة مرعوبة، والتقطت منشفة واندفعت خارج الحمام.

وأنا منهكٌ على الأرض، سمعتها بشكل مبهم تُنذر جيرانها. وصلتني الكلمات مشوّهة، غامضة، لكنني ميّزت مع ذلك «مغتصِب». . . «في حمامي». . . «اتصلوا بالشرطة». . .

وأنا لم أزَلْ أتلوى، مصاباً بالدوار، بلا حراك، حاولتُ تنشيف الماء الذي يسيل على جفوني. كان أنفي مدمّى، وأنفاسي لاهثة، كأنني أنهيتُ سباق ماراتون للتو.

أمرني دماغي أن أنهض، لكن أعضائي ظلّت مشلولة. مع ذلك كنت أعرف أنني في خطر داهم. لقد استوعبتُ درسَ كاتدرائية سانت-باتريك. يجب أن أتجنب السجن بأيّ ثمن. استجمعتُ قواي، ونجحتُ بصعوبة في الوقوف، ومسحتُ الحجرة بنظري، واقتربتُ من إطارٍ زجاجي. فتحتُ النافذة ذات المصراعين العموديين: كانت تطلّ على طريق خاص محصور بين بنائين. حين انحنيتُ، رأيتُ أبعد من ذلك جادةً عريضة بأربعة مسارب، مستقيمة، لكنها منحدرة.

سيارة أجرة عامة صفراء زاهية، صفوف واجهات من الآجر

البني والمعدن، خزانات على الأسطح: هذا لا يدع مجالاً للشك، أنا في نيويورك من جديد.

لكن أين؟

وعلى الأخص... متى؟

وبينما راحت تتصاعد أصوات عجولة في الشقة، تخطّيت هيكل النافذة وتشبّثت بسلّم النجاة المعدني. سارعتُ إلى نزول الدرجات بصعوبة حتى الشارع، واخترتُ اتجاهاً كيفما اتفق وأطلقتُ ساقيّ للريح بأقصى سرعتي. تعلّق نظري بشاخصتين خضراء وبيضاء متراكبتين عند تقاطع طرق: أنا موجود عند تقاطع جادة أمستردام والجادة 109. في الشمال الغربي من مانهاتن إذاً، في حي الطلبة مورنينغسايد هايتس. سمعتُ صفارة إنذار سيارة شرطة تقترب. انعطفتُ يساراً فجأة وأنا مذعورٌ لأغادر الجادة والتجأتُ إلى زقاق جانبي ضيق تحفّ به شجيرات.

التصقتُ بالجدار وأنا محصور بين بنائين لأتوارى وأستعيد قواي. مسحتُ الدم بكُمّ قميصي. أصبحَ طقمي مبتلاً. اتّضح لي أنني أرتدي الملابس عينها التي تركَها لي جيفري وكسلر. وبنظرة عفوية وخاطفة إلى معصمي، لم أزل أرتدي ساعة جدّي، التانك الأنيقة جداً التي تُشير إلى أنّ الساعة تجاوزت التاسعة صباحاً.

ولكن من أيّ يوم؟

حاولتُ التركيز. آخر ذكرى لي: قفص مصعد شقتي، أكياس المؤونة على الأرض، نوبة التشنج الحادة الشبيهة بالنوبة التي أصابتني أول مرة في قبو المنارة...

عطستُ. كان الهواء عليلاً، والسماء زرقاء. أصبحَت الشمس دافئة الآن. ورغم ذلك راحت أسناني تصطك.

أحتاج إلى ملابس جديدة.

رفعتُ بصري: ثمة غسيل يتدلى من النوافذ. ليست بالتأكيد الملابس التي أحلم بها، لكنني لستُ حقاً في وضعٍ يسمح لي بالتطلّب. قفزتُ فوق حاوية القمامة، ثم تسلقت الواجهة حتى صار بوسعي الوصول إلى الملابس. التقطتُ ما وقع منها تحت متناول يدي وارتديتها: بنطالٌ قماشي، كنزة يانكي مقلمة، سترة جينز. ولم يكن أيّ منها على مقاسي تماماً -فالبنطال مفتول على الكاحلين، والسترة ضيقة للغاية- لكنني على الأقل أصبحتُ بملابس جافة. أخذتُ الأوراق المالية والقطع النقدية من جيب بزّتي ثم رميتُ الثياب المبتلة في الحاوية.

عدتُ إلى الجادة وانصهرتُ في الحشد. انتابني الدوار مجدّداً، وتشنّجت معدتي وشعرت بالصداع في رأسي. إذا كنت أريد أن أستعيد قدرتي على التفكير، فيجب أن آكل شيئاً ما. اهتديتُ إلى مطعم في الجانب الآخر من الشارع. لكنني قبل الدخول إلى المطعم، دسستُ قطعتين نقديتين من فئة الربع في موزّع الصحف الآلي. نظرتُ إلى التاريخ في أعلى الصفحة الرئيسة وأنا خائف ممّا سأكتشفه.

كنّا في يوم الثلاثاء 14 سبتمبر 1993...

.2

- هو ذا يا سيدي، البيض، الخبز المحمّص وقهوتك.

وضعَت النادلة فنجاناً وصحناً على طاولة الفورميكا وحَبَتني بابتسامة قبل أن تغادر إلى وراء طاولتها. وأنا ألتهم فطوري، تفحصتُ الصفحة الأولى من **النيويورك تايمز** بانتباه:

إسحق رابين وياسر عرفات

يوقّعان اتفاق سلام.

والرئيس كلينتون يرحّب

«رهان شجاع».

كان المقال مزوداً بصورة مثيرة وغير متوقعة: أمام البيت الأبيض، بيل كلينتون، على شفتيه ابتسامة وذراعاه مفتوحتان على مداهما، يهنّىء مصافحاً إلى يمينه رئيس الوزراء الإسرائيلي، وإلى يساره زعيم منظمة التحرير الفلسطينية.

كانت هذه الحركة الرمزية وتصريحات المشاركين يوحون بالأمل بسلامٍ وشيك بين الشعبين العدوّين. ولكن هل كنتُ أنا موجوداً في الواقع أم في البُعد الرابع؟

تنبأتُ بحالتي سلفاً. هذه المرة، مضى أربعة عشر شهراً على ذكرياتي الأخيرة. قفزة جديدة في الزمان قاسية وغير مفهومة. معترضة فاحشة الطول.

تباً، لكن ماذا يحدث لي؟

أحسستُ أن ساعديَّ ويديَّ يرتعشون. وشعرتُ بالخوف. أصبحتُ مذعوراً مثل صبي واثقٍ من أن وحشاً يختبئ تحت سريره. كنت أعرف أنني عشتُ أمراً خطيراً قلَبَ حياتي خارج الدروب المألوفة.

تنفستُ بعمق لأهدّئ من روعي، مثلما كنت أنصح بذلك مرضاي أحياناً. يجب أن أواجه، وألّا أركن للهزيمة. ولكن إلى مَن أتوجّه؟ وممّن أطلب العون؟

لم يتأخر الجواب: بالتأكيد ليس من أبي الذي لم يفتأ يكذب

عليّ. خطر شخص آخر في بالي: الرجل الوحيد الذي لم يزل على قيد الحياة وكابدَ على الأرجح ما يحدث لي الآن: جدّي سوليفان كوستيلو.

جالت النادلة على جميع الطاولات لتتأكد من أنه لم يتبقَّ أيّ فنجان قهوة فارغاً. استغلَّيتُ مرورها لأطلب منها خارطة المدينة واعداً إياها بإكرامية مجزية.

وبينما لم يزل الجو حاراً، ارتشفتُ بضع جرعات قهوة وأنا أعيد التفكير بما قاله لي أبي: **جدّك لم يمت. سوليفان في نيويورك. وهو محتجزٌ في مشفى روزفلت آيلند للأمراض النفسية.**

على الخارطة التي أحضَرَتها النادلة، رأيتُ رقعة الأرض الصغيرة جداً، وسط نهر إيست ريفر: كانت روزفلت آيلند جزيرة غير واردة محصورة بين مانهاتن وكوينز. طولها ثلاثة كيلومترات وعرضها مئتي متر تقريباً لم أطأها قط. أتذكر أنني قرأتُ رواية بوليسية قديمة تذكُر وجود سجن على الجزيرة، لكن لا بد أنه أُغْلِقَ منذ زمن طويل. أو ربما لا. وباعتباري طبيباً مقيماً، كنت أعرف بشكلٍ مبهم أنه يوجد مركزان أو ثلاثة للاستشفاء لم تزَل تعمل في الجزيرة، إحداها مشفى نفسي مشهور على نحو كئيب: مشفى البلاكويل الذي يسميه جميع الناس **البنتاغون** بسبب شكل بنائه ذي الخمس واجهات. لا بد أنّ سوليفان محتَجَزٌ هناك.

لم تكن فكرة لقاء جدي تمثِّل هدفاً وحسب، وإنما كانت أيضاً تمنحني شيئاً من الشجاعة. يجب أن أذهب إلى هناك حالاً. ولكن هل سيسمحون لي بالدخول؟ أجل، ببداهة، إن استطعتُ إثبات أنني أحد أحفاده.

فجأة، انتابني شك.

محفظتي!

منذ قليل، وأنا أفرغ جيوبي، استرجعتُ بالفعل نقودي، ولكنني لم أستردّ محفظتي التي تحوي أوراقي الشخصية.

وأنا مذعور، دفعتُ ثمن مشترياتي وعدتُ راكضاً إلى الزقاق الجانبي. الحاوية لم تتحرك. عثرتُ على سترة بزتي وبنطالي ففتشتهما بدقة.

لا شيء...

تباً!

لو كان هنالك شيء من المنطق يحكم الحالة اللاعقلانية تماماً التي أعيشها، لتَرتَّب أن تبقى محفظتي في بزّتي. لم أشأ الاعتقاد أنها سُرقت مني: في مثل هذه الحالة، كان الأولى باللص أن يسرق النقود الموجودة في جيوبي.

لا بد أنني أضعتها...

مشيتُ بضع خطوات لأصل إلى جادة أمستردام. ودماغي يتابع الطحن.

لا بد أنني أضعتها في الحَمّام...

قادتني قدماي إلى أسفل المبنى الذي هربتُ منه قبل ساعة. كان المكان هادئاً، وشبه خالٍ. لا أثر للشرطة ولا لأيّ حركة. دُرتُ حول البناء وقد عزمتُ أن أمتحن حظي. كان سلّم النجاة مطوياً، لكنني نجحتُ في بلوغه متسلقاً حائطاً صغيراً. صعدتُ حتى نافذة الطابق الثالث. لقد نظّفوا شظايا الزجاج وصارت الآن قطعة بسيطة مربعة من الورق المقوى مثبتة بشرائط لاصقة تسدّ زجاج النافذة المحطم. انتزعتها من دون عناء، ورفعتُ المصراع لأدخل إلى الحجرة.

لا ضجيج. ولا لجنة استقبال. كانت الفتاة قد مرّرت الممسحة على عجل لتُخفي بقع الدم والماء. تقدمتُ بحذر على البلاط. لأول وهلة، لا أثر لمحفظتي. جثوتُ وأنا أشعر بالخيبة، ونظرتُ تحت صوان متحرّك، ثم تحت خزانة خشبية بيضاء تكدّست على رفوفها الأدوية، ومساحيق التجميل، ومصفّف الشعر، ولوازم الزينة.

وهناك، في الغبار، لمحتُ محفظتي الجلدية المتشقّقة التي انزلقت ولا بد حين كنت راقداً قرب المغسلة.

مددتُ يدي لألتقطها، وتأكدتُ من أن أوراقي الشخصية بداخلها فأطلقتُ أوّل تنهيدة ارتياح منذ وقت طويل. كانت الحكمة تقتضي أن أعود أدراجي، لكنني غامرت بالخروج من الحمام منتشياً بهذا النصر الصغير ومستمداً الثقة من صمت المنزل.

3.

كان المسكن خالياً.

إنه شقة صغيرة تعمّها الفوضى، لكن ديكورها مُتقن. على طاولة البار في المطبخ الصغير، توجد علبة الحبوب مفتوحة وزجاجة لبن جاهزة للشرب نسيت شاغلة المكان إعادتهما إلى مكانهما، لأنها غادرت على عجل بلا شك.

نقرتُ بضع حبات قمح منتفخة، ثم وضعتُ العلبة على الرفّ واللبن في البراد. ثمة أمر ما يستبقيني هنا: رغبتي في أن أفهم سبب استعادتي وعيي في هذه الشقة بالتحديد.

فتشتُ في الصالون. رفّان ضيقان محشوان بالكتب. عشرات أشرطة الفيديو وُضِعَت في أكداس قرب جهاز الفيديو: حلقات مسلسل **ساينفيلد** ومسلسل **توين بيكس**، وأفلام مستقلة: فيلم

باريس، **تكساس** لويم ويندرز، وفيلم **جنس، أكاذيب وشريط فيديو** لستيفن سودربيرغ، وفيلم **مين ستريتز** لمارتن سكورسيزي، وفيلم **يوم خاص** لإيتوري سكولا، وفيلم **مصعد إلى حبل المشنقة** للوي مال، وكذلك **حانوت الرعب الصغير** وجزء لا بأس به من أفلام ميريل ستريب: **خيار صوفي**، **عشيقة الملازم الفرنسي**، **خارج أفريقيا**...

وعلى الجدار، صور لوحات مشهورة لآندي وارهول، وكيث هارينغ، وجان-ميشيل باسكيا.

وعلى طاولة واطئة، علبة لفافات تبغ بنكهة النعناع وقداحة «أنا أحب نيويورك». جلستُ على الأريكة ذات النوابض الصارّة وأشعلتُ لفافة تبغ. وبينما رحتُ أنفث أول سحابة دخان، فكرت ثانية في وجه تلك المرأة الشابة التي صرخت تحت الدوش. لم يخامرني أدنى شك في الهلع الذي قرأته عليه: خافت لأنها فوجئت. وبالتأكيد، لم يكن أحدنا يعرف الآخر. لا بد أنني ظهرتُ فجأة في حمامها على طريقة **دكتور هو** الماجن.

صوت مواءٍ جعلني ألتفت برأسي. قفز هرّ أرقط بعينين مدوّرتين ووبر أشقر غامق على المتكأ. وأنا أشحذ نظري، ميّزت قلادة حول عنقه منقوش عليها اسم «ريمنغتون».

- مرحباً بكَ.

حين حاولتُ أن أداعبه، قفز قفزةً جانبية وتوراى بالسرعة التي ظهر بها.

نهضتُ لأستكشف الحجرة الأخيرة من الشقة. غرفة نوم ذات أرضية خشبية قاسية، مفروشة بأثاث غير متجانس: سرير قديم من الحديد المسبوك، طاولة مكتب عصرية مطلية بالبرنيق الأسود، ثريا كريستال تعود للقرن الماضي. وعلى طاولة بجانب رأس السرير،

مجلات **بلايبيل** عن مسرحيات كوميدية موسيقية حديثة (القناع والوردة المقتبسة عن **شبح الأوبرا**، العيون السنّورية لفرقة **كاتس**، القطيع المتراص لفرقة **كورس لاين**...)، وروايات عديدة بصفحات مطوية (**صلاة من أجل أوين**، **بيلوفيد**، **رافائيل**، **الأيام الأخيرة**).

وعلى الجدار، أُلصِقَت صور الفتاة المجهولة بثياب متنوعة جداً من فستان السهرة حتى الألبسة الداخلية الفاضحة. وضعيات بالألوان وبالأسود والأبيض بتسريحات فريدة: شعر منسدل، كعكة مجدولة، ذيل الحصان، كارّيه متموج، خصلات متطايرة تلامس كتفيها العاريين. لم تكن الفتاة تبدو عارضة أزياء محترفة، لكنها شكّلت لنفسها بالتأكيد ألبوم صور يروّج لها في الوكالات.

لاحظتُ نسخة عن جدول الدوام معنونة باسم جوليارد سكول، مدرسة الاستعراض الشهيرة، مثبتة بمسمار على طاولة العمل. وإلى جانبها يوجد وصل التسجيل باسم إليزابيث آيمس. كانت المرأة الشابة في العشرين من عمرها وهي في السنة الأولى في فنّ التمثيل.

فتحتُ الأدراج وتصفّحتُ بلا حياء جميع الوثائق التي وقعَت تحت يدي: مسوّدات رسائل حب موجَّهة إلى شخص يدعى دافيد، صورٌ فورية لإليزابيث وهي عارية بالكامل -وضعيات التقطت صورها بطرف ذراعها، ربما من أجل دافيد، ولعلّها قرَّرت في النهاية ألّا ترسلها- جدول دوام آخر مخصَّص لعمل نادلة في فرانتيك، حانة في إيست سايد. وجدتُ أيضاً كشوفاً مصرفية تُظهر عجزاً مقلقاً ورسائل من صاحب الشقّة يطالب فيها بالإيجار المستحقّ، وجميعها مثبتة على شاخصة من الفلين.

مكثتُ بضع دقائق أخرى في الغرفة، وعيناي مسمّرتان على جدران من الصور الفوتوغرافية. جذَبَت إحدى اللقطات نظري:

إليزابيث في يوم مثلج تجلس على مسند مقعد خشبي بجانب مصباح إنارة في سنترال بارك. تعتمر قبعة صوف، وترتدي معطفاً فضفاضاً عليها وتنتعل جزمة من جلد خروف. كانت الصورة الأقل إثارة، لكنها أيضاً الوحيدة التي تبتسم فيها.

حين غادرتُ الشقة، انتزعتُ تلك الصورة ودسَسْتها في جيبي.

.4

بعد ساعتين.

- قال لي الممرض: سأتركك معه. أولاً، لا يوجد سبب ليُظهر عدوانيته، لكن لا بأس، أنت طبيب: تعرفُ أفضل مني أنه لا توجد قاعدة ثابتة مع هذا النوع من المرضى...

كنتُ في الطابق السابع من مشفى بلاكويل -**البنتاغون** الشهير- أمام باب غرفة جدي. بعد أن غادرتُ شقة إليزابيث آيمس، أخذتُ سيارة أجرة حتى تقاطع الجادة الثانية والجادة ستين. وهناك، بثمن تذكرة ذهاب فقط في المترو، أقلّتني مقصورة تلفريك فوق إيست ريفر ووضعتني في تراموي بلازا، في وسط روزفلت آيلند. وصلتُ مبنى **البنتاغون** في الرأس الجنوبي من الجزيرة مشياً. ظلّت سمعة المشفى سيئة. لقد بُني في منتصف القرن التاسع عشر، واستقبل في البداية المرضى المصابين بالجدري الذين ترغب المدينة بالحجر عليهم. وفيما بعد، تحوَّل إلى مأوى وجمع كلّ عيوب هذا النوع من المنشآت: اكتظاظ، تعامل مهين مع المرضى، تجارب نفسية في حدود القانون. ومنذ عام 1960، استنكرت مقالات وكتب هذه الأفعال وأحيل عدد من أعضاء الجهاز الإداري إلى القضاء. ومع مرور الزمن، تحسّنت الأمور، لكن المكان لم يستطِعْ قط أن يتخلّص

بالفعل من صورته المشؤومة. ومنذ أن بدأتُ دراسة الطب، لم يكُن يمرّ عام دون أن يُعلن عن إغلاقه القريب، ولكن لا بد من التسليم بالواقع: لم يزل **البنتاغون قائماً**، وآمل أن أجدَ بين جدرانه خلاصي.

- عليَّ أن أحذّرك، قال الممرض، زرّ الإنذار في الغرفة لا يعمل.

كان يصعب عليّ النظر في عينيه. ومثل ذو الوجهين، الشخصية الهزلية، كان نصف وجهه محروقاً تماماً.

- إذاً، في حال حصول أيّ مشكلة، لا تتردّد في الصراخ، تابع. وبما أننا أقلّ من العدد المطلوب، فليس مؤكداً أننا سنسمعك، لكن هذه أضمن طريقة لإخافة العجوز الخرف.

- أنت تتكلّم الآن عن جدي!

- ألا يحق لنا أن نمزح، تذمّر وهو يهزّ كتفيه.

فتح ذو الوجهين باب الغرفة، ودعاني إلى الدخول ولم ينسَ أن يُغلق خلفه بالمفتاح. كانت عبارة عن حجرة صغيرة، زنزانة إسبرطية مفروشة بسرير من حديد الخردة، وكرسي أعرج من البلاستيك وطاولة مثبتة بالأرض. ثمة رجل متمدّدٌ فوق الأغطية، جذعه منتصب، يستند إلى وسادة. عجوز غامض ذو لحية فضية وشعر أشيب ومجعد ينسدل حتى كتفيه. ساكنٌ، عيناه كابيتان، يبدو في مكان آخر، متحجّراً كالتمثال، غارقاً في حلم يقظة بعيد. كأنه غاندالف تحت تأثير العقاقير النفسية.

- طاب يومك، يا سوليفان، قلتُ وأنا أتقدّم نحوه متوجّساً بعض الشيء. اسمي آرثر كوستيلو. لم نلتقِ من قبل، لكن أنا ابن ابنك، فرانك كوستيلو. أنت إذاً جدي.

طريقة غريبة للبدء في الموضوع...

ظلّ سوليفان كالرخام، وحتى لم يبدُ عليه أنه لاحظَ وجودي.

- كنتُ أجهل كلّ شيء عن وجودك حتى فترة قريبة، شرحتُ وأنا أجلس قرب السرير. كنتُ أجهل أنك لم تزل على قيد الحياة وأنك تُعالَج هنا. لو عرفتُ بالأمر، لأتيتُ لرؤيتك أبكر.

حسبتُ عمره ذهنياً وأنا أطابق المعلومات التي قدّمها أبي. إنْ لم يخِبْ ظني، بلغ سوليفان السبعين من عمره. وخلفَ تجاعيد الزمن واللحية التي تلتهم جزءاً من وجهه، سبرتُ ملامح متناسقة، وجبيناً عالياً، وأنفاً أشماً لكنه متجانس، وذقناً تنمّ عن عناد. تخيّلته من دون مرض قبل ثلاثين عاماً، كما رأيته في صور العائلة: مدير شركة معتدٌّ بنفسه يرتدي بزات مفصّلة على مقاسه، قمصان ذات ياقات أنيقة، أزرار أكمام وقبعات فيدورا. رحتُ أتذكر إحدى صوره الشخصية: في فمه سيجار، وقدماه على طاولة العمل في مكاتب وكالته في جادّة ماديسون. إنه عصر آخر، ورجل آخر...

قرّبتُ الكرسي من السرير وحاولت لفتَ نظره.

- أنا هنا اليوم، لأطلبَ منك العون.

لم يطرَف له رمش.

- ورثتُ منارتك، **24 ويندز لايتهاوس**، و...

تركتُ جملتي معلّقة، مترصِّداً، وآملاً بردّة فعلٍ لم تأتِ.

تنهدتُ. لا شك أنني أخطأتُ بالمجيء. أولاً، لأننا كنا غريبين أحدنا عن الآخر. وعلى الأخص لأنّ سوليفان ظلّ حبيس صمتٍ عميق لا شيء يوحي أنه سيخرج منه يوماً.

نهضتُ وتقدّمتُ نحو النافذة، ونظرتُ من خلال القضبان إلى الغيوم القطنية تتقاطر نحو أستوريا. كانت الحجرة باردة جداً رغم

الفصل. سمعتُ بوضوح صوت الماء يجري في مشعّ التدفئة، لكن الجهاز لم يكن ينشر أيّ حرارة.

عدتُ وجلست وقمتُ بآخر محاولة.

- أخبرَني فرانك أنك بعد أربعة أعوام من اختفائك اتّصلت به لتطلب منه أن يسدّ بجدار باباً معدنياً موجوداً في القبو.

ظل العجوز ساكناً، ويداه متصالبتان على بطنه على طريقة منحوتة جنائزية. تابعتُ:

- نزلتُ إلى القبو. هدمتُ جدار الآجر و...

وبسرعة خاطفة، مدّ سوليفان ذراعه وأمسكني من حنجرتي.

وقعتُ في الفخ كأبله. قلّلتُ من حذري أمام سباته وها هي قبضته الحديدية تُطبِق على حنجرتي. رحتُ أحدِّق فيه وأنا أختنق. كان لذكر الباب تأثير الصدمة الكهربائية. وبتأثير إفشاء السر، استردَّت عيناه بريقاً رمادياً مرعباً.

- لماذا فعلتَ هذا، أيها المغفل؟ همسَ في أذني.

حاولتُ تحرير نفسي، لكنه أحكَمَ سيطرته. كيف له أن يحوز على مثل هذه القوة؟ أحسستُ بأصابعه تنغرز وتضغط على بلعومي. هذا المجنون سيخنقني!

- هل دفعتَ الباب المعدني؟ وهل دخلتَ الحجرة؟

أومأتُ نعم. أفقَدَته إجابتي صوابه. أفلتّ فجأة من مَسكته واستغرقتُ في سعال مديد.

- أنت معتوه! صرختُ وأنا أنهض عن الكرسي.

- ربما، اتَّفقَ معي، لكن أنت، في ورطة كبيرة، يا غلامي.

سادت لحظةُ صمتٍ مديدة. ولأكثر من دقيقة، رحنا ننظر أحدنا إلى الآخر ككلبين من الخزَف. لقد تَحَوَّلَ سوليفان. صار مظهره

الرصين والمتأمّل يوحي أنه استيقظ من كابوس مرعب. يشبه مسافراً عائداً بعد رحلة سياحية مديدة. تفحّصتني نظرته الحادة والثاقبة من رأسي حتى قدميّ.

- ماذا قلتَ لي اسمك؟

- آرثر، آرثر سوليفان كوستيلو.

وعند ذكر اسمي الثاني، أضاءت وجهه ابتسامة لطيفة، محدِثَة فيه حفرتين.

- ولماذا سرقتَ ساعتي، يا آرثر سوليفان كوستيلو؟ سألني وهو يتفحّص ساعة التانك في معصمي.

- هل تريد أن أردّها؟

وضعَ يده على كتفي.

- لا، يا صغيري. صدّقني، ستحتاجها أكثر مني.

نهض، وطقطق مفاصله كأنه يشعر بالضيق في جسده.

- إذاً دفعتَ الباب، والآن، تسألني عمّا يحصل لك...

- أجل، لدي أسئلة كثيرة أطرحها عليك. ويجب أن...

رفَعَ يده ليقاطعني.

- نحن في أيّ عام الآن؟

- هل تسخَر مني؟

- نعم، أسخر منك. إننا في 14 سبتمبر 1993.

رأيته يفكّر، قبل أن يضيف:

- ما هي مهنتك في الحياة، يا فتى؟

- أنا طبيب، لماذا؟

- لا شيء. وهل تعمل في مشفى؟

- وبينما أومئ له موافقاً، بدا دماغه يعمل بسرعة عجيبة، وأخذَت عيناه تلمعان ببريق جديد يصعب تفسيره.

- معكَ لفافة تبغ؟

- لا تظنّ أنّ بمقدورنا التدخين هنا، قلتُ وأنا أشير إلى جهاز إنذار الدخان.

- ألم تفهَم بعد؟ لا شيء يعمل في هذه الغرفة.

تنهّدتُ، وفتّشت في جيبي وناولته القداحة وعلبة لفائف التبغ بنكهة النعناع التي سرقتُها من شقة إليزابيث آيمس.

- ما هذه التفاهة؟ قال مكشّراً. أتظنني امرأة أم ماذا؟ هل لديك سجائر لوكي سترايك؟

ودون أن ينتظر ردّي، أطلق شتيمةً، لكنه انتهى إلى إشعال لفافة وأخذ منها سحبةً طويلة.

- متى فتحتَ الباب؟ سأل، وقد أصبح فجأة جدياً.

- في يونيو 1991.

- إذاً، هذه رحلتك الثانية... ومتى آخر استيقاظٍ لك؟

- الساعة التاسعة، هذا الصباح. ما الذي تسمّيه رحلة، بالضبط؟

- ستحصل على إجابات لجميع أسئلتك، يا صغيري. ولكن يجب أن تُسدي لي خدمة قبل ذلك.

- ما نوع الخدمة؟

- ساعدني على الهرب من هذا الجُحر للجرذان. اليوم.

هززتُ رأسي.

- هل تمزح؟ هذا ليس ممكناً ولا مستحبّاً يا سوليفان، قلتُ

بلهجة الطبيب الواثقة التي سبقَ أن استخدمتها مراراً وتكراراً. لن يكون من المعقول في حالتك أن. . .

ضحكَ ضحكة ساخرة وسدّد سبابته إلى صدري:

- لكنك لن تفعل هذا من أجلي، يا صغيري. ستفعله لأجلك. إذاً، أصغِ إلي جيداً، فليس أمامنا متّسع من الوقت.

مالَ نحو أذني وأعطاني سلسلة تعليمات. وكلّما فتحتُ فمي لأتكلم، أسكتني وهو يرفع صوته. ولم يكَد ينتهي حتى انطلق صوت جهاز إنذار الدخان.

وبعد بضع ثوانٍ، اقتحم ذو الوجهين الغرفة. . .

أغضَبَه منظر عقب لفافة التبغ وعلبة السجائر الموضوعة على الطاولة.

- هذا يكفي، يا سيدي، يجب أن تغادر الآن!

5.

عدتُ إلى مانهاتن بالتليفريك.

الدماغ يغلي، وأفكاري تتشوّش. لم أزَل مذهولاً من السرعة التي وضع فيها سوليفان خطّة مُحكَمَة، لكنني أشعر أنني عاجز عن تهريبه. على الأقل بمفردي. أردتُ أن أسحب نقوداً من الصراف، لكنه رفض هذه المرة بطاقتي. بلا شك لأنني لم أعُد أستخدمها منذ عامين. أحصيتُ نقودي الهزيلة. بقيَ معي خمسة وسبعون دولاراً. تكفي لدفع ثمن تذكرة قطار حتى بوسطن، لكن لا أكثر. نظرتُ إلى ساعتي: توشك الفترة الصباحية على نهايتها.

توجهتُ راكضاً إلى محطة بان واشتريت تذكرة ذهاب فقط. ألقيتُ نظرة خاطفة على لوحة مواعيد القطارات: هناك قطارات

سريعة كلّ ساعتين وموعد القطار الساعة 13:03. اندفعتُ على الرصيف واستطعتُ الصعود في عربة.

وطوال مسافة الطريق، شَغَلَت ذهني أسئلة عديدة. السؤال الأول مُدَوِّخ: ما السبيل لإيقاف هذه اللعنة واستعادة حياتي السابقة؟ حلٌّ واحد ووحيد فرضَ نفسه: سوليفان. في هذه الحالة، صار السؤال الثاني يُظهر حالة وعي حقيقية: هل يحقّ لي أن أساعد مريضاً على الهرب من مشفى نفسيّ؟ شخصٌ أجهل جهلاً مطبقاً حالته الصحية الحقيقية. شخصٌ أظهرَ لي أنه معرّض لنوبة عنف. كائنٌ خارج السيطرة، قادرٌ على أن يعتدي على أبرياء، إن لم يكُن ما هو أسوأ.

الإجابة واضحة: لا.

السؤال الثالث: هل لدي خيار آخر؟

وهنا أيضاً، الإجابة واضحة...

6.

محطة بوسطن ساوث

الساعة 16:40

وصلت إلى المحطة، ولم أكَد أنزل من القطار، حتى ركضتُ بسرعة باتجاه الحي المالي. ليس لديّ متسع من الوقت: ما من مصرف في مركز المدينة يفتح بعد الساعة السابعة عشر.

كان فرعي المصرفي يقع في الطابق الأرضي من مبنى حديث بجانب فانوي هول. اصطدمتُ عند المدخل بباب زجاجي أقفله الحارس للتو. طرقتُ ثلاث طرقات على الزجاج؛ التفتَ ورمقني بنظرة انزعاج. أشرتُ بأصبعي إلى ميناء ساعتي لأوضح له أنّ

الساعة: 16:59. هزّ رأسه وأشار بحركة ساخرة من ذقنه إلى ساعة الحائط الرقمية التي تشير إلى الساعة 17:01.

تنهّدتُ وطرقتُ الباب بقبضة غاضبة. وهو مهان، تردّد الحارس للحظة في الخروج من مخبئه، لكنه من باب الحذر، فَضَّلَ أن يخطر مسؤولاً. ضربة حظ، الشخص الذي حضر أمامي هو بيتر لانج، المصرفي الذي يهتم بحسابات وادّخار جميع أفراد العائلة. تعرّفَ إليّ وجاء بنفسه ليفتح الباب:

- آرثر، لم نرَكَ منذ زمن طويل!

- كنت في رحلة في أوروبا، كذبتُ. أعرف أنني وصلتُ متأخراً قليلاً، لكنني بأمَسِّ الحاجة إلى مساعدتك.

- ادخلْ إذاً، تفضل.

شكرته دون أن يكون لدي أيّ وهم: فهو إن أظهر مداهنته وتساهله، فذلك لأنه المسؤول المصرفي لأبي. تبعتُ لانج إلى مكتبه، وشرحت له أنّ بطاقتي المصرفية لم تعُد فعّالة وسألته عن وضعي المالي. نقرَ على حاسوبه ليطبع كشفاً بالعمليات الأخيرة. خلال عامين من «غيابي» استمرّت الحركات المالية. ودوماً في اتجاه واحد للأسف. إيجاري، تأميني وتسديد قرضي الدراسي اقتُطِعوا بدقة ساعة. وبما أنّ المشفى توقف عن دفع راتبي الهزيل، فقد بحث المصرف في حساب توفيري لتسديد نفقاتي، وهو مطمورة خلَّفَتها لي أمي قبل موتها وادّخرت فيها خمسين ألف دولار لم يتبقَّ منها اليوم سوى تسعة آلاف دولار.

- أودّ أن أسحب كامل المبلغ.

- هذا ممكن، كشَّر لانج، لكن عليك أن تعود غداً وأن تترك على الأقل ألف دولار في الحساب.

ألححتُ، وأخبرته أنني سأغادر بوسطن هذا المساء وأنني بأمسّ الحاجة إلى هذا المال الذي تركته لي أمي. لم أتوقع أن أحرّك مشاعره، لكنه في الحقيقة استمع إليّ وحاول أن يسوّي الأمور. بعد نصف ساعة، تركني أغادر مع ثمانية آلاف دولار نقداً. وفي لحظة افتراقنا، أغدقَ عليّ هذا الأبله «كلّ تعازيه الحارة»، كما لو أنّ أمي ماتت الأسبوع الماضي.

أظهرتُ حزني وانصرفتُ دون أن أقول شيئاً، ملوّحاً لسيارة أجرة كي أتوجّه إلى ساوث دورشيستر.

.7

في مشفى ماساتشوستس العمومي، يتوجب على أطباء الإسعاف المقيمين أن يشاركوا بثلاث جولات خاصة بعض الشيء في الشهر: شاحنة مجهّزة طبياً تتوجّه إلى الأحياء المهمَلَة في بوسطن لتساعد جميع السكان في الحصول على علاج مجاني. نظرياً، هي فكرة حسنة. أما في الواقع، فهي غالباً كابوسٌ. وخلال الأشهر التي شاركتُ فيها بهذه المغامرة، تعرَّضَت شاحنتنا للقذف بالحجارة من أفراد عصابات يعتبرون أنّ وجودنا يعيق نشاطهم. تعرضنا بشكل دوري للهجوم والاعتداء والتشليح، حتى أنّ سائقي سيارات الإسعاف أنذروا نقاباتهم أنهم سيمارسون حقّهم في الإنسحاب. مع ذلك ظلّت البلدية متمسّكة بهذا المشروع واستمرّت في إحيائه على أساس تطوعي. لهذا ألفيت نفسي مراراً أقود الشاحنة بعد أن أستردّها من منطقة في ضواحي المدينة أشبه بمكان حجز منها بمرآب.

كنت أعيد التفكير في تلك الحقبة، البعيدة للغاية والقريبة للغاية، وأنا أدخل حرم فيتزباتريك لإصلاح السيارات، وهي إحدى

أكبر الورشات في المدينة، متخصِّصة في الصيانة الميكانيكية لمركبات الدفن والباصات المدرسية وسيارات الإسعاف.

كانت تنبعث رائحة زيوت معدنية محروقة ومازوت ومطاط إطارات من الورشة الكبيرة. وحين وطئت قدمي المكان، هرع نحوي كلب فئران أبيض وعدواني، واستقبلني بنباح قوي.

ظلّت الكلاب تُخيفني دوماً. وهذا الكلب أرعَبَني وقد اشتمّ الحيوان هذا الرعب. حاولتُ تجاهله وتقدَّمتُ نحو مسؤول المرآب.

- مرحباً، داني.

- مرحباً، لم نركَ منذ زمن طويل أيها الأخرق. على أيّ حال، أنتَ لا تخاف من زوريا، إنها كلبة لطيفة كما تعرف.

إنه كتلة شحم بطول متر وتسعين سنتيمتر محصورة في قميص حطّاب وبزة عمل قذرة. كان داني فيتزباتريك مرعباً أكثر من كلبته. من وراء ظهره، كان الجميع يلقّبونه جابا لو هوت، لكن لم يجرؤ أحد قط أن يقولها في وجهه.

- أرسلني كونراد لإحضار سيارة إسعاف من أجل هذا المساء، قلت لداني كأنني التقيته ليلة أمس.

- عمّا تتكلم؟ لم أتلقَّ أيّ طلب.

- سيُرسله لك كونراد بالفاكس، أجَبته بالمثل. أنت تعرف كيف تجري الأمور: جولة مفاجئة. وهذه الليلة، في المراكز الاجتماعية في ماتّابان وروكسبيري. قد يترتب علينا نقل مريض أو مريضين، لكن نريد شيئاً خفيفاً. وحدة سيارة إسعاف صغيرة، فهل لديكَ هذا في مستودعك؟

- لدي فعلاً سيارة فورد E، قال وهو يُشير بذقنه إلى سيارة إسعاف، لكن. . .

اتجهتُ نحو السيارة المغلقة المحوّلة إلى سيارة عناية مشدّدة.

- إنها تفي بالغرض. لا تشغل بالك بالفاكس. وتكَرَّم عليّ بتوقيعه نيابة عني حين تستلمه. سبق لك أن فعلت هذا مراراً.

عندئذٍ اعترضني داني بشحمه ليمنعني من الوصول إلى السيارة.

- لحظة، أيها الفراشة. سيُدهشني كثيراً أن أتلقّى فاكس من كونراد.

- ولماذا؟

- لأنه لم يعُد يعمل في المشفى منذ ستة أشهر.

اتخذتُ هيئة غاضبة وجازفتُ:

- اسمع يا داني، أتظنني مسروراً لأنهم كلّفوني بهذه الجولة؟ لقد تركوني وشأني منذ عامين. أقول لكَ إنك ستتلقى فاكساً من المشفى. وإلّا ماذا تريدني أن أفعل بسيارة الإسعاف هذه؟ فهي ليست الصندوق الأفضل لغزوة غرامية، أنت توافقني على هذا.

حكّ داني فيتزباتريك رأسه. كان يجب عليّ أن أبلغَ مأربي قبل أن يسنح له الوقت ليفكّر. حتى لو اضطررتُ إلى أن أعِدُه بأيّ شيء. طفا خبر قرأته في الصحيفة على السطح:

- السبت، سيلعب فريق الريد سوكس ضد اليانكيس. تعال وشاهد المباراة عندي في البيت. أعرف أنك مغرم بفيرونيكا. ستكون موجودة مع رفيقاتها، أوليفيا وباتريسيا، والصهباء القصيرة في قسم الجراحة. هؤلاء الفتيات يفقدن الحشمة حين يشرَبن، أنتَ تفهم ماذا أقصد.

وعلى الفور، اعتذرتُ ذهنياً من فيرونيكا، وقلتُ في سري إنني لا أفعل هذا للمتعة، وإنّما لسبب وجيه...

- موافق بالنسبة إلى السبت، أكَّد داني وهو يناولني المفاتيح. أين تسكن الآن؟

غادرتُ المرآب بعد خمس دقائق والبسمة تعلو شفتي وراء مقود سيارة الإسعاف.

اجتزتُ دورشيستر بقصد أن أسلك الطريق حتى نيويورك. كان حياً واسعاً ومتناثراً تنتشر على امتداد كيلومترات مبانيه الصغيرة من الصلصال الأحمر وأراضٍ صناعية بور ومسيجة بأسوار تغطيها كتابات عشوائية. وتلك أيضاً بوسطن التي أحببتها: بوسطن الانصهار الاجتماعي وملاعب كرة السلة المسيّجة بشباك والمحلات الصغيرة التي لم تزل على حالها.

توقفتُ عند الإشارة الحمراء، وشغلتُ المذياع، فوقعتُ على أغنية لفرقة الروك ر.ي.م (R.E.M) لم أسمَعها من قبل، ورحتُ على الفور أدندن لازمتها. حتى لو لم يزل أمامي الكثير لأقوم به، لكن خطتي، شيئاً فشيئاً، أخذت تكتمل. عبر الأثير، بدأ عنوان جديد، بينما طال زمن إشارة المرور. وأنا أغالب صبري، نظرتُ حولي. إلى يساري، شاخصةُ اتجاهات عليها خربشات: ثلاثة حروف Z كبيرة بطلاء أحمر تحاول تمويه الاتجاه -مقبرة فورست هيلز- كأنها تتآمر عليه. كنت أعرف هذا المكان: هناك دُفنت أمي وجدَّتي أم أبي.

انتقلت الإشارة الضوئية إلى الأخضر، لكني بقيت مسمّراً رغم بوق السيارة التي تتبعني. **كلّ تعازيّ الحارة**. أصابتني الحقيقة في الصميم: عبارة المصرفي لم تكن تقصد موت أمي.

وإنما موت أبي.

8.

كانت المقبرة تمتد على أكثر من مئة هكتار وهي أشبه بمنتزه إنجليزي عام منها بمكان جنائزي. بعد أن ركنتُ سيارتي في مرآب، سلكتُ أحد الدروب المتعرّجة في مشهد طبيعي كثير الوهاد، وتتخلّله نوافير من المرمر، وأماكن صلاة، وتماثيل رشيقة ولطيفة.

لم تطأ قدماي هنا منذ دفن أمي، في يوم غائم وماطر من صيف 1984، وقد تغير المكان كثيراً. ولكن بعد برهة، حين وصلتُ إلى الجهة الأخرى من سفح التلة الصغيرة، تعرفتُ على البحيرة التي يُشرف عليها رأس صخري يعطي للمكان شكلَ لوحة قوطية.

تبعتُ درباً حرجياً تحفّ به جدران صغيرة مبنية من حجارة بلا طين. كانت الساعة 18:00. والشمس تميل إلى المغيب، موشية المكان بضياءٍ جميل. وبين النباتات المزهرة، راح بعض الزوار القادمين بهدف التأمّل يطيلون زيارتهم ليستفيدوا من الطقس الجميل والنسمة العليلة التي تهزّ الخمائل ومشاتل الأزهار.

وفي ظلّ الأشجار المعمرة، اجتزتُ الممرات المفروشة بالحصى وسط الأضرحة والقبور. بدوري، استكنتُ إلى الخمول حتى لمحتُ شاهدة قبر أبي.

فرانك كوستيلو

2 يناير 1942

6 سبتمبر 1993

كنتُ مثلكم،

وستصبحون مثلي.

مات أبي الأسبوع الماضي. لذلك القبر حديث العهد: ثلاثة أو أربعة أيام.

شعرتُ بالحزن. ليس عليه، إنما على كلّ اللحظات التي لم نتقاسمها. حاولتُ مع ذلك استعادة ذكرى سعيدة، لكن لم يأتِ شيء، وهذا ما زادَ حزني. وحتى الرمق الأخير، أملتُ بحبّه. رأيته من جديد يصل فجأة إلى بيتي صباح ذاك السبت المشهود ويسحرني: وعدٌ برحلة لصيد سمك المرجان، ذات عصر مشترك بين أب وابنه... وكي يجذبني إلى فخّه ويقودني حتى المنارة، أخذني بالعواطف. وكنتُ مغفّلاً بما يكفي لأغرق.

منذ عام، المرة الأخيرة التي تحدّثنا فيها، كانت على الهاتف. وكانت آخر كلماته لي: «أنت تُضجرني يا آرثر!».

أنت تُضجرني يا آرثر!

ملخّص جيد لعلاقتنا.

وحين مسحتُ دمعة على خدي، لم أتمالك نفسي عن التساؤل إن كنتُ سأرزق بطفلٍ يوماً ما. ونظراً إلى هشاشة وضعي، كان ذلك يبدو مجازفة، ولكنني حاولت رغم هذا أن أتخيّل نفسي منهمكاً بلعب البيسبول مع طفل أو ذاهباً لإحضاره من المدرسة. وهنا أيضاً لم تتشكل أية صورة واضحة في ذهني. وهذا ليس مدهشاً: فالأفكار السوداء تملأ رأسي. وبلا شك ليس لدي ما يكفي من الحب لأقدّمه.

اقتربتُ من شاهدة الرخام، وابتسمتُ رغماً عني لدى قراءة ما كُتب عليها.

لا يا فرانك، آمل بشكلٍ خاص ألّا أصبح مثلك أبداً. انظر قليلاً في أيّ فوضى ورّطتني...

خلتُ أنني أسمع ضحكته تحملها الريح، ثم صوته المزهو: «لقد قلت لك يا آرثر. يجب ألّا تثق بأحد، ولا حتى أبيك...».

الأنكى، أنه لم يكن مخطئاً. لقد حذّرني هذا السافل، لكنني خلتُ نفسي أكثر دهاءً ودفعتُ ذلك الباب اللعين! اعترتني حالة غضب شديد حتى أنني رحتُ أكلم نفسي:

- تصرفتُ دائماً من دونك يا فرانك، وهذه المرة أيضاً، سأتخلّص لوحدي من هذه الورطة.

باعدتُ ذراعي، وعرَّضْتُ وجهي لأشعة الشمس، كعلامة تحدٍّ، وألقيت على أبي آخر استفزاز:

- ألا ترى، أنا حيٌّ، وأنت ميتٌ. لم يعُد بوسعك أن تفعل شيئاً ضدي الآن.

ولكن كما هي الحال دوماً، له الكلمة الفصل.

«هل أنت متأكدٌ يا آرثر؟».

.9

الساعة 58 : 23

كانت الساعة تقترب من منتصف الليل حين وصلتُ إلى نيويورك. توقفت في الطريق لأشتري ملابس على مقاسي من متجر غاب في شارع بويلستون: بنطال شينو، وقميص أبيض وسترة من الكتان. هذه المبالغة في التأنّق لم تكن لمجرّد التأنق. كنت أحتاج إلى مظهرٍ لائق لأتابع خطتي بنجاح.

ركنتُ سيارة الإسعاف في ممرّ في حي إيست فيلاج بين الشارع الثالث والجادة الثانية، ثم صعدتُ حتى ساحة سانت ماركس.

في مثل هذا الوقت، ليس هذا المكان هو الأهدأ في مانهاتن.

ثمة ذبذبات قلقة تُكهرب الجو. النفايات تغطي الأرصفة، والمباني كابية اللون، يشغلها الدخلاء. وعلى السلالم الصلصالية المتداعية، ثمة أجسادٌ خاملة وساكنة، وعيون مغمَضَة.

عند جذوع الأشجار التي تحفّ بالشوارع، تُشاهد محاقن مستعملة وواقيات ذكرية قديمة. وتغطي كتابات بذيئة واجهة محلات بيع الأسطوانات أو محترفات الوشم. وعلى الأخص، تنتشر المخدرات في كلّ مكان: فتجار المخدرات الذين تقاسموا الحي يوزّعون على الملأ لكلّ المدمنين، هيروين وحبوب. طوائف متنوعة -عجائز داعرون، شباب الصرعات، مدمنون على حافة القبر- يأتون للتسوق قبل أن يعودوا إلى بيوتهم لينهاروا أو يذهبوا للاحتفال في النوادي المجاورة. في مكان كهذا، كانت نيويورك أكثر من أيّ وقت مضى المدينة التي يمكن لأيّ شيء أن يحدث فيها.

لا سيما الأسوأ.

الساعة 16 : 0

على زاوية ساحة سانت ماركس والجادة A، توقفتُ أمام الفرانتيك، النادي الذي آمل أن أجد فيه إليزابيث آيمس.

كان المكان مكتظاً وغارقاً في جو خانق. يشوّه ثنائي غيتار معزوفة لفان موريسون. كان الكحول يتدفق بغزارة. وعلى حلبة الرقص تتصادم الأكتاف. والشعر يتلبّد بسبب التعرّق ويختلط. لكن الاستعراض الحقيقي كان وراء البار. سراويل جينز قصيرة جداً، قمصان شفافة فاضحة، قبعات مثبتة على الرأس: كانت النادلات يتكفّلن بالاستعراض، وهنّ يمارسن ألعاب خفّة بالزجاجات، ويحرِّضن الزبائن على مزيد من الشراب. وبالتناوب، رحنَ يصعدن

فوق طاولة الشرب ويسترسلن في رقصات خلاعية ترخي ظلالاً من الشك: للعمل في الفرانتيك، نهدان كبيران هما أكثر فائدة من معرفة تحضير كوكتيل مرغريتا أو كوكتيل ديكيري.

زاحمتُ بمرفقي لأصل إلى البار وطلبتُ قدح ويسكي جاك دانييلز من فتاة صهباء مكتنزة ينتشر وشمها الملون حتى بداية نهديها. كانت أكبر النادلات سناً وأكثرهن اكتنازاً. شعرها المرفوع بشكل كعكة، المنتصب أعلى رأسها، جعلني أفكّر في لوحة للرسام تولوز لوترك: **لا غولو تصل إلى كباريه الطاحونة-الحمراء.**

- مساء الخير، هل تعرفين إن كانت إليزابيث هنا هذا المساء؟

- في الطرف الآخر من الحانة يا عزيزي. لكنك تبدو فتى أكثر تهذيباً من أن يحالفك الحظ مع ليزا...

- شكراً على النصيحة.

دققّتُ النظر ولمحتُ مَن أبحث عنها.

- ليزا!

لوحتُ لها بيدي كأننا صديقان قديمان. كنتُ شبه متأكّد من أنها لن تتعرّف إليّ. على الأقل، هذا ما آمله. فلقاؤنا الخاطف هذا الصباح لم يستغرق سوى بضع ثوان. لقد لكمتني إليزابيث وأنا رفعت مباشرةً يديَّ إلى وجهي لأحمي نفسي.

قطبتْ الشابة حاجبيها وهي تتقدم. لعلّها كانت تتذكرني رغم كلّ شيء... وأنا قلق، ابتدرتها.

- مساء الخير، أنتِ التي في جوليارد سكول؟

بدا أن ذكر مدرستها طمأنها. وفجأة، لم تعد فقط نادلة تعمل في حانة كابية لتستعرض إغواء جسدها، وإنما طالبة في مدرسة شهيرة لفنّ التمثيل.

- هل نعرف بعضنا؟

هززتُ رأسي متصنّعاً ابتسامة أكثر تشويقاً.

- لا، لكن شخصاً نصحني بالمجيء لرؤيتك.

- مَن هو، دافيد؟

تذكرتُ أن هذا الاسم يعود للرجل الذي كانت ترسل له رسائل غرامية. وبعد تردّد، قرّرت أن أدلف من هذه الثغرة.

- أجل. أخبَرَني دافيد أنكِ ممثلة رائعة. وجاء هذا في أوانه، لأنه عندي دورٌ لك.

هزّت كتفيها.

- كفاكَ تدليساً...

خمّنت أنها متردّدة بين الفضول وعدم الثقة. يجب أن أصدمها أكثر من مرة...

- انتظري، أنا لا أمزح.

- هناك الكثير من الزبائن، يجب أن أتابع عملي.

لم أدَعها تبتعد.

- عندي بالفعل دور لك.

رفعَت عينيها إلى السماء.

- دور من أيّ نوع؟

- دور خاص بعض الشيء، اعترفتُ.

- انسَ الأمر، لا أصور أفلاماً إباحية، تنهّدت.

- لن تفعلي ذلك إطلاقاً! إنه دور تحتاجين فيه المزيد من اللباس. دور ممرضة.

- ممرضة تعاشر مرضاها؟

أصبحت الموسيقى صاخبة. واضطررتُ تقريباً أن أصرخ لتسمعني.

- لا!

- تعاشر طبيباً إذاً؟

- لا، لا تعاشر أحداً. أنت مهووسة، أقسم!

- أنت المهووس!

- أنا؟

- أنتم الرجال.

هززتُ رأسي، مبدياً استيائي. لم تستطِعْ كبح ابتسامتها.

- أنا آسفة، أمضيتُ نهاراً سيئاً. دخل أحد الساقطين بيتي هذا الصباح وحاول الاعتداء عليّ بينما كنت أستحمّ... هيا، تمتَّعْ رغم كلّ شيء، قالت لي وهي تستدير على عقبيها.

حاولتُ استبقاءها، لكنها سرعان ما غادرت إلى الطرف الآخر من طاولة الشرب، فتلقّفها الزبائن وهي تقدّم دفعة جديدة من أقداح التيكيلا الصغيرة لأشخاص من وول ستريت أتوا ليتسافلوا في إيست سايد.

اقتربَت مني لا غولو وعرَضَت عليّ كأس ويسكي آخر.

- أخبرتُكَ يا صغيري. ليزا لا تناسبك.

- أنا لا أسعى إلى مغازلتها.

- قُلْ هذا الكلام لغيري، يا عزيزي! الجميع يسعَون لمغازلة ليزا.

أخرجتُ لفافة تبغ؛ فقدحت عود الثقاب لتشعلها.

- شكراً. مَن هو دافيد؟ صاحبها؟

- ياه، إنه رسام.

زمَّت شفتيها، بين الريبة والاشمئزاز، وأضافت:

– بالمحصّلة، إن أمكَنَ أن نسمي ذلك رسماً. . . على كلّ حال، يمكن القول إنها متعلقة به. وهذا المخبول، متعلّق بالهيروين. . .

تذكرتُ فجأة الكشوف المصرفية.

– يستلف منها مالاً، أليس كذلك؟

– كيف تعرف هذا؟

تملّصتُ من السؤال وأنا أنفثُ سحبة دخان. ثم حاولتُ الدوران حول البار لألفت من جديد انتباه ليزا، ولكن حشداً غفيراً تحلّق حول طاولة الشرب.

كانت لا غولو قد بدأت تملأ أقداحاً أخرى. وقبل أن تتركني، أسرَّت لي:

– ما زال أمام الصغيرة ساعة عمل واحدة. إذا أردتَ أن تحدِّثها بهدوء، اذهب وانتظرها عند داماتو.

– داماتو؟

– إنه مطعم بيتزا يفتح طوال الليل، يقع على زاوية الشارع العاشر وستيفسانت ستريت.

– هل أنتِ متأكدة من أنها ستأتي؟

صَرَفتني بقفا يدها.

– اذهَبْ وانتظرها هناك، أقول لك.

الساعة 1:36

منذ عام 1931، تغيّر العالم
لكن بيتزانا لم تتغير.

مؤطّراً فوق صندوق آلة التسجيل، كان شعار داماتو بيتزا يشدّد على قِدَم المنشأة ومصداقيتها، باعتبارها أحد آخر مطاعم المدينة في استخدام فرنٍ على الحطب.

إنه مطعم صغير ذو ديكور عفا عليه الزمن -أغطية طاولات ذات مربعات حمراء وبيضاء، كراسي متنقلة من الطراز القديم، مصابيح ذات عواكس مخلَّعة- لكنه يعطي جواً حميماً. رائحة بندورة وحبق تفتح شهيتكم حين تتخطّون عتبة الباب. جلستُ منذ ساعة إلى طاولة، وسنح لي الوقت أن ألتهم قطعة بيتزا بعجينة محمّصة مرفقة بأقداح عديدة من نبيذ الفالبوليتشيلا. وبما أنّ المكان صغير للغاية، راحت ربّة العمل الممتعضة تلحّ على الزبائن ألّا يتأخروا في المطعم بعد أن ينهوا وجبتهم. وحتى أحتفظ بطاولتي، اضطررتُ أن أطلب زجاجة بيرة. كانت قد أحضرتها للتو حين دخلت ليزا إلى المطعم. واضحٌ أنها من روّاده. فقد حيّت ربة العمل وعاملي البيتزا بأسمائهم.

- ماذا تفعل هنا؟ قالت حين رأتني. هل تتبعني؟

- لو سمحتِ لي، الأصحّ هو أنكِ أنتِ مَن يتبعني، لأنني هنا منذ ساعة، قلتُ محاولاً أن ألطّف الجو.

- هل تظن نفسك ذكياً؟ قالت وهي تجلس أمامي.

كانت قد بدّلت لباسها وصارت ترتدي الآن سروالاً لصوقاً تحت سروال الجينز القصير جداً وسترة سبنسر قصيرة مغروزة فيها مشابك على شكل جمجمة وتنتعل جزمة. تغطي يديها قفازات بلا أصابع من الدانتيلا البيضاء؛ وتطوّق معصميها عشرات الأساور الرفيعة من المطاط، وحول عنقها مسبحة تقلّدتها بشكلٍ متصالب. وعلّقت في أذنيها أقراطاً على شكل صليب. تشكيلة جميلة لمادونا في فترة ماريبول.

طلَبَتْ ماء غازيّاً وشرائح رقيقة من خبز البيتزا المنكَّهة بالأعشاب. تركتُ لها زمام المبادرة في الحديث.

- لا أعرفُ حتى اسمك.

- آرثر كوستيلو. أنا طبيب إسعاف في بوسطن.

- وهذا الاقتراح للدور، هو مجرّد هراء، أليس كذلك؟

- بالعكس، إنه في غاية الجدية، لكنني أحتاج إلى جواب في الحال.

- وهل هو لفيلم أم مسرحية؟

- مسرحية. وهي لن تُعرض إلّا مرة واحدة.

- ومَن كتبها؟

- لا أحد، البتة. أطلب منك الارتجال، وأن تتكيّفي مع الموقف.

- هل تسخَر مني؟

- أظن أنهم علّموكِ فن الارتجال في مدرسة التمثيل.

هزّت رأسها.

- ما أحبه، هو النصوص الجميلة، والحوارات المكتوبة بشكل مدروس، وكلمات المؤلف... عندما يرتجل ممثل، يُمنى بالفشل غالباً.

- أحياناً، ولكن ليس دائماً. بعض أجمل المشاهد السينمائية ارْتُجِلَتْ ارتجالاً: المونولوج أمام المرآة لروبرت دي نيرو في فيلم **سائق التاكسي**، والمشهد المؤثر للكريما المثلجة في فيلم **كرامر ضد كرامر**. كما تعرفين، حين يحذر داستن هوفمان ابنه: «بيللي، لو تنتبه وأنت ترفع ملعقة المثلجات إلى فمك...

- ... ستواجهك مشاكل كبيرة جداً جداً» أحفظ هذا الفيلم عن ظهر قلب. وهذا المشهد ليس مرتجلاً.

أنهَت إجابتها وهي تركز عينيها في عينيَّ، حدّة نظرتها البترولية حالت دون لامبالاتي.

- أنا متأكد من أنه مُرتجَل، قلتُ أخيراً.

- لنسلِّم بالأمر. أجابت وهي تهز كتفيها. على أيّ مسرح سيمثَّل هذا الدور؟

- مسرح الحياة. «العالم بكامله هو مسرح، و. . .

- . . . الجميع، رجالاً ونساءً، ليسوا سوى ممثلين فيه»، أعرف. أنا أيضاً، راجعتُ معلوماتي قبل المجيء. حسنٌ، توقف عن الدوران حول الموضوع: ما هي الخطة؟

- أنتِ محقة، سأكون صريحاً. الحقيقة هي أنني أحاول تهريب جدي من مشفى نفسيّ.

رفعَت عينيها إلى السماء، دون أن تحاول مقاطعتي.

- تريدين معرفة الخطة، ها هي: غداً صباحاً، عند الساعة السابعة تماماً، ستدخلين معي إلى مشفى بلاكويل بثياب ممرضة. سيكون جدي قد تظاهرَ بأنه مصابٌ بنوبة قلبية. سنستلمه فوق نقالة، ونضعه في سيارة إسعاف وننسحب بأقصى سرعة ممكنة. ستعودين إلى بيتك بعد نصف ساعة. وتضعين المال في جيبك ولن تسمعي عني ثانية شيئاً البتة.

صمتت لبضع ثوانٍ، تناولت جرعة من كوبِها ثم انفجرت ضاحكة.

- لا بد أنكَ تتعاطى أصنافاً رديئة.

حدّقتُ في وجهها برزانة.

- أنا في منتهى الجدية ولا أتعاطى شيئاً.

توقفَت عن الضحك. كان شعرها الأشقر قد تشابك، فردّته وعقدته بربطة قماش داكنة.

- هذا الجدّ، هل هو موجود حقاً؟

أومأتُ برأسي.

- يُدعى سوليفان كوستيلو.

- ولماذا تريد تهريبه؟

- لسبب وجيه على جانب من الأهمية.

- وهل تعتقد أنه غير مجنون؟ خمَّنَتْ.

- أنتِ فهمتِ كل شيء.

- لكن لماذا أنا؟ لا يعرف أحدنا الآخر. ألا يمكنكَ أن تطلب هذا من أحد أصدقائك؟

- أحتاج إلى محترفة. ثم ليس لديّ أصدقاء. من هذا النوع، على كلّ حال.

- النوع الذي يمكننا الاتصال به في الساعة الثالثة صباحاً ليساعدنا في التخلّص من جثة.

هذه المرة، أنا مَن ابتسمتُ لها.

- آسفة، لا أستطيع أن أخوض معك هذه المخاطرة، قالت وهي تقضم قطعة خبز البيتزا.

ناولتُها المغلّف الذي يحوي ثمانية آلاف دولار.

- هذا كلّ ما أملك، قلتُ وأنا أدرك أنني أرمي ورقتي الأخيرة.

فتحَتْ مغلف الورق المقوى ونظرَتْ مطوّلاً إلى رزمة الأوراق النقدية من فئة الخمسين دولاراً. راح بؤبؤا عينيها يلمعان، لكن ليس جشعاً. كنت أعرف أنها ترى في هذا المال منفسة أكسجين: تسديد إيجار أشهر عديدة وتسوية عجزها المصرفي. التقليل من المغامرات الليلية كنادلة في حانات مشبوهة مثل حانة الفرانتيك وهي تجعل من نفسها محطّ نظرات شبقة كاستعراضية ترقص وسط صرخات السكّيرين. لم يعُد وقتها يسمح لها بالبقاء في بيتها لتقرأ مسرحيات

سام شيبارد وروايات جون إيرفينغ، وهي متكورة على أريكتها مع القط ريمنغتون، وفنجان من الشاي في يدها.

ترَدَّدَتْ طويلاً، وهي تنظر إليّ بعينين تلمعان من التعب، متسائلةً مَن أكون حقيقة، ومحاولةً أن تخمّن إن كان ثمة شيطان يختبئ خلف وجهي الطيب. عمرها عشرون عاماً، شابة، مغرورة قليلاً، متعجرفة قليلاً، طائشة قليلاً. ولبرهة، عبرت ذهني صورة خاطفة: صورة خاطفة لإليزابيث أكبر سناً، وأكثر ثقة، وأكثر قرباً مني، لكن مشاكل أخرى تُقلقها. ثم تلاشت الرؤية واختفت.

- هذه مخاطرة كبيرة للغاية، قرّرت وهي تزلق المغلف المغلق نحوي.

- أنا لا أطلب منكِ السطو على مصرف.

- هذا في غاية الخطورة، أقول لك.

- ليس أخطر من العيش مع مدمن مخدرات.

انطلق ردّي قاسياً وصاعقاً. حدَجتني إليزابيث بنظرتها.

- مَن أنت لتحاكم الناس؟

- ليس من الحكمة أن تستديني لتدفعي ثمن مقوّيات صاحبك.

- لا يمكنك أن تفهم، دافيد يحتاجها كي يرسم. إنه...

- تبرير جيد! أنا طبيب، وأؤكد لكِ أنّ أفضل شيء لرسّامكِ، هو أن يتوقّف عن تعاطي المخدرات. بجدّ، لماذا أنتِ متعلّقة به؟

- لأنني أحبه، أجابت بقدر ما استطاعت من الازدراء.

كانت الدموع توشك أن تطفر من عينيها. بدأ ذقنها يرتجف من غيظٍ لن تعود تقوى على كبته بعد لحظات.

- اللعنة عليكَ أيها الوغد! صرخت وهي ترشق محتوى كوبها في وجهي.

نهضت وهي تقلب كرسيها وغادرت المطعم.
لم يكن بوسعي أن أربح جميع الجولات.

الساعة 2:21

حين عدتُ إلى سيارة الإسعاف، كانت مرآتاها الخارجيتان مكسورتين. من الواضح أنّ أحد مدمني المخدرات حاول تحطيم المركبة -ليسرق منها مواد طبية، أو الأصح أدوية مهدئة- لكن ذهنه لم يكن صافياً، لأن السيارة المغلقة قاومت هجماته. وفي غمرة هيجانه، لا بد أنّ متعاطي المخدرات انتقم من المرايا. إنها لعبة الحي...

وراء مقود «سيارتي السريعة»، غادرتُ إيست فيلاج، متجهاً نحو غرامرسي، موراي هيل، وميد تاون. كان الذهاب إلى روزفلت آيلند بالسيارة يتطلب القيام بالتفاف طويل عبر كينز وبعد ذلك يعود المرء أدراجه ويسلك التفرّع الذي يفضي إلى جسر روزفلت آيلند، الطريق الوحيد لدخول المركبات. وصلتُ الجسر عند الساعة الثالثة صباحاً.

اجتزتُ المضيق وركنت سيارة الإسعاف قرب المشفى في مرآب مسيَّج بشبكٍ في الهواء الطلق مقابل ناطحات السحاب. كان المذياع يبثّ مقطوعات جاز تقليدية. أنزلت زجاج السيارة المغلقة. وأنا أتمايل على أنغام مقطوعة ساكسفون هادئة لستان غيتز، دخنتُ لفافة تبغ ورحت أنظر إلى طول ناطحة السحاب في الجهة الأخرى للنهر. لم أزَل في مانهاتن وبعيد الآن. الارتجاجات والضوضاء وأضواء المدينة لا تبعد أكثر من بضع عشرات من الأمتار، لكنها تبدو عصيّة على البلوغ.

بعيدة للغاية، وقريبة للغاية...

وجدت في هذا المشهد صدىً مقلقاً لما كنت أعيشه: كنتُ في آنٍ معاً في قلب حياتي وخارج حياتي. في آن معاً ذاتي وخارج ذاتي.

رميتُ عقب لفافة التبغ على الإسفلت، واسترخيتُ على مسند الرأس وأغمضت عيني، مختلساً من الليل بضع ساعات من النوم السيئ.

.10

طق، طق، طق!

انتفضتُ. خيوط أشعة الشمس الأولى على وجهي. ثم صورة إليزابيث آيمس تنقر على زجاج سيارتي.

مذعوراً، ألقيتُ نظرة خاطفة على ساعتي.

تباً! إنها الساعة 6:55.

فتحتُ لها الباب.

- ما الذي حملكِ على المجيء؟

- المال، وهل هناك غيره؟ أجابت بينما كنت أقلع. بالمناسبة، الدفع مقدَّماً.

فتشتُ في جيبي الداخلي وناولتها المغلف وأنا أشتم نفسي لأنني غفوتُ.

- آسف، لكن لن يكون لدينا متّسع من الوقت لنكرّر، قلتُ وأنا أشغّل زمور الإنذار، والضوء الوامض، وأيضاً المصباح الدوار المثبّت على سطح السيارة.

- بالنسبة إلى مُناصِرٍ للارتجال مثلك، هذه ليست مشكلة. بالمناسبة، هل أحضرتَ ثياباً؟

- جمعتُ أشياء هناك في الخلف. هلّا تكرمتِ وناولتني صداراً وسماعة.

رغم الحُفَر المنتشرة على الطريق المعبّدة، أسرعتُ آملاً أن يجري كلّ شيء كما هو مخطّط في الطابق السابع من مشفى بلاكويل. إذا التزم سوليفان بالخطّة المتَّفق عليها، فلا بد أنه يتظاهر الآن بالاحتشاء. رحتُ أتخيّل الممرضة تدفع باب الغرفة لتبدأ جولتها الصباحية فتجد جدي، وقد تشبّثت يداه بالجهة اليسرى من صدره، كأنّ ألماً مبرحاً صعقه. خلتُ أنني أرى سوليفان، قبل دقيقتين، والبسمة تعلو شفتيه، يرشّ وجهه بالماء ليبدو متعرّقاً ثم يقوم بعشرات التمارين الرياضية بهدف رفع درجة حرارة جسده. وإذا كان العجوز لا يزال بكامل وعيه، فالخطّة ناجحة. وهي تراه متوعكاً، ستضطر الممرضة لأن ترفع سماعة الهاتف وتطلب سيارة إسعاف.

- الإسعاف وصل! هتفتُ وأنا أدخل بأعلى صفارة إنذار إلى المرآب.

ركنتُ سيارة الإسعاف أمام مدخل المشفى، وفتحتُ عجلات النقالة. دخلتُ كالإعصار إلى البهو، ترافقني «مساعدتي».

- إسعاف من أجل مريض الطابق السابع! هتفتُ وأنا أتوجّه نحو المصاعد.

وصل أحد المصاعد للتو. فدلفنا إليه وضغطَت إليزابيث الزر. وبينما راحت المقصورة تجتاز الطوابق، تفقدتُ أدواتي -حقيبة المعاينة وجهاز وقف الرجفان القلبي، حقيبة جهاز الضغط- وتنهدتُ تنهيدة عميقة يُفتَرَض بها أن تطرد قلقي، وقلتُ لألطّف الجو:

- تناسبكِ حقاً صدرية المسعفة الصغيرة. مثيرة... جداً.

كل ما حصلت عليه بالمقابل هو إصبع وسطى مرفوعة باتجاهي.

انفتح البابان مُصدِران صريراً جافاً.

- إلى نهاية الممر!

دخلتُ الغرفة 712، ورأيت سوليفان ممدداً على سريره، وعند رأسه ممرضة. كان وجهه مبللاً ومتشنجاً، ويده اليمنى على صدره.

- سنهتمّ به! قلتُ للممرضة وأنا أضع أدواتي على طاولة متحركة.

- ولكن. . . مَن أنتم؟ غمغت.

وقبل أن أتمكّن من فتح فمي، استلمت إليزابيث الكلام:

- الدكتورة هايس، والدكتور أديسون.

بدأتُ بإنجاز الفحوص الأساسية على «المريض»: التنفس، قياس النبض والضغط، وضع أقطاب كهربائية للحصول على خطوط بيانية.

نظرَت إليزابيث إلى الجهاز وأمرَت بلهجة مقنِعَة:

- ألا ترى أنّ هذا احتشاء؟ سننقله حالاً إلى ماونت سيناي!

وضعنا سوليفان على النقالة. وبينما نحن نجتاز الممر، غطّيت وجهه بقناع الأكسجين. دخلت الممرضة معنا إلى المصعد، ما أعطى الفرصة لإليزابيث كي تزيّن دورها وهي تصرخ:

- أديسون، افتح له وريداً واحقنه بالأسبرين!

انفتح البابان. وبأقصى سرعة، اجتزنا البهو الخالي حتى سيارة الإسعاف.

الأكثر مشقة أُنْجِز!

وضعتُ سوليفان في الخلف. رأيته بوضوح غارقاً في الضحك تحت قناعه. رفع إبهامه أيضاً نحوي، وكأنه يقول لي:

«أحسنتَ صنعاً يا فتى».

طفَت ابتسامة على وجهي، والتفتُّ و...

11.

بلا أية مقدمات، أصابتني الضربة الأولى من هراوة الحارس على بطني فقطعت أنفاسي. والضربة الثانية على صدري طرحتني أرضاً.

على الأرض، ورأسي في الوحل، راحت الصورة المضطربة لسيارة الإسعاف تتماوَج أمام عينيَّ. لا بد أنّ شعار مشفى ماساتشوستس العمومي في بوسطن الملصق على المركبة نبَّهَ الحارس الذي ضربني. ارتفع وراء ظهري صوت ذي الوجهين، الممرض صاحب الوجه المحروق:

- انتبه، يا غريغ، ليس وحده!

وبينما يسارع لسدّ الطريق أمام سيارة الإسعاف، أقلعَت المركبة كالإعصار. وبعد نحو خمسين متراً، حاول المهرّجان إيقافها، لكن الحظ لم يحالفهما في مواجهة سيارةٍ محركها 8 سيلندر.

عادا نحوي خائبَين وخمَّنتُ أنني سأدفع ثمن غضبهما.

- أنتَ، لم أرتَح لكَ منذ رأيتك، قال ذو الوجهين تماماً قبل أن يركلني في خاصرتي.

- اهدأ، سننقله إلى غرفة العزل بانتظار الشرطة.

انتزعا صداري ورفعاني من حاشية قميصي ليجرّاني إلى داخل المشفى. من جديد، دخلتُ المصعد، لكن تحت حراسة مشدّدة هذه

المرة ونحو القبو. وفي نهاية ممرّ، اكتشفتُ ما سمّي بجدارة «غرفة العزل»: حجرة صغيرة جداً، مبطّنة، رماني فيها الرجلان كيفما اتفق.

انغلق الباب عليَّ وبقيتُ وحدي، سجين هذا التابوت، أحاول ألّا أستسلم لرُهاب الأماكن المغلقة.

والآن؟

واسيتُ نفسي بالتفكير أنّ سوليفان حر. كنت محقاً في التشبّث بهذا. لقد نفذتُ خطّتي حتى النهاية ونَجَحَتْ.

مع فارق صغير.

بعد ربع ساعة، تناهى إلى سمعي شذرات حديث تقترب نحوي. ثم صوت الحارس الجهوري:

- إنه محتجز هنا في الداخل، أيها الملازم.

- لا بأس، غريغ. سأقتاده.

وبينما يفتحان رتاج قفل الباب، فاحت رائحة قوية وعابقة بزهر البرتقال في المقصورة وأصابتني بالغثيان. في الوقت ذاته، انتابتني اختلاجات وصداع نصفي مفاجىء ثَقَبَ رأسي. شَحَّ الهواء وشعرتُ بحرقة في عيني وراودني هذا الإحساس شبه المألوف بأنّ الأرض انخسفت تحت ساقي وأنني رحتُ أهوي في الفراغ.

صَرَّ صوت الباب الذي يُفتح في أذنيّ، لكنني لم أعُد موجوداً هناك الآن.

ثم هذا الاستغراب الأخير من ذي الوجهين:

- تباً، لكن أين ذهب هذا الساقط؟

1994

إليزابيث

الحب مغامرة بلا خارطة ولا بوصلة
لا تحتمل إلّا الحذر.

رومان غاري

0.

طنين راديو بعيد أو تلفزيون، ستارة من قصب السكر. ضباب كثيف، ضارب إلى السواد. إحساس كريه، لكنه من الآن فصاعداً مألوف: إحساس بأنّ جفوني متورّمة، كأنها مُثقَلة بعدة كيلوغرامات من الرصاص. هذه الصعوبة في التنفس. وهذا التعب المرهِق القريب من العدمية.

أفتح عينيّ. إنني متمّدد على أرضٍ خشبية. لم تزل ألواح الأرضية الخشبية تفوح برائحة الشمع. الظلام دامس. والطقس حار كأنهم تَركوا مشعات التدفئة تعمل بأقصى طاقتها لمدة ساعات. نهضتُ بتوجّس. جعلتني طقطقة مفاصلي أشعر أن عظامي ستتقصف. أفرك جفوني، وألقي نظرة دائرية حولي.

أنا... في شقة غارقة في العتمة. دور علوي في فوضى يشبه محترف رسام. ثمة حوامل لوحات، ولوحات تجريدية، عصارات

وعبوات ألوان في كلّ مكان على الأرض، بقايا بيتزا على طاولة واطئة من البلوك.

.1

فوق رفّ، ثمة راديو منبّه يشير إلى الساعة الثالثة صباحاً. اقتربتُ من الواجهة الزجاجية التي تمتد على طول الجدار. بالنظر إلى الارتفاع، لا بد أنّ الشقة تقع في الطابق الثالث أو الرابع. كانت إنارة الشارع جيدة. وتمتاز هندسة الحي المعمارية بمباني الآجر ما قبل الحرب ومباني الحديد الزهر الأنيقة بسلالمها الخارجية وقناطرها المزخرفة. وأنا أدقِّق النظر، رأيتُ صالات عرض لوحات تشكيلية عديدة تطلّ مباشرة على الشارع. إحدى الصالات حمل لافتة مضيئة: 18 ميرسر ستريت. كنتُ موجوداً في سوهو.

في حجرة معيشة المحترف، ثمة تلفاز على محطة السي إن إن يبث أخباراً غزيرة متواصلة. لاحظتُ جهاز تحكّم في تجويف الأريكة. وبعد أن تحققتُ بنظرة دائرية خاطفة أن الحجرة خالية، أخذته لأرفع الصوت واقتربتُ من الشاشة، شريط أحمر مكتوب عليه «خبر عاجل». ويظهر نيلسون مانديلا، وقد انتُخب رئيساً لجمهورية جنوب أفريقيا، يؤدّي القَسَم أمام حشدٍ غفيرٍ اجتمع في بريتوريا.

«آن الأوان كي نضمّد جراحنا.
وحانت لحظة ردم الهوّة التي تفصل بيننا.
وعصر البناء يقترب».

كان التاريخ مرئياً أسفل الشاشة: 10 مايو 1994. وآخر ذكرياتي تعود إلى سبتمبر 1993، إذاً فقد قفزت هذه المرة في الزمن زهاء ثمانية أشهر.

وبينما كنت أُطفئ التلفاز، جعلني صوت منتظم ألتفت برأسي. أصختُ السمع، والتقطتُ ما يشبه هسهسة خفيفة يضاعفها نشيش متواصل لخيط من ماء. تقدّمت في ممرّ مظلم لا بد أنه يصل ما بين غرفة النوم والحمام. على الباب الأول أُلصقت صفيحة معدنية قديمة تشير إلى الممشى: **حمام**. دفعتُ الباب المنفرج لأكتشف فيه...

.2

... الرعب.

ضوء حار ومرتعش يغلّف الحجرة. ضوء نحو عشرين شمعة تقريباً من جميع المقاسات، وُضعت في كلّ مكان تقريباً من الحمام. وعلى البلاط الأسود والأبيض، قطرات دمٍ قانٍ تُعَلِّم الطريق حتى المغطس الموضوع إلى الخلف على أقدام نحاسية بشكل أرجل عُقاب.

اقتربتُ، وساقاي ترتعشان، من الحوض الذي لم يزل يمتلئ. كان جسد شابة عارية يستحمّ في ماء مصطبغٍ باللون الأحمر. هامدة، وعيناها مغمضتان، ورأسها على حافة الحوض، ومعصماها مقطّعي الأوردة. وصل الماء حتى منخِريها، والشعر يغطي وجهها، وتوشك على الغرق.

آه سحقاً!

استجمعتُ قواي الهزيلة، وسحبتها خارج الماء، ومدَدتها على الأرض وجفّفتها بمناشف.

وضعتُ أصابعي على الشريان السباتي لأجسّ نبضها. أحسستُ بخفقٍ ضعيف جداً: نبضٌ واهن سببه نزف كمية كبيرة من الدم.

اهدأ يا آرثر.

راح قلبي يخفق بشدة في صدري، قلب عن قلبين. جثوت إلى جانبها، وحاولتُ بسرعة تقييم حالة وعيها، وأنا أطبّق الحركات المألوفة التي كنت أقوم بها كلّ يوم في الإسعاف. أخذتُ أكلّمها، لكنني لم أحصل على أيّ ردٍّ مفهوم. كانت ردود فعلها تدلّ على الألم. حاولت عبثاً إنعاشها، فلم تفتح عينيها. مقياس غلاسكو للغيبوبة: 8 أو 9، وهو يشير إلى تدني وعي بالغ.

فكّر!

نظرتُ حولي. على الأرض، زجاجة ويسكي جيم بيم وأخرى فور روز. وقرب سلة المهملات، التقطتُ علبتَي دواء من البلاستيك. دققتُ النظر لأقرأ لصاقتيهما: لونيستا (عقار منوّم) ولورازيبام (مهدّئ للقلق).

يا إلهي...

كانت العبوات فارغة، ما يشير إلى أنّ الجرعات المبتلعَة كبيرة جداً. لم تكن الفتاة تتظاهر. فامتزاج هذا النوع من العقاقير مع كميات كبيرة من الويسكي يؤدّي إلى آثار مدمِّرة.

رفعتُ ذراعَي الشابة للحدّ من تدفق الدم. كان تنفّسها بطيئاً جداً، وضغطها منخفضاً، وحدقتاها متوسعتين، وأطرافها مزرقّة.

استغرقت بضع ثوانٍ لتقييم الوضع. نزيف، ومنوم، ومضاد اكتئاب، وكحول: كوكتيل مدمّر يجعل حالتها حرجة. كان تنفسها يوشك أن يهبط هبوطاً حاداً ويتوقف قلبها.

نهضتُ، وهرعتُ إلى الصالة أبحث عن هاتف. اتصلتُ بالرقم 911 لأطلب سيارة إسعاف. في خزانة المطبخ، وجدتُ خرقتين نظيفتين ووشاحين في خزانة الملابس استعملتهم لربط معصمَي الشابة.

بعد أن عقدتُ قطع القماش، تبينتُ وجهها وركزتُ فيه لأول مرة.

إنها إليزابيث آيمس.

3.

انهمك المسعفون حول جسد ليزا وفقاً للإجراءات التقليدية المتّبعة في محاولة انتحار من هذا النوع: فتح وريد عند ثنية كلّ مرفق، إدخال أنبوب مع تهوية مساعدة، وجهاز المراقبة الحيوية، تخطيط القلب، وحقن بالفلومازينيل.

استطعتُ استباق جميع حركاتهم، وتوقّع جميع قراراتهم. ورحتُ أتحرّق رغبةً لمساعدتهم، ولكنني لا أتمتّع بأية صفة قانونية؛ وفضلاً عن ذلك، يعرف هؤلاء الفتية عملهم حقّ المعرفة مثلي. في غرفة النوم، عثرتُ على ثوب، وحذاء نسائي خفيف ومحفظة صغيرة من الجلد الاصطناعي تحتوي على أوراق هوية إليزابيث، ومفتاح شقة، وورقتين نقديتين من فئة العشرين دولاراً وبطاقة مصرفية. استوليتُ على المفتاح والمال وعهدتُ بالمحفظة إلى أحد المسعفين حتى تستطيع المشفى تحديد هويتها.

- علينا أن نسرع! صرخ هذا الأخير. فالنزيف حادّ.

أخرجوا جسد ليزا على نقالة. ورافقتهم حتى الشارع.

- إلى أين تأخذونها؟

- مشفى بيلفو، أجابني الممرض وهو يصفق باب سيارة الإسعاف.

نظرتُ إلى سيارة الإسعاف تبتعد ترافقني جارة في الشقة المقابلة، سيدة عجوز خرجت من بيتها حين سمعت هرجاً ومرجاً في الممر.

- لمن هذه الشقة؟ سألتها، مع أنني خمنتُ إجابتها سلفاً.

- استأجرها الرسام دافيد فاولكز، لكنه مات بسبب جرعة مخدرات مفرطة منذ بضعة أيام. الصغيرة المسكينة...

وأنا أفتّش جيوبي، عثرت على آخر لفافة تبغ بنكهة النعناع وقداحة «**أنا أحب نيويورك**».

- ليزا، هل تعرفينها حق المعرفة؟ قلتُ وأنا أشعل اللفافة.

- غالباً ما نتصادف. يجب القول إنها كانت دوماً موجودة عند هذا الشخص. كانت لطيفة للغاية، كلامها ودّي في كلّ مرة... إذا أردتَ رأيي، هو لا يستحقّ أن تموت من أجله.

ابتعدت السيدة العجوز وهي تتابع الحديث لوحدها.

- فتاةٌ مسكينة، كم هو مؤسف أن تتمنى الرحيل في مثل هذا العمر!

أومأتُ إلى أول سيارة أجرة تمرّ في الشارع. وبينما تتوقف السيارة بجانبي، رأيتُ العجوز تزمّ ثوب نومها وهي ترتعش.

- أما أنا، كنتُ لأفعل أيّ شيء من أجل بضع سنوات إضافية...

4.

الساعة الخامسة صباحاً

حين دفعتُ باب شقة ليزا، استقبلني ريمنغتون، الهرّ الأرقط، وكأنني منقِذ. ولم أكد أضع قدمي في الممرّ حتى أخذ يتمسّح بساقي، مطلقاً مواءً يائساً.

- كيف حالك؟ قلتُ وأنا أداعب أعلى رأسه.

في خزانة المطبخ، وجدتُ كيس طعام للقطط. قدّمت له طاسة

كبيرة منه وأيضاً صحناً من الماء العذب. رغبتُ باحتساء القهوة، لكن العلبة المعدنية كانت فارغة وزجاجة الحليب الوحيدة المتبقية في الثلاجة منتهية الصلاحية.

على طاولة الشرب ثمة صحف قديمة. أعداد من صحيفة **الولايات المتحدة الأميركية اليوم** تاريخها يعود لأيام سابقة. كان لديّ شيء آخر لأقوم به، لكنني لم أتغلب على فضولي. كانت الأسابيع الأخيرة دامية: في 5 أبريل، انتحار الموسيقي كورت كوبين؛ الأول من مايو، حادث مروّع يودي بحياة بطل سباقات السيارات آيرتون سينا. على طاولة البار، عدد من مجلة **نيوزويك** مع صورة غلاف بالأبيض والأسود للمغني نيرفانا، وبعنوان على شكل استفهام:

انتحار، لماذا يقتل شخص نفسه؟

وضعتُ المجلة وطفقتُ أبحث عمّا جئتُ لأجله. إجابة عن هذا السؤال: أين سوليفان؟ جلتُ الحجرتين وأنا آمل أن أعثر على دليل. ماذا حدثَ قبل ثمانية أشهر حين نجحَت إليزابيث في تهريب جدي؟ أين أخذته؟ هل بقيا على تواصل؟ لستُ متأكداً. لم يكن لدى سوليفان مال، ولا مكان ينام فيه، ولا أوراق هوية وحسب علمي ليس لديه أصدقاء يلوذُ بهم. موضوعياً، كانت جميع الطرق معبّدة أمامه كي يُحتجز من جديد في بلاكويل. وربما يواجه الموت. طردتُ هذه الفكرة من رأسي، وفضلتُ أن أتمسك بآخر صورة أخذتها عنه: صورة رجل بعينٍ ماكرة وذهنٍ متّقد يكفي لتدبير خطة هربٍ محكَمَة حتى يستعيد حريته.

انتقلتُ من حجرة إلى أخرى؛ لا أثر لجدي في الشقة. كنتُ

أهمّ بالمغادرة حين انسلّ رمينغتون بين ساقيّ ليدخل غرفة صاحبته. حاولتُ أن أتجنّبه، لكن قدمي تعثرت بالسجادة وانطرحتُ أرضاً.

يا له من أخرق...

وحتى أنهض واقفاً، استندت إلى الطاولة الصغيرة وفي تلك اللحظة لمحتها: قلادة تتدلى من طرف سلسلة فضية، والسلسلة معلّقة على مخروط معدني لمصباح مكتب قديم بذراع متحرّكة. لم تكن هذه الحلية موجودة هنا حين جئتُ آخر مرة. أخذتُ الميدالية بيدي، ونظرتُ بافتتان إلى منحوتتها النافرة الدقيقة التي تمثل وجه شابة بقسمات ناعمة، صورته الجانبية اللامعة تبرز على خلفية زرقاء من عقيق. قلبتُ القلادة؛ نُقِشَتْ عليها عبارة بأحرف دقيقة:

إلى إيفون
تذكري أن لنا حياتين
كونور، 12 يناير 1901

خفق قلبي: كونور وإيفون هما اسما والدي جدّي. كيف استطاعت إليزابيث الحصول على هذه الحلية؟ جاءت الإجابة بديهية:

لأن سوليفان قدّمها لها.

وبحماس فائق، فتحتُ جميع الأدراج، وجميع الخزائن، وجميع الخزن الجدارية. أصبحتُ أعرف الآن ما أبحث عنه: حقيبة يد إليزابيث. في سقيفة الرسام لم أجد سوى محفظةٍ تحملها خلال السهرة. ليست الحقيبة الكبيرة التي تضع فيها بعض النساء يومياً نصف أمتعتهن. عثرتُ بعد التفتيش على حقيبة من الجلد المبرغل فيها علبة مساحيق، وأدوات تجميل، وربطة مفاتيح، وفرشاة،

ونظارات، وعلبة علكة، وقلم حبر ناشف، وأقراص أسبرين، ومفكرة و. . . فهرس هاتف.

تصفّحته وقلبي يخفق. لا يوجد شيء في الحرف ك، ولكن في الحرف س، كان اسم «سوليفان» مكتوباً بخطّ جميل، ومعه رقم يبدأ برمز 212، الدال على مدينة نيويورك.

وبقلم الحبر، نسختُ الرقم على ساعدي ودلفتُ إلى المطبخ، رفعتُ سماعة الهاتف الجداري واتصلتُ بالرقم. طنين، ثم نحو عشر رنّات بقيت بلا ردّ ولم تسمح حتى بترك رسالة على مجيب آلي.

تباً!

في هدأة آخر الليل، حدقتُ في بلّورات المكروييف الرقمية الضاربة إلى الخضرة، كانت تشير إلى الساعة 34 : 5.

وفجأة، جفلني رنين الهاتف.

- آلو؟ قلتُ وأنا أرفع السماعة.

- إنها عملية، ميزة إعادة الاتصال التلقائي.

- اللعنة! هذا أنت يا سوليفان؟

- هل عدتَ يا صغيري؟ هذا خبر سارّ جداً! لم أكُن أتوقع عودتك قبل هذا الصيف!

- أين أنت، تباً لك؟

- وأين تريدني أن أكون؟ في بيتي، طبعاً!

.5

أنزلتني سيارة الأجرة في العنوان الذي حدَّده جدي: زقاق مبلّط يقع خلف ساحة واشنطن. على بوابة الردب، ثمة صفيحة نحاسية

تشير إلى أن زقاق ماكدوغال كان يحتوي قديماً اصطبلات وملحقات الفلل البرجوازية المحيطة بالمنتزه.

بدأ الصبح ينبلج. وغطاء رقيق من الضباب يخيّم على البلاط: شرائط أبخرة تلتف حول قواعد أعمدة الإنارة القديمة. دفعتُ الباب الصغير وتقدّمت حتى منزل صغير من طابقين ذي واجهة صفراء وصدئة. طرقتُ الباب وأنا أحرّك مطرقة نحاسية صفراء مزينة بفمِ أسد مزمجر.

- أهلاً، يا ولد، استقبلني سوليفان وهو يمدّ رأسه من فتحة الباب.

حين فتح الباب على مصراعيه، تفحّصته من رأسه حتى أخمص قدميه. لقد تغيّر مظهره الجسدي بشكل مدهش. أصبحت تسريحة شعره خاصة ومتقنة: أسدل شعره على الجوانب وصار أطول وسرّحه بتناسق فوق جمجمته. أمّا لحيته فقصيرة ومشذبة. ومع أن الوقت ما زال مبكراً، إلّا أنه ارتدى كنزة ذات قبة مثنية وسترة أنيقة من المخمل المضلّع. كنتُ مصعوقاً: لقد حلَّ رجلٌ نبيلٌ مكان العجوز الخامل في مشفى بلاكويل وبدا أصغر من عمره بعشر سنوات على الأقل.

- لكنكَ ملطّخ بالدماء! قال باستغراب.

- اطمئن، ليس دمي.

- هيا، ادخل بسرعة، سوف تتجمّد أردافنا!

وأنا متردّد، تبعته إلى صالون دافئ وفخم يشبه في الداخل حانة إنجليزية بأرضيته الخشبية ذات اللون العسلي، وأريكة شيسترفيلد وطاولة البلياردو.

وفي صدر الغرفة، تشرف مرآة كبيرة على مَشرب من خشب الأكاجو صفّت عليه أقداح من الكريستال السميك ونحو عشر

زجاجات ويسكي من نوعيات مختلفة. وعلى جزءٍ من الحائط مكتبة تحوي كتباً ذات أغلفة جلدية وخزانة خشبية مرصَّعة بالعاج وُضِعَ فوقها حاكٍ كهربائي قديم وأسطوانات جاز قديمة 33 دورة بالدقيقة. تعرّفت إلى الموسيقيين ذاتهم الذين أحبهم أنا أيضاً: ثيلونيوس مونك، جون كولترين، مايلز ديفيس، فرانك مورغان...

- اقترب من مدفأة الحطب، دعاني سوليفان وهو يفرك يديه أمام الموقد الذي تتأجج ناره مضيئة ومتوهجة. في أيّ ساعة استعدتَ وعيكَ اليوم؟

- الثالثة صباحاً.

- وأين حدثَ ذلك هذه المرة؟

- في دَور علوي في سوهو.

وببضع جمل، أخبرته بمحاولة انتحار ليزا وكيف حاولتُ إنقاذها. بدا متأثراً بعمق من هذه الحادثة. وخلال بضع ثوان، اكفهرّ وجهه وشردَ نظره في الفراغ، ثم بحث عن سلوى وهو يسحب من جيبه علبة تبغ لوكي سترايك - الماركة ذاتها التي دخّنها فرانك طيلة حياته والتي بالتأكيد لم يكُن لها شأن بموته المبكر. قدَّم لي لفافة وأشعل لنفسه واحدة.

- أنا واثق من أنها ستنجو، أكَّد وهو يجلس على أريكة من جلد أصهب. هل ترغب بحمام سريع؟

- انتظر يا سوليفان، أين نحن الآن؟

- لقد أخبرتكَ: في بيتي.

- لا أصدق ذلك. لا أفهم كيف استطعتَ شراء أو استئجار شقة: أنت مريض هارب من مشفى نفسي، وهذا يعني أنه ليس لديك مال، ولا حساب مصرفي، ولا أوراق شخصية...

- ومع ذلك، أنا على ما يرام في بيتي، أجاب بنظرة ماكرة. اشتريتُ هذه الشقة في عام 1954. كانت شقة عزوبيتي، حديقتي السرية. مكانٌ أحبُّ أن آوي إليه خارج عملي لأستمع إلى الموسيقى وأرتاح وأشرب كأساً...

- «وأستقبل فيه عشيقاتي دون أن تعرف زوجتي»، أكملتُ.

لاحظتُ ابتسامته من خلال دخان اللفافة.

- أجل، أيضاً، أوافقك على هذا. باختصار، لأحافظ على سرية هذا المكان، موَّلته بنظامٍ معقد من الأسماء المستعارة والاعتماد على دين طويل الأجل. بصراحة، أنا من دفعتُ المال، لكن شريكي في تلك الفترة، راي ماكميلان، هو رسمياً المالك الرسمي للعقار.

- وأنت مَن رمَّمته بعد هروبك من المشفى العام الماضي.

- أنت تفهم بسرعة، أيها الصغير.

فهمتُ الآن. في منتصف الخمسينيات، عندما أُعْلِنَ موت سوليفان، باشروا بتصفية إرثه، ولكن شقة نيويورك لم تكن جزءاً من أملاكه، وأفلتَت من الشبكة.

- وبالضبط، كيف تؤمن نفقاتك؟

متوقعاً سؤالي، نهض عن أريكته. وأمام المكتبة، أدار لوحاً خشبياً مثل ساحر ليكشف عن خزنة. أدار عجلات ليفتح خزانة فولاذية: كانت تحتوي عل ثلاث سبائك ذهبية بحجم متوسط تشعّ بلمعان براق.

- من أكثر النصائح القيِّمة التي يمكنني أن أقدمها لك، هي هذه يا صغيري: مهما حصل، احتفظ دوماً بقرشك الأبيض ليومك الأسود. تحسّباً للطعنات الغادرة التي قد توجّهها الحياة لك.

مكتبة أحمد

كانت عيناي منجذبتين بشكلٍ لا يقاوَم إلى السبائك الذهبية الثلاث. وانتهيتُ إلى سؤاله:

- لكن من أين جاء كلّ هذا الذهب؟

من جديد، لمعَت نظرة جدي.

- في بداية الخمسينيات، ولأسباب ضريبية، اعتادَ أحد زبني أن يسدّد لي بشكل سبائك ورثها عن أمه. كسبتُ أربع سبائك ووضعتُها هنا. وبعتُ إحداها العام الماضي. فظيعٌ كم ارتفعت تكاليف المعيشة، أليس كذلك؟

لم أتكبَّد عناء الردّ على سؤاله.

- إذاً، أنت تعيش هنا منذ ثمانية أشهر؟

- بالتأكيد.

- وكيف تقضي أيامك؟

سحق عقب لفافة تبغه في منفضة زجاجية مزخرفة.

- أنتظركَ يا ولد.

- وكيف تنتظرني؟

حدَّقَ فيَّ دون أن يرمش وقال بصوت رصين:

- أعرف أنك تتساءل عمّا يحدث لك. وأعرف أنك مذعور. إذاً اسمع، عندي خبر سيئ لك: الحقيقة هي أسوأ بكثير ممّا تتخيله.

تحدّيتُ نظرته.

- وما هي، هذه الحقيقة؟

- إنها حكاية معقّدة وعصيَّة على التصديق. سأرويها لك بالتأكيد، ولكن اصعد أولاً واستحمّ وارتدي ثياباً جديدة.

- وأين سأجد ملابس أخرى؟

- في الطابق الثاني. هناك غرفتان. الأولى غرفتي. والثانية

اعتَبِرْها غرفتكَ. ستجد كلّ ما يلزمك في خزانة الثياب. وبما أنني لم أكن متأكداً من المقاسات، اشتريت الملابس ذاتها بمقاسات مختلفة.

وعلى دهش مني، أضاف بنبرة رضا:

- لقد أخبرتك بهذا: منذ أشهر وأنا أنتظركَ يا ولد.

6.

أراحني الحمام. فأنا لم أغتسل منذ ثلاثة أيام. أو ربما منذ ثلاث سنوات. في الواقع، لم يعُد لديّ أيّ مفهوم عن الزمن. ومن فرط السعي إلى فهم ما لا يُفهم، راح دماغي يدور من الآن فصاعداً في الفراغ، دون أن يستطيع الوصول لأيّ استنتاج منطقي.

بعد نصف ساعة، التقيتُ جدي في المطبخ، بعد أن حلقتُ ذقني، وارتديتُ قميص بولو وحلّة أنيقة وتطيَّبتُ بماء الكولونيا الباهظ ذي الرائحة اللطيفة للخزامى والليمون.

- تفوح برائحة نتنة، مازَحني سوليفان وهو يصبّ لي فنجاناً من القهوة الساخنة.

كان قد أعدَّ لي أيضاً زلابية مسقيّة بشراب القيقب وعصير برتقال. ورغم التوتر، كان الجوع يمزّق بطني، كأنني لم آكل منذ أسبوع. فارتميتُ على الفطائر والتهمتُ منها ثلاثاً في الحال.

- أعرف هذه الشهية الشرهة التي تنتابك عند كلّ استيقاظ، لكن تناول طعامك ببطء وإلّا سيؤلمك بطنك، نصحني جدّي كأنني في سنّ الستة أعوام.

ومثل فتى متمرّد، شربتُ فنجان القهوة بجرعتين. الآن وقد شبعتُ، طلبتُ تفسيرات من سوليفان.

هزّ رأسه، واستند إلى كرسيه وتنهَّد تنهيدة مديدة.

- لكي تفهم ما يحصل لك، يجب أن نعود ثلاثين عاماً إلى الوراء، إلى عام 1954. في ذلك الوقت، كان كلّ شيء ناجحاً. كانت وكالة الإعلان التي أنشأتها قبل ستة أعوام في أوجّ تطورها. وكالة على الموضة والزبن يتدفقون من أرجاء البلد. كنتُ أوشك أن أبلغ الثانية والثلاثين من عمري. وأعمل ستّ عشرة ساعة في اليوم ولدي ظاهرياً كلّ ما يطمح إليه أيّ رجل: امرأة مخلصة، وابن، وبيت جميل، وسيارات عديدة... لدي كلّ شيء، ما عدا الأساسي. الحقيقة هي أنني كنت أشعر بالضجر في الحياة. وكان ينقصني شخص أشاركه هذا النجاح. توأم روح، شريكة، رفيقة...

وهو منفعلٌ بعض الشيء، نهض عن كرسيه وتوجّه نحو موقد معدني ليحضِّر لنفسه فنجان قهوة.

- في ذلك العام كنت أمرّ بوضع سيئ، أسرَّ لي وهو يتكئ على طرف الموقد. وبدأتُ أعي أنني فوَّتُّ جزءاً جوهرياً من حياتي: لم أكُن قد فهمتُ أهمية أن ينجب المرء أطفالاً من امرأة يحبها حقاً. ازددتُ عزلة وأنا أبحث عن جميع الفرص الممكنة لأهرب من بيتي. وفي أثناء أسبوع، كنتُ أجد ملاذاً هنا، في هذا البيت للعزوبية، ورحتُ أمضي كل عطل نهاية الأسبوع في ترميم بناء قديم اشتريته بثمن بخس، **24 ويندز لايتهاوس**: منارة الأربع وعشرين ريحاً.

ارتشفَ رشفة قهوة قبل أن يُتابع بصوتٍ مَهيب:

- انقلبت حياتي في ليلة 18 سبتمبر 1954. كانت الساعة تقارب العاشرة ليلاً. كنتُ قد عملت طوال النهار لأسُدَّ تسريبات عديدة في برج المنارة. كنت منهكاً وعزمتُ على النوم باكراً. كانت الرياح تعصف في الخارج. وكما يحدث غالباً في الطقس الرديء،

انقطع الخط الهاتفي. كنت أستمع إلى نقلِ مباراة بيسبول في المذياع، وأنا آكل سندويشاً وبيدي زجاجة بيرة. فجأة، انقطع البث الرياضي بسبب خبر عاجل للإعلان عن كارثة سكك حديدية وقعت لتوّها في نيويورك. رفعتُ صوت مذياعي، وهو ما يفسّر عدم سماعي مباشرة الضجيج الصادر من القبو. وبينما كنت واثقاً من أنني موجود لوحدي، رأيتُ فجأة رجلاً مضرّجاً بالدماء يظهر في الصالون ويتهاوى وسط الحجرة.

وأنا أتذكّر حادث القطار، ربطتُ الأمر حالاً.

- هذا الرجل، كان هورويتز، أوّل مالك للمنارة؟

نظر إليّ وقرأتُ في عينيه مزيجاً من الذهول والاحترام.

- يمكنني القول إنك ذكي. أنت محقّ، كان هورويتز. رأيتُ وجهه في صور عديدة محفوظة في الأرشيف الذي سلّمني إياه محامي أرملته. كان قد شاخَ، لكنني عرفته فوراً. انحنيتُ فوقه. كان الرجل المسكين مُصاباً بجراحٍ عديدة: ثُقب في البطن وعلى الصدر، كأنه جاء من ميدان معركة. كنّا نعرف نحن الاثنين أنه سيموت. تشبَّث بي وهمسَ في أذني: «الباب. **إياك** أن تدفع الباب».

بوجهٍ متجهّم، عاد سوليفان إلى طاولة خشب السنديان الواطئة وجلس قبالتي.

- تحت تأثير الصدمة، بقيت جاثياً بجانب هورويتز حتى بعد أن لفظَ أنفاسه الأخيرة. كنتُ مشلولاً، وعاجزاً عن إيجاد أيّ تفسير لما حدث معي للتو. وبما أنّ الهاتف مقطوع، كان القرار الأكثر عقلانية هو أن أستقلّ سيارتي وأقطع المسافة حتى مخفر شرطة بارنستيبل لأخبرهم بقصّتي، ولكن. . .

- ولكنكَ لم تفعل هذا.

- لا، لأنّ ثمة أمر يتعذّر الدفاع عنه. لم يكن هناك إلّا طريقة واحدة للدخول إلى المنارة وإلى البيت: باب المدخل. وكنتُ أنا نفسي أغلقته بالمفتاح دورتين في بداية المساء، وظلّ مقفلاً. أمّا النوافذ، فكانت جميعها مسدودة. إذاً من أين جاء هورويتز؟ ولمعرفة ذلك، اقتفيتُ آثار الدم نحو القبو. قادني طريق خضاب الدم حتى الباب المعدني الشهير. في ذلك المساء، كنتُ في مأزق، وقرَّرتُ ألّا أستجيب لوسوسة الشيطان. لذلك اكتفيتُ بتنظيف جميع بقع الدم. . .

قاطَعته.

- لماذا لم تذهب لتُخبر الشرطة؟

- لأنني كنت أعرف على كلّ حال رجال شرطة ذلك الزمن، فتصور! السيناريو مكتوبٌ سلفاً: سيتّهمونني بقتل هورويتز.

- ليس بالضرورة. على الأقل، سيجرون تحقيقاً.

- ولكن أيّ تحقيق؟ هذه القصة، تشبه قصة لغز الغرفة الصفراء: جثة في منزلٍ جميع منافذه مغلَقَة بإحكام من الداخل. وما زاد الطين بلة، كان عندي صحيفة سوابق: إدانة حديثة العهد بالتهرّب الضريبي وأخرى قبلها، بعد قصة شجار قديمة في حانة حين كنت في سنّ الثامنة عشر.

- إذاً ماذا فعلت؟

أخذ استراحة وطقطق أصابعه.

- رسمياً، كان هورويتز قد مات منذ أعوام. انتظرتُ حتى هدأت العاصفة وقررتُ أن أدفن جثته في قلب العقار.

7.

كنت مصعوقاً. فوجه سوليفان المتوتر استُثير كأنه استعاد المشهد ذهنياً.

- دفنته وحدي خلال الفترة الصباحية. ثم عدتُ إلى المنارة. رغبتُ حتماً أن أفهم ما حصل. نزلتُ إلى القبو الغارق في رطوبة غير مألوفة وغير مفهومة، لأنّ الطقس في ذلك الصباح كان بارداً وجافاً. فتحتُ الباب المعدني ونظرتُ داخل الحجرة. سبق ودخلتها عشرات المرات في الماضي. استخدمتُها كمستودعٍ وخزَّنت فيها أدوات وحتى فكرتُ بتحويلها إلى قبو نبيذ. خطوتُ بضع خطوات إلى الداخل. كانت الحرارة شديدة وشعرتُ كأنني في حَلّة ماء يغلي. كنتُ أهمّ بالخروج حين أغلقَ تيار هواء عنيف الباب عليّ. أنتَ تعرف التتمة: ساقان ثقيلتان، ضيق تنفّس، إحساس بسقوط لانهائي...

أخذَ سوليفان استراحة وتنهَّد تنهيدة مُتْعَبَة.

- استيقظت على سطح بناء في حي ميتباكينغ ديستريكت بجانب خزّان ماء. لم أكن أعرف ماذا أفعل في نيويورك. كانت السماء تمطر والجو شديد البرودة. عضلاتي خدرة، منهكٌ، أسعلُ بشدّة كأنني ركضت في سباق ماراتون. نزلتُ إلى الشارع بواسطة سلم الخدمة ووجدتُ ملاذاً في حانة. خلف طاولة الشرب، تلفاز يبثّ بالأبيض والأسود أخبار اليوم: كنتُ في ديسمبر 1955، في ذروة قضية روزا باركز.

- قفزتَ في الزمن أكثر من عام...

أيّد بإيماءة من رأسه.

- وكما حدث معك أيضاً، كنتُ منهكاً وفاقداً رشدي. همتُ

على وجهي طيلة النهار في مانهاتن، محاولاً أن أستوعب ما يحدث لي. وحتى ذهبتُ لإجراء فحص نفسي عاجل ما دمتُ تأكدتُ أنني أصبحت مجنوناً. وبعد أربع وعشرين ساعة «تبخّرتُ» من جديد. حين فتحتُ عينيَّ، كنتُ في المقعد الخلفي لسيارة أجرة. أطلقت الراكبة بجانبي صرخة حين رأتني. كانت تقرأ صحيفة تاريخها أكتوبر 1956.

طرحتُ السؤال الذي يلحّ علي:

- وكم من الوقت استمرّت هذه الحالة؟

نظر مباشرة في عينيَّ.

- أربعة وعشرون عاماً يا بني.

8.

نهض سوليفان وراح يذرع الحجرة طولاً وعرضاً.

- هل تريد الحقيقة؟ حسنٌ، ها هي: حين دفعتَ هذا الباب، دخلتَ في نوع من متاهة جهنمية. ستعيش أربعة وعشرين عاماً من حياتك في أربعة وعشرين يوماً فقط.

تركني أخزّن المعلومة. لم أكن متأكداً من استيعابي لما حاول أن يشرحه.

- تريد القول إن وجودي من الآن فصاعداً سيقتصر على العيش يوماً واحداً فقط في العام؟

- ها أنتَ فهمتَ كلّ شيء. وسيستمر ذلك مدة أربعة وعشرين عاماً.

وجدتُ صعوبة في استجماع المشاعر التي تزوبع في رأسي. أربعة وعشرون عاماً...

- أهذا ما حدث لك؟

- بالضبط يا ولد. منذ عام 1955 حتى عام 1979. عَبَرْتُ ما يقارب ربع قرن فيما يمكن أن نسميه أربعاً وعشرين «رحلة»: هذه هي لعنة المنارة. وهذا ما يحدث لك الآن. أنتَ انطلقتَ في رحلة ستقودك حتى عام 2015.

- لا، هذا مستحيل...

تنهّد جدي تنهيدة مديدة وظلّ صامتاً ما يقارب الدقيقة. كانت الشمس قد أشرقَت، مسلطة أشعتها على نوافذ المطبخ. اقترب سوليفان عفوياً من الطاولة وأطفأ مصباح السقف.

- ومع مرور السنين، فهمتُ بالتدريج القواعد المحرّكة لآلية عمل المنارة. وأكثرها تضليلاً هي هذه القاعدة: ما دام يوجد شخص في «المتاهة»، حجرة القبو لا تكون مؤذية للآخرين. لا تسألني لماذا، فأنا لا أعرف شيئاً عن ذلك البتة، ولكن لهذا السبب، حين كان هورويتز في الدوامة، استطعتُ دخول الحجرة دون أن أتعرّض لأيّ خطر.

- وخلال الأربعة وعشرين عاماً من رحلتك...

- ... بقيَتْ المنارة ساكنة على الأرجح ولم تزل على هذه الحال بالتأكيد حتى اليوم منذ أن قفزتَ قفزتك الكبيرة.

أخرج سوليفان لفافة تبغ من علبته، وضرب طرفها على الطاولة ليرصّ التبغ وأضاف بحزن:

- هذا هو التساهل الوحيد «للنظام»: لا يمكن أن يسحق إلّا شخصاً واحداً في آنٍ واحدٍ...

ماجَ لهب أزرق متصاعد من قداحة بنزين أمام عينيه وأشعلَ طرف لفافته.

- وخلال توالي رحلاتي، فعلتُ ما بوسعي لأحمي عائلتي من هذا الفخ. عند ظهوري الرابع، حدّدت موعداً مع ابني، فرانك، في مطار كينيدي. ربما أخبركَ بذلك: أنا من طلبتُ منه أن يسدّ مدخل الباب المعدني بجدار.

وافقته بصمت. ثم:

- وماذا يحدث بعد ذلك؟

كان سوليفان يتوقع هذا السؤال، وحين رأيتُ تكشيرة تعلو وجهه، فهمتُ فوراً أنه لا يرغب في الإجابة. نهض عن كرسيه وفتح الباب نصف المزجّج المطلّ على شرفة صغيرة مشمسة ومزدانة بالورود.

بقي مزروعاً هناك حتى أنهى لفافته وسط أزهار زرّ الذهب وأزهار ابنة الراعي.

- ماذا يحدث بعد الأربع وعشرين رحلة، يا سوليفان؟

سحق عقب لفافته في حوض أزهار.

- سيكون لدينا وقت للتحدث عن هذا. أعتقد الآن أنّ عليك أن تسأل عن أخبار ليزا.

لم ألحّ. ربما لم تعُد لديّ رغبة في معرفة الإجابة التي سيقدّمها...

- هل تأتي معي؟ إنها في مشفى بيلفو.

- اذهبْ قبلي، سأوافيك فيما بعد.

.9

خرجتُ من المنزل وصفقتُ الباب خلفي. أجل، كما أخبَرَتني الممرضة، نقلوا ليزا إلى مشفى بيلفو، وأستطيع الذهاب إليها بسهولة

سيراً على الأقدام. رحتُ أرتقي الشارع الخامس حتى **فلات آيرون**، ثم انحرفتُ نحو إيست ريفر. وخلال أقل من ثلاثين دقيقة من المشي، وصلتُ أمام واجهة أثرية لأقدم مشفى في المدينة.

لم تكن الزيارت تبدأ قبل الساعة الحادية عشرة، ولكن باعتباري طبيب إسعاف، كنتُ أعرفُ كيف أتصرّف لأتحايل على عناصر الأمن. في قسم الاستقبال، ادّعيتُ أنني شقيق إليزابيث آيمس. شرحتُ وأنا مضطرب أنني وصلتُ الآن من بوسطن بالطائرة وبالغتُ في قلقي. سمحوا لي بالصعود إلى الطابق بلا صعوبات تُذكر. وهناك، تجولتُ في الممرات بحثاً عن الطبيب المقيم الذي استلمَ مناوبته للتو. قدَّمت نفسي إليه كزميل في مشفى ماساتشوستس العمومي. وفي أثناء النقاش، اكتشفنا أننا في العمر ذاته وأننا تمرّنا في نورثويسترن ميموريال في شيكاغو. قادني بنفسه إلى غرفة إليزابيث، مُظهِراً حرصه على حالتها الصحية.

- حين تكفّلنا بها، وضعناها في العناية المشددة. قطّبنا جروحها ووضعناها تحت التنفس الاصطناعي. بعد ذلك، تعرفُ مثلي كيف تسير الأمور: الفلومازينيل سيقوم بتثبيط سريعٍ للبنزوديازيبين، لكن الكحول ونزف الدم يعقدان الوضع ويؤخّران عودتها سريعاً إلى حالة الوعي. لم يزل أمامي ثلاثون ساعة مناوبة، لا تتردّد في المجيء لرؤيتي إذا كانت لديك أسئلة.

شكرته ودفعتُ باب الغرفة.

كانت الحجرة غارقة في ضوء خفيف. وجه ليزا يبرز من غطاء بلون أخضر مائي. جامدٌ وشاحبٌ، يغطيه ستارٌ شفاف. لم تزل شفتاها ضاربتين إلى البنفسجي، وخصلات شعر مشعثة تغطي نصفهما.

وبردِّ فعلٍ مهني، تفقّدت أنابيب الحقن المزروقة في ذراعيها، ومكان الأقطاب الكهربائية، ومؤشّرات شاشة مراقَبَة القلب ونشرة تقييم الحالة الصحية المعلّقة أسفل السرير.

ثم قرّبت كرسياً وجلستُ قربها.

في هذه الغرفة من المشفى، شعرتُ على نحوٍ غريب أنني في مكاني: ممرضٌ وملاكٌ حارس.

بدَت الحجرة لي أيضاً كأنها شرنقة، وقشرة حامية أحتاجها لأستريح وأستعيد رشدي.

كنتُ مرهَقاً. وتقريباً منهكٌ جسدياً ونفسياً. وعلى الأخص، مذعورٌ لأنّ الأحداث هزمتني وتجاوزتني، وتركتني من دون سلاح أدافع به عن نفسي. فما رواه لي سوليفان ليس له أيّ معنى، مع ذلك، كان هو التفسير المنطقي الوحيد. كان له الفضل في وصف ما أعيشه. لم تكُن تفسيراته معقولة، لكن ليس لدي تفسيرات أخرى لأعارضه. وإذا كان عقلي يُطالبني ألّا أصدقه، فإنّ حدسي يقول لي العكس بأنّ كل هذا صحيحٌ.

لقد درستُ دراسة علمية وجميع قراراتي تعتمد على العقلانية. لم أؤمن بالله قط، وهربت دوماً من الخرافات الباطنية أو شبه الروحية وكأنها طاعون. واليوم، أجد نفسي أسيرَ لعنة، ورغماً عني بطلَ تلك القصص الخيالية التي كنت أشاهدها على التلفاز في مراهقتي: **ما وراء الواقع، دكتور هو، حكايات السرداب، كريبشو**...

مرّ النهار كنسمة، مضبوطاً على إيقاع زيارات الأطباء وباليه الممرضات ومساعداتهن، والطنين المنتظم لجهاز مراقبة القلب والتنفس الاصطناعي.

وفي السهرة، كتبتُ رسالة إلى ليزا على ورقة تحمل شعار المشفى. كنت قد وضعتها في مغلّف حين دخل وجه مألوف فجأة إلى الغرفة.

- سوليفان! كلّ هذا الوقت!

تجاهَل ملاحظتي، وبعد أن استفسر عن صحة المرأة الشابة، قال لي بصوت حزين:

- جئتُ لأودّعك.

وأنا غير مصدِّق، هززتُ رأسي متنهداً.

- إذاً «سأختفي» هكذا، أمامك؟

هزّ ذقنه.

- أتذكّر جميع الأحاسيس، باحَ لي بصوت يوشيه نوع من الحنين المؤلم. الاختلاجات، رائحة زهر البرتقال، وهذا الإحساس بالاضطراب الذي يفطر قلبك كلما شعرتَ أنك راحل...

- متى نلتقي؟ سألته وأنا أحاول أن أداري خوفي.

- لا أعرف. وسطياً خلال عام، ربما ثمانية أشهر وربما خمسة عشر. هذا ما يزيد ألمي: استحالة أن تحدد موعداً.

- أظنكَ حاولتَ السيطرة على «القفزة»: أن تركّز تفكيرك على تاريخٍ محدّد أو شخص...

- هذا ما نقرأه في روايات الخيال العلمي، لكن للأسف، لا تسير الأمور على هذا النحو في الواقع. هل سجلتَ رقم هاتفي؟

أريته ساعدي حيث دونتُ الأعداد العشرة.

- احفَظْه، ذلك أكثر أماناً. وحين تعود، اتصل عندما تستطيع.

وبينما كان يسحب من جيبه علبة دخان لوكي، خرجتُ عن طوري.

- لا يمكنكَ التدخين هنا، اللعنة! أين تظنّ نفسك؟ لم نعُد في عام 1954!

وهو ممتعضٌ، وضعَ لفافته وراء أذنه وسألني:

- بالمناسبة، كيف عثرتَ عليّ؟

أخرجتُ من جيب سترتي القلادة الزرقاء والسلسلة الفضية اللذين وجدتهما في شقة ليزا.

ابتسم سوليفان.

- إنها حلية قدّمها أبي لأمي يوم مولدي. وجدتُها في بيت العزوبية وأهديتُها للصغيرة.

- كان والداك متحابين **حقاً**، أليس كذلك؟

- حالفهما هذا الحظ، أجابَ بحياء.

ومن دون رغبة في التركيز على هذا الموضوع، قلبتُ القلادة لأسأله:

- ماذا تعني هذه العبارة؟ «تذكَّر أنّ لنا حياتَين»؟

- إنها عبارة قديمة من حكمة صينية: لدينا حياتان والثانية تبدأ حين نُدرك أنه ليس لدينا إلّا حياة واحدة.

أيدتُ برأسي.

- كتبتُ رسالة إلى ليزا، قلتُ وأنا أعطيه المغلَّف. هل بوسعك أن تسلِّمها لها؟

- يمكنك أن تعتمد عليّ، طمأنني وهو يخطو بضع خطى نحو النافذة. ماذا كتبتَ لها؟

وأنا أفتح فمي لأجيبه، ارتعشتُ بسبب تشنّج خفيف. وسرى تنميلٌ في رؤوس أصابعي. أفلَتُّ القلادة. ثم تشنّج جسدي.

وبينما راح نظري يزوغ، رأيت سوليفان يمزِّق علناً المغلف الذي سلّمته له.

- لكن ماذا تفعل؟ أيها الساقط...

نهضتُ عن الكرسيّ لأمنعه من الذهاب أبعدَ من ذلك، ولكن بمجرّد أن استندَت قدماي إلى الأرض، شعرتُ أن ساقيّ تخوران وكأنني أغوص في رمال متحركة.

- إلى العام القادم، قال لي سوليفان وهو يضع اللفافة بين شفتيه.

ضربَت دماغي عاصفة كهربائية، تلاها صوت تنفّس أعطاني إحساساً أن صدغيَّ ينفجران.

ثم اختفيت.

1995
قنبلة مكان القلب

[. . .] فكرتُ عندئذٍ أنّ العنيف، ليس الزمن الذي يمضي، إنما هو انعدام العواطف والمشاعر. كأنها لم توجد قط.

لورانس تارديو

.0

زعيق وجيز وصفارة إنذار عدائية.

دحرجة رتيبة يقطعها تنفّس منفاخٍ هوائي. احتكاك حديد. زعيق سكة حديد مجلجل.

جسدي متمدّد على أرض صلبة، لكنها مرتجّة. أشم هواءً زنخاً وفاتراً، تدفعه مروحة عتيقة. تصطكّ أسناني. أشعر بالخدَر في دماغي وبضيقٍ في شُعَبي التنفسية. وجهي يغلي من شدة الحمى وشعري يبلّله العرق. أشعر بظمأ شديد؛ وأمعائي تلتهب.

وكما هي العادة بعد الآن، عيناي جافتان وأجفاني ملتصقة. وفتحهما يسبِّب لي ألماً مبرحاً، كأنها حُقِنَتْ رملاً وصمغاً. بصري مشوّش. أول شيء لمحته هو قضيب حديد يبرز من الأرض ويرتفع حتى السقف. أتشبّث به وأرفع هيكلي العظمي المرهق.

شيئاً فشيئاً، يصبح بصري أكثر صفاءً. أميّز مقعداً، وخربشات، وأبواباً منزلقة.

إنني في نفق مترو نيويورك.

.1

- ولكن من أين خرجتَ، أيها الأحمق؟

كانت العربة فارغة باستثناء متشرِّد مسترخٍ على مقعده وثلاثة زعران صغار أسود وأبيض ولاتيني يشربون جعتهم الرديئة المخبّأة في كيس ورقي. كان الماكرون أشخاصاً جوالين مثيرين للسخرية: يعتمرون قبعات، ويضعون عصائب للرأس، أسنانهم ملبَّسة بالذهب، يرتدون كنزات لها طاقية، ويضعون أرطالاً من الحلي حول أعناقهم، ويلبسون كنزات خفيفة عليها شعار توباك، ويحملون مسجّلاً ضخماً يبث سيلاً من أغاني فرقة راب.

- إنها تساوي الكثير من المال، ساعتكَ، أخبرني!

كانوا فوقي في أقل من ثانيتين. لم أزَل ممسكاً بالقضيب المعدني. أشعر بالقشعريرة، ورقبتي متشنجة، وأرغب أن آوي إلى سرير مع ثلاثة أغطية ومشروب ساخن.

- أعطني سترتك ومحفظتك!

كان اللاتيني أول من رفع يده عليّ: صفعة مهينة هزّتني بغتة.

ورغم حالتي المتوعكة، قررتُ ألّا أستسلم ورفعت يدي لأردّ له الصفعة. لكن ليس بالسرعة الكافية. أصابتني لكمة ماكرة في كبدي تماماً، تبعَتها ضربة بالركبة قطعَت أنفاسي وطرحتني أرضاً. وداس نعلٌ على عنقي. وأنا غير قادر على النهوض، تلقّيت ضرباً مبرحاً: وابلٌ من الركلات، والبصاق، والشتائم. وظهر فجأة نصل سكين من

غمده واستقر على حنجرتي. بعينين دامعتين وغيظ مكبوت، لم يسَعني إلّا تركهم يسلبوني. أخذوا كلّ شيء: محفظتي، نقودي، جواز سفري، حزامي، سترتي ولا سيما ساعة جدي القديمة تانك.

استمر العذاب أقل من دقيقتين. وحين دخل القطار المحطة، ولّى السوقيون الثلاثة الأدبار، وتركوني وحيداً في العربة مع المتشرد، اللامبالي بمصيري.

وأنا راقدٌ على الأرض، رحتُ ألهث مثل كلب، محاولاً استعادة صفاء ذهني. كنت أشعر بالألم في أنحاء جسدي. كان قوسا حاجبيّ مضرجين بالدم، وشفتي العليا مشقوقة وأجفاني متورمة.

لم يكن أفضل استيقاظاتي...

مرّرتُ محطة جديدة قبل أن أستعيد قوتي لأنهض كي أجلس على مقعد. ألقيتُ نظرة خاطفة على خطّ السير الملصق في الأعلى. كنتُ على الخط الأزرق، أيّ خط المترو أ، الأطول في شبكة نيويورك، الذي يربط كوينز بالطرف الشمالي لمانهاتن. كان القذرون الثلاثة قد نزلوا في الشارع 125 ونحن نعبر الآن الشارع 116. حين فُتِحَتْ الأبواب من جديد، جرجرتُ نفسي إلى رصيف محطة كاتدرائية باركوي. كان الموقف شبه خالٍ. قفزتُ فوق باب صغير وتسلّقت الدرج الذي يفضي إلى الشارع 110. كنتُ على بُعد بضع بيوت فقط من شقة إليزابيث آيمس! الأمر أكبر من أن يكون مصادفة.

كان الطقس بارداً ولم يزل الليل مخيماً. على الرصيف، انهمكَ موزّع جرائد في تعبئة آلة التوزيع. سألته عن الساعة -إنها تقارب السادسة صباحاً- ونظرتُ إلى تاريخ اليوم على الصحيفة اليومية. نحن في الخامس من نوفمبر عام 1995. ومانشيت عريض يغطي الصفحة الأولى:

اغتيال إسحق رابين في تل أبيب
في أثناء مظاهرة من أجل السلام.

تصفحتُ المقال بسرعة. رئيس الوزراء الإسرائيلي أصيب برصاصتين في ظهره أطلقهما مناضل من اليمين المتطرف معارِض لاتفاق أوسلو. نُقِلَ رابين إلى المشفى، لكنه توفي بعد ساعات قليلة. كانت لهجة المقال متشائمة بالنسبة إلى مستقبل عملية السلام.

فهي أصعب من أن تستمر...

2.

بعد أن تحقّقتُ من الاسم على صندوق البريد، قرعتُ جرس باب شقة ليزا.

كانت المرأة الشابة التي فتحت لي الباب مشرقة ومذهلة. تركتها في سبات، نصف محتضرة على سرير المشفى؛ ووجدتها مرحة، نضرة ومنشرحة. في يدها فرشاة أسنان، ترتدي قميصاً رجّالياً وسروالاً قصيراً بسيطاً لا يخفي شيئاً من جمال ساقيها.

- ما أروع أن أراك! استقبلتني وكأن بيننا معرفة قديمة.

كانت تفوح في الشقة رائحة قهوة زكية.

- لكنك مضروب بوحشية! هتفت وهي ترى وجهي المتورم.

- تعرّضتُ لضرب مبرح في المترو. ثلاثة قذرين سلبوا مني كلّ شيء.

- أوه لا لا! اتبعني، سأطهّر لك كلّ هذا.

رافقتها إلى الحمام، يتبعني عن قرب الهرّ ريمنغتون ويحاول أن يتمسّح بساقيّ.

وبقطن مشبع بالكحول، نظَّفَتْ خط الدم الذي سال على امتداد

جبيني. وبينما هي تقوم بدور الممرضة، استنشقتُ رائحتها، وقد فتنتني آلاف التدرجات الشقراء في شعرها وحركات نهديها الصغيرين المتقافزين تحت قميصها على إيقاع فركها.

- أخبرني سوليفان بأنك سافرت إلى رواندا مع أطباء بلا حدود. رهيب، ما يحدث هناك.

قطَّبت حاجبيّ، لكنني فضلتُ ألّا أعارضها قبل أن أعرف المزيد.

- ومتى عدتَ؟

- أوه. . . آه حسن، هذه الليلة.

- يسرني أنك أتيتَ لرؤيتي، قالت وهي ترمي بِقطَع القطن في سلة المهملات. أريد أن أشكرك على إنقاذك حياتي وعلى رسالتك أيضاً.

لم أستطِعْ إخفاء دهشتي.

- سوليفان أعطاكِ رسالتي؟

- أجل، بالتأكيد، أجابت وهي ترفع عينيها الصافيتين نحوي. لقد أراحتني وغالباً ما أعيد قراءتها.

كان أثر معجون أسنان على زاوية فمها. ولبرهة، أربكني الضوء وبريق وجهها، فخلتُ نفسي أضع شفتيّ على شفتيها.

- اسمع، استأنَفَتْ وهي تمضي إلى غرفَتها لتستعدّ، لدي نهار عمل حافل اليوم: حصصي في جوليارد، ثم صور فوتوغرافية وتوزيع فني لصالح كالفن كلاين، ولكن يمكننا أن نلتقي هذا المساء إن شئت؟

- أجل. . . موافق.

تركَتْ الباب مفتوحاً. ومن خلال انعكاس المرايا، لمحتُ

قوامها الممشوق والعاري. من الواضح أن الحياء لم يكن يقيّد الآنسة آيمس، وبتأثير ازدواجيتها الغريبة، جعلتني «جرأتها» أغار من نفسي.

- هل تعرف ما أودّ تناوله على العشاء؟ شريحة لحم البط بالعسل! تلمّظت وهي تخرج فجأة إلى الممر، حاملةً حقيبة يدها ومعتمرة قبعة صوفية.

- أووه. . .

- كم أحبّ أن تطبخ لي! قالت وهي تعقد وشاحها. هل نلتقي هنا في الساعة الثامنة مساءً؟

- موافق.

- سأترك نسخة من المفاتيح تحت الممسحة. وسيكون لطفٌ منك لو أطعمتَ الهر وأغلقتَ الباب خلفك.

- سأ. . . سأفعل ذلك.

- إلى اللقاء هذا المساء، إذاً! قالت وهي ترميني بقبلة من يدها.

ثم توارت بسرعة في السلم.

مجرد كلام، بطبيعة الحال. . .

بقيتُ وحدي في الشقة، مذهولاً ومبهوراً من مفاجأة هذا اللقاء ومن تتابع حالتين متناقضين عشتهما منذ قليل. فخلال بضع دقائق، انتقلتُ من العنف البارد والرمادي في المترو إلى الشقرة الحارة لهذه الفتاة غير المتوقعة.

كأنني في بيتي، فتحت الخزانة الجدارية لآخذ كيس طعام القطط.

- إنها قنبلة ذرية، صاحبتكَ، هل تعرف ذلك؟ سألتُ ريمنغتون. هل في حياتها رجل الآن؟

أجابني بمواء لم أستطِعْ فك رموزه.

صببتُ قهوة وأنا أفتح المذياع وتسكّعت لبرهة في البيت. وحين دخلتُ غرفة ليزا وجدتُ الرسالة التي كتبتُها لها قبل أكثر من عام. كانت مثبتة بمسامير وسط لوح من الفلين، وقد مُزّقت إلى أربع قطع، ثم ألصقت بشريط لاصق.

مشفى بلفيو
10 مايو 1994

عزيزتي ليزا،

أعرف أنّ كل واحدٍ منّا لا يعرف الآخر حقّ المعرفة، ومع ذلك وضَعَتنا الحياة مرتين على الطريق عينه.

في المرة الأولى، رشقتِني بكأس من المياه الغازية في وجهي بعد أن شتمتِني. ولكنكِ بعد بضع ساعات، تجرأتِ على مساعدتي في تهريب جدي. ومع أنك تدّعين أنّ دافعك الوحيد كان مالياً، لكنه يروق لي أن أظن بأنك فعلتِ ذلك لأن هذه القصة تمسّك.

والمرة الثانية، كانت الليلة الماضية. وفي هذه المرة، ليس كأساً ما رشقتِه في وجهي. إنما صورة مرعبة. معصمان مقطّعا الشرايين، ومعدة متخمة بالأدوية، وكنت تنزفين دمكِ في المغطس.

لا تتأمّلي مني أن أعتذر لأنني أحبَطْتُ مشاريعك، مع أنني أتخيل أنك عانيتِ كثيراً حتى وصلتِ إلى مثل هذه النهايات.

لن ألعب دور الواعظ. أعرف أننا جميعاً نحمل في داخلنا

قنبلة بجانب قلبنا. البعض لا يجرؤون البتة على نزع صمّام أمانها، وآخرون يجازفون ويعرّضون أنفسهم للخطر. وهذا التحريك لمَواطن الضعف خليقٌ بإحداث زلزال يدمّر حياتهم.

في المشفى، أرى كلّ يوم مرضى يصارعون بكلّ قواهم أمراضاً تنخرهم. أناسٌ يتعلّقون بالحياة، ويهبون أيّ شيء ليعيشوا بضعة أيام إضافية. لكلّ واحدٍ منهم أسبابه ليتابع كفاحه، وكلّ واحد يحدّد لنفسه هدفاً: أن يرى ولادة حفيد، أن يبقى حتى حلول الربيع ليرى مرة أخرى إزهار أشجار الكرز، أن يأمل بمصالحة في آخر لحظة مع شخص يحبه، ولكنه جَرَحه. أحياناً، يفوز. لكن الحياة غالباً ما تكون قاسية فيموت.

أعرف أنّ الحب قد يقتل. وأعرف أنّ العواطف قاتلة. لكنني أقدِّر الحياة تقديراً فائقاً يمنعني من تأييد أيّ بادرة قد تؤدّي لإنهائها، حتى عندما يبدو الأفق مسدوداً.

اعتنِ بنفسكِ يا ليزا،

تشبّثي بالحياة.

وقولي لنفسك إنّ الأحوال تتغير بسرعة.

آرثر

3.

كانت الساعة تقارب الحادية عشرة صباحاً حين وصلتُ أمام باب منزل سوليفان. أخذتُ وقتي عند ليزا: استحممت، واستعدت قواي بالتهام نصف علبة كورن بوبس، ونبّشتُ خزانة ملابسها بحثاً عن ثياب يمكن أن تحلّ محل سترتي. اللباس الوحيد الذي وجدته على مقاسي هو معطف وردي زاهٍ يعطيني هيئة مغفّل: هيئة رجل نبيل

مثل تمثال ميشلان وقد سقط في إناء طلاء بلون التوت البري. ودون أن يكون معي دولارٌ واحدٌ في جيبي، أخذتُ خطّ المترو رقم واحد كمسافر متخفٍّ. مسافة لا تنتهي للذهاب من مورنينغسايد هايتس إلى كريستوفر ستريت-شريدان سكوير.

- افتح يا سوليفان! صرختُ وأنا أطرقُ الباب بالمطرقة ذات رأس الأسد.

لم أتلقَّ أيّ ردّ، ما عدا ردّ أقرب جاراته الواقفة على النافذة:

- ألم تنتهِ من الصراخ؟

- اعذريني، سيدتي. أبحث عن جدي. أليس في بيته؟

- سمعته يخرج منذ ساعة. غالباً ما يذهب إلى الحديقة العامة صباحاً.

شكرتها واتّجهت بدوري إلى حديقة واشنطن سكوير. تسكّعت عدة دقائق حول قوس الرخام، ثم النافورة ومقاعد الرواد الحديدية دون أن أفلح في رؤية سوليفان.

وجدته أخيراً في الجزء الخلفي من الحديقة، في منطقة مُحاطة بشجيرات تظلّل لاعبي شطرنج. وهو متدثّر بسترة سميكة ويحمي رأسه بقبعة من الجوخ، كان يجلس وراء طاولة حجرية، ويخوض مباراة سريعة باستخدام ميقاتية برهان خمسة دولارات مع طالب آسيوي.

- دعني أنهي مباراتي يا ولد، قال وهو يخمّن حضوري دون أن يرفع بصره نحوي.

اقتربتُ بغضبٍ من رقعة الشطرنج، وقلبتها بحركة قوية على الأرض، مبعثراً القطع. استغلّ الطالب البلبلة ليختطف ورقتين نقديتين من على الطاولة وتوارى بفطنة.

- لقد خسَّرتني خمسة دولارات، تنهّد جدي وهو ينظر إليّ أخيراً.

- لا يهمّني، أجبتُ وأنا أجلس قبالته.

أضاءت وجهه ابتسامة خفيفة.

- لا بأس به، معطفك... يليق بك، اللون الوردي.

هذه المرة، اكتفيتُ بتوجيه إصبعي الوسطى نحوه لإهانته.

- أنا أيضاً، يسرني أن أراك، ردَّ سوليفان وهو يحكّ لحيته.

حاولتُ أن أستردّ هدوئي.

- استيقظتُ في المترو الساعة الخامسة صباحاً، وتعرّضت للسلب، سرقوا جميع أوراقي، وساعتي و...

- ساعتي، قاطعني.

- هل تريدني أن ألكمك؟

- إذاً لم يعُد بوسعنا أن نمزح...

رفع يده ليلفت انتباه بائع متجوّل يدفع عربة كعك مملّح وطلب منه فنجانَي قهوة.

- هذه إحدى الرحلات السيئة، شرح وهو يقدِّم لي أحد الفنجانين. المكان الذي ستستيقظ فيه هو دوماً مفاجأة سارة أو مزعجة. ذات صباح في مترو، وذات صباح آخر، في سرير جين روسيل...

- جين روسيل؟ إنها تقارب الثمانين عاماً اليوم...

- أنا متأكّد أنها لم تزل جميلة جداً.

هززت كتفيَّ بتعب.

- حسنٌ، سنتحدث عن هذا الأمر في مرة أخرى، إن كنتَ لا تمانع. ما أريده الآن، هو الإجابات.

- ما سؤالك؟

- لدي أسئلة عديدة. وأولها هو: ماذا فعلتَ خلال الأربع وعشرين سنة التي استغرقتها رحلتك المديدة؟ ماذا فعلت بين عامي 1954 و1978؟

.4

نفخ سوليفان في يديه ليدفئهما وقطّب حاجبيه.

- في آخر مرة تحدثنا فيها أنا وأنت، أين أوقفتُ حكايتي؟

- في عام 1956. كنتَ قد استيقظتَ في المقعد الخلفي لسيارة أجرة، بجانب امرأة.

هزّ رأسه، وفتش جيب سترته الداخلي ليسحب منه محفظته وأخرج منها صورة مصفرّة ومدعوكة.

- كانت هذه المرأة تُدعى سارة ستيوارت. في السادسة والعشرين من عمرها. وقد أنهت دراسة الطب وتعمل كخبيرة أوبئة في مكاتب منظمة الصحة العالمية في نيويورك.

ناولني صورة امرأة شابة ترتدي قميصاً أبيض وجالسة فيما يبدو أنه مختبر طبي. وجه مشرق، أنف جميل مدبّب، نظرة براقة تخفي خصلة شعر نصفها على طريقة فيرونيكا لاكي: كانت ساحرة، ذات هيئة تشي بشخصية واثقة.

- الكلام بيننا، صعقني حبّها من أول نظرة، عنيفاً ومطلقاً: انجذاب جسدي وعقلي متبادل لم أعرفه في حياتي قط. تعرّفت إليها في عام 1956، ثم بحثتُ للقائها في عام 1957. وفي العام الثالث، في عام 1958، اعترفتُ لها بحقيقة حالتي.

اختطفَ لفافة التبغ من وراء أذنه وأشعلها بقداحة زيبّو.

- قدرٌ أحمقٌ، أليس كذلك؟ تأسَّفَ. جمعني أخيراً بتوأم روحي، لكن في وضع يستحيل أن أحبّه فيه.

- وبعد، ماذا فعلت؟

- مع ذلك، تبادلنا الحب.

نفثَ دفعة من الدخان جمّدها البرد لثوانٍ في الهواء قبل أن تتبدّد.

- رغم كلّ المعوقات، تبادلتُ أنا وسارة الحبّ لأكثر من عشرين سنة. وفي عام 1965، حالفنا الحظ ورُزقنا بطفلة: صغيرتنا آنّا.

ملاكٌ مرّ في سماء الحديقة. وبعينين لامعتين، راح سوليفان يحدّق من فوق كتفي بأطفال يلعبون حول لعبة تزحلق. وحين امتدّ الصمت، سألته:

- كيف يمكننا أن نحافظ على علاقة مع شخص لا نراه إلّا يوماً في السنة؟

- لا أقول لكَ إنّ الأمر كان سهلاً، على العكس، كان جحيماً وموجعاً: لي، ولها، ولابنتنا. كان جحيماً وفي الوقت نفسه ساحراً. كانت سارة هي تلك المرأة التي أنتظرها. المرأة التي بحثتُ عنها دون أن أجدها منذ كنتُ في عمر الحب.

حككتُ رأسي مرتاباً.

- وهي؟ كيف قبلت أن تعيش وضعاً كهذا؟

- لنقُل أنها تأقلمت. كانت سارة امرأة حرّة، مستقلة، ولا تميل للشغف: ذات نزعة نسوية لا تراودها أية رغبة في التورّط بزوج.

وصلت لفافة تبغه إلى نهايتها، فسحب أخرى من علبته وأشعلها من عقب اللفافة السابقة.

- كانت سارة أيضاً مناضلة. كانت ضمن مجموعة تضمّ نحو عشرين طبيبة، تُدعى الموجة الجماعية، زاولت عمليات الإجهاض السري في أنحاء البلاد عام 1960. كنت معجَباً بالتزامها. ذاك كان زمناً آخر: كانت الكثير من النساء الضعيفات يرين حياتهن تُدَمَّر بسبب حمل غير مرغوب فيه.

من جديد، سحبَ نفساً طويلاً من لفافته وهو يراقب الأطفال ورائي. وعيناه شاردتان، ومفعمتان بالحنين، أسرّ لي:

- مرّت تلك الأربع وعشرين سنة كطرفة عين. ربع قرن اخْتُزِلَ في أيام كانت الأهم في حياتي. كنتُ سعيداً. رغم قسوة ألّا أراهما إلّا يوماً واحداً في السنة، جعلتني سارة وآنّا أكثر حيويةً من أيّ وقت مضى.

- لماذا تتحدّث عن هذا الأمر دوماً بصيغة الماضي؟

رأيتُ ملامح وجهه تتلبّد فجأة. اختنق صوته وقد غلبه الانفعال:

- لأنهما ماتتا.

5.

هبّت الريح فجأة، كَنَسَت الساحة الصغيرة، وأثارت سحباً من الغبار وبعثرت أكواماً من أوراق الأشجار المتساقطة التي جمعها عمال الحدائق للتو.

ترك سوليفان الطاولة الإسمنتية. وبينما رحتُ ألتقط أحجار الشطرنج المبعثرة على الأرض لأضعها في علبتها، شاهدته يعبُر الحديقة بمشية آلية.

- هيه! انتظرني، تباً!

قررتُ أن أتعقّبه من بعيد.

ظننتُ أنه ذاهب إلى بيته، ولكنه بدلَ أن يسلك شارع ماكدوغال نحو الشمال، اجتاز جادة ذي أميركاز وتوغّل في كورنيليا ستريت، وهو شارع ضيق كمعظم شوارع غرينويتش فيلاج، تحفّ به أشجارٌ عارية تحرس أبنية الآجر والمطاعم الصغيرة.

حين وصل إلى تقاطع بليكر ستريت، دفع سوليفان باب حانة كورنيليا أويستر، وهي حانةُ طاولة شرابها من الأصداف وأعرف مثلها العشرات في إنجلترا الجديدة، لكنها نادرة في مانهاتن.

تبعته حتى المطعم. حينما دخلتُ إلى الصالة، رأيته جالساً إلى طاولة صغيرة. ورآني هو أيضاً، وبحركة من يده، دعاني إلى الجلوس بجانبه.

- أنا آسف، قلت.

هزّ كتفيه.

- ليس لكَ يد في هذا، يا ولد. لسوء الحظ، دورك اليوم لتكون ضحية هذه القذارة.

بعد أن استغرقَ في قراءة قائمة الطعام، طلب بلا استشارتي، طبقَ محار كبير وزجاجة نبيذ فاخر.

صبَّ لنا النادل بمهارة كأسي نبيذ أبيض من وراء البار. شرب سوليفان كأسه بجرعة واحدة وطلب أن يملأه له ثانية. انتظرته أن يشرب جرعة جديدة حتى أسأله:

- ماذا يحدث بعد الرحلة الرابعة والعشرين؟

تفرّس في وجهي بهيئة مستسلمة.

- أفضل الأشياء وأسوءها.

وُضِعَ أمامنا طبق فيه تشكيلة من المحار المسطّح والمجوّف. عصرَ سوليفان نصف ليمونة على القواقع. وشَرَقَ إحدى الرخويات، ثم راح يفسّر:

- الأفضل أولاً: يستأنف الزمن جريانه الطبيعي. لن تعود تقفز من عام إلى آخر. تستعيد مكانك في العالم، كالسابق تماماً. هذا هو الخبر السار، قال وهو يلتقط محارة.

جعلني أنتظر.

- والسيئ؟ استعجلته.

- هل تتذكر الصفيحة النحاسية في قبو المنارة؟

- تلك التي عليها كتابة لاتينية؟

هزّ رأسه.

- بعد هبوب الأربع وعشرين ريحاً، لن يبقى شيء أبداً، أنشَدَ. بعد هبوب الأربع وعشرين ريحاً، لن يبقى شيء.

- وإذاً؟

- عندئذٍ تحل لعنة المنارة الحقيقية: يحدث كلّ شيء كأنك لم تعِشْ تلك السنوات إلّا في ذهنك. لن يتذكّرك أحد ممّن صادفتهم. وكلّ ما بنيته خلال السنوات الأربع والعشرين سيتلاشى.

أدركَ أنني لم أفهم. فشرح بدقّة:

- بعد رحلتي الرابعة والعشرين، استيقظتُ عام 1978. جغرافياً، عدتُ إلى نقطة البداية: إلى الحجرة الصغيرة في قبو المنارة.

- باستثناء أنّ هذه الحجرة كانت مسدودة بجدار، قاطعته.

وافَق.

- استغرقتُ لبرهة حتى استوعبت أين أنا وظننتُ فعلاً أنني

سأبقى فيها. ولحسن الحظ، كانت توجد أدوات، وكانت الأرض رخوة ورطبة. أمسكتُ معولاً وبدأت أحفر. لا أعرف مدة الزمن الذي استغرقته في الحفر، ربما عشر ساعات، لكنني نجحت في الخروج من المنارة. اغتسلتُ بماء البئر وسرقت دراجة أقرب جار وتوجّهت إلى محطة بورن، واستقليتُ أول قطار إلى نيويورك.

وضع شوكة القواقع وأخذ استراحة جديدة. يبدو أنه كان يشقّ عليه ويؤلمه استرجاع هذه الذكريات.

- في تلك الفترة، كانت مكاتب نيويورك التابعة لمنظمة الصحة العالمية موجودة في حي تورتل باي، قرب مقر الأمم المتحدة. كانت الساعة السابعة مساءً. انتظرتُ أن تخرج سارة من المبنى، ولكنها بدل أن ترتمي بين ذراعيّ، كما تفعل في كلّ مرة نلتقي فيها، نظرت إليّ كأنني شخص مجهول تماماً.

زاغَ نظر سوليفان. وتغيَّرت نبرة صوته.

- ابتدرتُها الحديث، لكن سارة تابعَت طريقها، واجمة الوجه، زاعمةً أنها لا تعرفني. أربَكَني ذلك، لأنني رأيتُ في عينيها أنها لا تكذب. ألححتُ، وحدّثتها عن آنّا، ابنتنا، وعن كلّ ما عشناه منذ سنوات طويلة. في تلك اللحظة، أظنّ أن سارة أشفقت عليّ، لأنها توقفت على الرصيف ورضيت أن تكلمني. لكن ليس كحبيب. وإنما كمختل...

اعتصر قبضته فوق الطاولة.

- أرَتني الصور التي تحملها في محفظتها. لقطات لزوجها، وهو طبيب أميركي من أصول أفريقية، ولأولادها، توأمان جميلان خلاسيان في العاشرة من عمرهما تقريباً. كنتُ مصعوقاً، يجتاحني الغضب بقدر ما يغمرني الحزن.

أمسكَني من كتفي، وهزّني وأخذ يصرخ:

- لم أستطِعْ تقبل ذلك، أتفهم؟ حاولتُ أن أشرح لسارة أنّ كلّ هذا مزيف. تملَّكَها الخوف. هربَتْ، لكنني أمسكتها. ثبتّها بذراعي كي تصغي إلي. أخبرتها أنني أحبها وأنني سأجد آنّا. زعقَتْ، وقاومت. وحتى تهرب مني، أخذَت تركض واجتازت الشارع... سيارة قادمة في الاتجاه المعاكس صدمتها صدمة عنيفة. وسارة... سارة ماتت على الفور. بسببي...

راح سوليفان يبكي الآن. أخذَت دموع غزيرة تسيل على وجنتيه وتسقط في قواقع المحار. شهق وجسده يرتجف من الحزن:

- لا أتذكر ما حدث بعد ذلك. لم أحتمل صدمة أنني قتلتُ المرأة التي أحبّها فأصابني الجنون. وحين استعدتُ وعيي، كنت معزولاً في مشفى بلاكويل، مرتدياً سترة المجانين، وقد أرهقتني العقاقير.

ناولتُ جدي كأس ماء بارد وضعوه أمامنا لدى وصولنا، لكنه تجاهل مبادرتي، وفَضَّلَ أن يشرب نبيذه. وحين أفرغ كأسه، أمسك ذراعي من جديد.

- اعتبِرْ أنّ ما ستبنيه في العشرين سنة القادمة ليس إلّا قصراً رملياً ستهدمه الأمواج بلا رحمة.

- ألهذا السبب مزّقتَ رسالتي إلى ليزا؟

أيّدني.

- اتخذْتُ القرار الصائب. لكنني أعطيتها لها أخيراً، لأن معنوياتها كانت منهارة، ولأنني اعتقدتُ أن ذلك سيحسّن حالتها. ضعفٌ من جانبي لن يتكرَّر.

أخذت يداه ترتعشان. حدَّق في عينيَّ.

- بالنسبة إلى مصيبتك، لقد اختطفتك هذا الدوامة الجهنمية. فلا ترتكب الأخطاء التي ارتكبتها أنا، يا ولد! لا تورِّط الآخرين في سقوطك!

- ربما لن يكرِّر التاريخ ذاته، حاولتُ كأنما أقنع نفسي.

عندها نهض سوليفان، ركَّز قبعته وقال لي بنبرة باردة:

- صدقني، سيكون الأمر مشابهاً. أنتَ تُصارع القدر. إنها معركة بأسلحة غير متكافئة وخاسرة سلفاً.

6.

الساعة 19

كان المطر يهطل مدراراً على نيويورك.

اجتزتُ جادّة أمستردام وأنا أحمل بذراعي كيسَي مؤونة وأضع سترتي على رأسي لأحتمي من الطوفان. وعند الشارع 109، توغّلتُ في بهو المبنى الذي تعيش فيه ليزا. صعدتُ السلالم حتى الطابق الأخير، وجدتُ المفتاح تحت الممسحة ودخلتُ الشقة التي بدأت تصبح مألوفة لدي.

- مرحباً، ريمنغتون.

أضأتُ مصباح المدخل، ووضعتُ أغراضي في المطبخ. لن تعود ليزا قبل ساعة. وهذا سيمنحني الوقت لتحضير الوجبة التي وعَدتهُا بها.

بعد بوح سوليفان، رافقته في النهاية إلى منزله. غيرتُ ملابسي، وحصلتُ على بعض المال، وبناءً على نصائح جدي، أمضيتُ ساعة عند «ستان لو كوبيست»، وهو مزوّر في حي الألفابيت سيتي، لالتقاط صورة ضرورية لتزوير جواز سفر عوضاً عن الجواز الذي سُرق مني.

ثم تسكّعت في مانهاتن، وأنا متشائم. شعرت بوحدة قاتلة. إذا كان صحيحاً ما رواه لي سوليفان، فليس لدي مستقبل ولا أمل. أفقي مسدودٌ. لقد حُكِمَ عليّ أن أكون دمية تُحرّكها أصابع ستَبتُر مني في ثلاثة أسابيع قصيرة أجمل سنوات عمري.

وحتى لا أكتئب، قرّرت التعلّق بأشياء بسيطة. اشتريتُ كتاباً عن الطبخ من مكتبة في سوهو وذهبتُ عند متجر دين وديلوكا كي أملأ ثلاجة ليزا بالمؤن.

- عندي مفاجأة لكَ، أيها الهر! أعلنتُ وأنا أُخرج طعاماً معلّباً من الكيس.

قدمتُ للهر ثلاث ملاعق من لحم السمك، ثم وضعتُ بقية المؤن على الطاولة: حبتان من أناناس فيكتوريا، قرن فانيل، عود قرفة، ليمونتان خضراوان، وبضع نجمات باديان، شرحة لحم بط، بطاطس، علبة عسل، كرّاث، رأس ثوم، وباقة بقدونس.

نظرتُ إلى كلّ هذه المكوّنات بنوع من التوجّس. فأنا طفل المايكروويف والسلطات الجاهزة. عبثاً فكرت، فأنا لم أطبخ في حياتي قط. فتحتُ وصفة كتاب الطبخ الأولى على صفحة «فيليه البط والبطاطس المقلية» والثانية على صفحة «كوكتيل الأناناس». ولمدة ساعة، انهمكتُ في تحضير أفضل ما لدي. شغلتُ المذياع ورحتُ أستمعُ إليه بلهفة بحثاً عن مقتطفات آخر أخبار الساعة التي فاتتني (اعتداء مدمّر في مدينة أوكلاهوما، براءة غير متوقّعة لأو. جي. سيمبسون، إخفاق بيل كلينتون في إصلاح النظام الصحي. . .).

وأنا أتنقّل من محطة إذاعية إلى أخرى، صادفتُ أيضاً أغاني رائجة الآن، واكتشفتُ فرقاً مجهولة (فرقة أوازيس تغني مهما كان)،

وكذلك أغانٍ جديدة لفنانين أحبهم (**شوارع فيلادلفيا** لبروس سبرينغستين، و**آمال محلقة** لبينك فلويد. . .).

- ما أزكى الرائحة هنا! هتفَت ليزا وهي تدفع الباب.

داعبَت رأس ريمنغتون وجاءت إلى المطبخ. وهي تقطر من المطر، خلعت وشاحها ومعطفها ووضعتهما على كرسي.

بابتسامة تعلو شفتيها، وعينين مغرمتين وصوت فرح، سردت لي نهارها وأنا أطهو البط بالعسل.

كأنني كنتُ جزءاً من حياتها منذ الأزل.

لا أعرفُ بالضبط ما رواه لها سوليفان بشأني، لكنه أكسَبَني نقاطاً. كانت خفّة ليزا وشبابها وطيشها يسرون كالنار في الهشيم. وقد كفاني بضع دقائق من حضورها لأنحّي همومي جانباً وأستسلم للحظتي الراهنة.

راقصة ومتألقة، دارت ليزا حتى الحمام لتعود إلى الصالون ومنشفة على رأسها.

- استأجرتُ شريط فيديو من نادي الفيديو، قالت وهي تُخرج من حقيبتها شريطاً: **أربع زيجات وجنازة**. يمكننا مشاهدته ونحن نأكل إن شئتَ؟ يبدو مضحكاً.

وبينما هي تفرك شعرها، لاحظت بؤبؤي عينيها يحدّقان فيّ: بريقان ألماسيان يتلألآن في غبش الحجرة. اقتربَت مني، وبحركة سريعة ومفاجئة، وضعت يدها على خدي. أبعدتُ خصلات شعرها الرطبة التي تظلّل وجهها. وجدَت شفتاي شفتيها. نزعتُ حزامي؛ وفككتُ أزرار قميصها الطويل. كانت بشرتها بضّة، وارتعاشات تسري في نهديها.

- تعالَ. . .

أصبحتْ أكثر اتقاداً، فقلبنا عناقنا على الأريكة وطال بينما راح طبق شرائح البط بالعسل يحترق في المطبخ.

.7

منذ ثلاثة أرباع الساعة، وأنا أتقلب في السرير محاولاً بلا نجاح أن أضبط أنفاسي على إيقاع أنفاس ليزا الهادئة النائمة بجانبي.

لم أزل هنا.

كانت الساعةِ الرقمية للمنبّه تشير إلى الساعة 6:32.

ولم أزل هنا!

ليلة أمس، استيقظتُ في عربة مترو عند الساعة 5:45. لقد تخطيتُ إذاً حاجز الأربع وعشرين ساعة بمرح!

نهضتُ في الليل، ولبستُ بنطالاً، وغطيت كتف المرأة الشابة وخرجت من الغرفة بخطوات هادئة.

كان ريمنغتون ينتظرني وراء الباب.

كان المطبخ جامداً بسبب البرد القارس. تحقّقت من الساعة على المايكروويف وأنا أسخّن فنجاناً من القهوة. في الخارج، كانت العاصفة تزمجر، وتغطي زجاج النافذة بستارة شفّافة.

فتحتُ النافذة واتكأتُ على حافتها لأشاهد انبلاج الفجر. كان المطر يهطل مدراراً. السماء مكفهرة والأفق ضبابي.

أخذ المطر يسوط وجهي. وعند تقاطع الشارع 110 وجادة أمستردام، رأيت بائع هوت دوغ يجرّ عربته تحت زخّات المطر. وفجأة، قفزت الصورة وتشوّشت. ذباب مزعج غشى بصري: بقع داكنة تتطاير أمام عينيّ.

تسارعَت دقات قلبي حين ميزتها وهي تتصاعد من الطريق، تلك

الرائحة العطرية والمحلاة لفطائر بزهر البرتقال كانت أمي تعدّها لي وأنا طفل.

جعلتني صاعقة كهربائية أرتعد.

أفلتُّ فنجان قهوتي فانكسر على الأرض.

ماءَ ريمنغتون مواءً غاضباً.

ثم تخدّر جسدي قبل أن يعطيني شعوراً بالتلاشي.

حتى ذبتُ.

القسم الثالث

الرجل الذي يختفي

1996
شكسبير في المنتزه

التجربة ليست ما يحدث للإنسان، بل ما يفعله الإنسان حيال ما يحدث له.

ألدوس هكسلي

.0

جو دَبِق وخانق.

روائح طبخ مقرفة وقلي وجلي.

جذعي عارٍ، مستلقٍ على أرض فاترة، في مكان غارق بالضوء. أشمّ رائحة العرق الذي يسيل في رقبتي وتحت إبطيّ. وبسبب الضوء المبهر، عيناي تدمعان، كأن أحداً يُشَرّح بصلاً على بُعد سنتيمترات مني.

أطرد بحركة من يدي الذباب الذي يحوم حول وجهي. أبدأ بتمييز اللازمة: جفنان منتفخان، وجسدٌ متصلّب ومتيبّس بسبب الشدّ العضلي، وصداع نصفي يُدَوِّمُ في رأسي، وطنينٌ في أذني، وإحساسٌ مزعج بأنّ ساقيّ منشورتان بمنشار...

أفتح عينيّ وأبحث عن نقاط استناد إلى البلاط الملطّخ بالدهون. وحين وقفتُ، أمسكت رائحة ملفوف زنخة بتلاليبي.

أنا وحيد... في حجرة كبيرة مستطيلة تسحقني شمس حارقة.

.1

مسحتُ بساعدي العرق المتصبّب على وجهي. من حولي، مواقد طبخ، مجلى عملاق بستة أحواض، طاولة شراب مدبّبة الحواف، مقلاة كبيرة، حلل بسِعَة مئة لتر، سلسلة أفران كهربائية، شوّاية، نقال آلي محاذي للجدران، خزائن ضدّ الصدأ؛ وفي السقف، شفّاطات مطبخ كبيرة.

واضحٌ أنني في مطبخ مركزي. نوع من المطابخ الجماعية نجدها في المدارس والمصانع، وفي المطاعم الكبيرة.

ماذا أفعل هنا، بحق الجحيم؟

ثمة منبّه بلاستيكي قديم على أحد الرفوف يشير إلى الساعة الواحدة بعد الظهر.

جرجرتُ نفسي حتى النافذة، فتحتها لأُدخل القليل من الهواء النقي وأشاهد المنظر. هذا مؤكد: هذه المرة، لم أكن في مانهاتن. على مدّ النظر، لم أرَ سوى هنغارات، ومستودعات، ومداخن مصانع. كنتُ في قلب مدينة صناعية، يحيط بها من بعيد طريق عام ومجرى ماء. فتحتُ النافذة الثانية في الجدار المقابل. ميزتُ أخيراً ناطحة السحاب في مانهاتن. وأنا أمعن النظر، خمنتُ ظلّ ناطحة السحاب إمباير ستيت، وقبة مبنى كرايسلر، والهيكل المعدني لجسر كوينزبورو.

فكرتُ لبرهة. أظنني أعرف الآن أين أنا: جنوب برونكس.

بالتأكيد على شبه جزيرة هانتس بوينت، حيث توجد جميع أسواق الجملة في نيويورك: فواكه، خضار، ولحوم.

استدرتُ واتجهتُ نحو مخرج الحجرة الوحيد: باب الحريق من حديد الزنك الذي يظل. . . مقفولاً.

- هيه! أوه! هل من أحد؟

لا جواب.

بحثتُ عن مطفأة حريق لأستخدمها كمطرقة، ولكنني لم أجد.

«اسحب في حال نشوب حريق»

أوحَت لي عبارة إنذار الحريق بفكرة. أنزلتُ القاطع اليدوي، ولكن لم يحدث شيء: لا صفارة إنذار ولا مؤشّر ضوئي.

عدتُ نحو النوافذ مغتاظاً. كنت على ارتفاع نحو عشرين متراً. من المستحيل أن آمل بالخروج من هنا دون أن يُدَقَّ عنقي.

ورغم تيار الهواء، كانت الحرارة خانقة في الحجرة، أما في الخارج، فكان الهواء الملوّث يعبق برائحة أسمدة كيماوية قوية. إلى الغرب من نهر برونكس، أراضٍ مسيجة وأرصفة شحن تمتدّ على مسافة كيلومترات. بضع سيارات شاحنة تدور ذهاباً وإياباً على تحويلة الطريق العام، لكن المنطقة ليست زاخرة بالنشاط.

لم أرَ حولي سوى مرآب سيارات فارغ ونوافذ أبنية خالية. كنت مستعداً للمراهنة على أننا في عطلة نهاية الأسبوع.

حظٌّ عاثر. . .

- هيه! أوه! هيه! أوه! صرخت بأعلى صوتي.

لا جدوى. أدركتُ بالتدريج أنه لا يمكن لأحد رؤيتي ولا سماعي من مكان وجودي.

طفتُ في الحجرة بحثاً عن فكرة. ثمة روزنامة إعلانية مثبتة بمسمار على الجدار. شابة ترتدي ملابس سباحة بسيطة، سيدة شهر أغسطس 1996 كانت سمراء جميلة مثيرة بحلمتَي نهدين مدببتين. تتكئ على مشرب على الشاطئ، وتتذوق كوكتيلاً في حبة أناناس مفرّغة.

لم أستغرق في الحساب. ما دمتُ في منتصف الصيف، هذا يعني أنني قفزتُ هذه المرة أكثر من تسعة أشهر.

قمتُ بجردة سريعة لمحتويات الحجرة الأخرى: رفوف أطباق، عربات نقل وتفريغ، خزانة حديد كبيرة -شبيهة بخزانة أدراج الثياب- محمية بقفل رقمي.

وخلال الساعة التالية، حاولتُ إيجاد حلٍّ للخروج من هذا السجن. فككتُ الأسقف المستعارة، وتجهيزات الإخلاء، وسبرتُ أنبوب تهوية مزلق القمامة، وحاولتُ خلع الباب المعدني بواسطة مصفاة القلي وملقط السباغيتي.

بلا نجاح.

ومن فرط ما بذلتُ من جهد، جفّ حلقي. في إحدى الثلاجات، وجدتُ عبوة مشروب غازي كريه بنكهة العلكة وقطعة كعك بالجبن مشكوك في صلاحيتها. شمَمتها بارتياب، لكن جوعي الشديد لم يسمح لي بالتطلّب.

ثمة جهاز تلفاز قديم معلّق بالسقف في زاوية من الصالة. وجدتُ جهاز التحكّم فوق طاولة براد وشغّلت الجهاز. مقتطفات من صور رياضية تتوالى على الشاشة: ألعاب قوى، سباحة وكرة مضرب. تعرّفت بشرود على كارل لويس، وميشيل جونسون وأندريه

أغاسي. شاهدت نهاية التقرير وأنا ألتهم كعكتي، ثم ظهر معلّق، يضع سماعات على أذنيه ويحمل ميكروفوناً في يده.

«هكذا ينتهي استعراضنا للألعاب الأولمبية الصيفية السادسة والثلاثين التي جرت هنا، في أطلنطا، من 19 يوليو إلى 4 أغسطس. ستختتم الدورة بحفل يُنقل على الهواء مباشرة هذا المساء على محطة إن بي سي من ملعب سنتنير...»

جعلني التاريخ أنتفض. إذاً، نحن في 4 أغسطس 1996.

يوم عيد ميلادي.

يوم عيد ميلادي الثلاثين.

مرّت خمسة أعوام منذ ذلك الصباح من يونيو عام 1991. ذاك الصباح الذي جاء فيه أبي إلى منزلي فجأة ليُنعم عليّ بهذا الميراث المسموم ممثّلاً بمنارة الأربع وعشرين ريحاً.

خمسة أعوام مضت بخمسة أيام.

راقبتُ صورتي المنعكسة في المرآة الصغيرة المعلّقة فوق مغسلة إضافية.

هذه أول مرة أتمرى في مرآة منذ بداية هذا الكابوس. هرمتُ قليلاً: علامات التعب بادية على وجهي، وسحنتي مكفهرة. حدقتاي متوسعتان وانتفاخات تحت عينيّ، كأنني خرجت للاحتفال طوال الليل. ليس هنالك تجاعيد الآن، ولم يزل وجهي جميلاً، لكن قسماتي قسَت وتحفّرت. أصبحَت عيناي أكثر قتامة، وفقدَ شعري بريقه الذهبي. أكثر ما صدمني، هو اختفاء كلّ آثار المراهقة من وجهي. تلاشَت كلّ براءة، وكل بساطة، وكل كياسة...

عيد ميلاد سعيد، يا آرثر.

.2

الساعة الثالثة، الساعة الرابعة، الساعة الخامسة مساءً. . . منتصف الليل، الساعة الواحدة، الساعة الثانية، الساعة الثالثة، الساعة الرابعة صباحاً

وأنا مغتاظٌ ومتعبٌ، درتُ مثل أسد في قفص. جرّبتُ كل الوسائل لأحرّر نفسي من هذا السجن. وحين أدركتُ أنني لن أستطيع فتح باب النجاة من الحريق، ارتميتُ على الخزنة المعدنية وقلبتها على الأرض. وأنا أحاول ببكرات الأرقام الخمسة، أدخلتُ ما ينوف على المئة عدد، لكن الاحتمالات تعدّ بالآلاف، ورمز قفل الأمان مثل إبرة في كومة قش.

وبحرب يائسة، جربتُ خلع القفل مستخدماً كلّ الأدوات التي وقعت تحت يدي: ملعقة طبخ، مغرفة قلي، مِسن فولاذي.

- وسحقاً!

وأنا أصرخ، أطحتُ بملعقة المطبخ إلى الطرف الآخر من الحجرة، وفي غمرة الغضب، أخذتُ أطرق الحاجز المعدني بقبضتيّ.

كنت أعيشُ كابوساً في كابوس! كيف أقبل أن أمضي الأربع وعشرون ساعة الممنوحة لي هذا العام سجيناً في هذه الغرفة اللعينة؟

فجأة، انفجرتُ في النحيب. نوبات بكاء لم أرَها تنتابني من قبل، تُعَبِّرُ عن معاناة لم أعُد أستطيع تحمّلها. كنت أحسّ أنني وحيد على نحوٍ مرعب. ويتملكني الخوف. كانت لعنة المنارة تطحنني. عشتُ تلك الأيام الخمسة الأخيرة -تلك السنوات الخمس الأخيرة- ورأسي تحت الماء، سلبياً، عاجزاً عن الفهم والتصرف، وعن إيجاد أي بداية لحلّ يُخرجني من عش للدبابير هذا.

توجهتُ من جديد نحو النافذة. كان نظري منشدّاً إلى العشرين متراً التي تفصلني عن الأرض. لو قفزتُ لانتهى كلّ شيء. على الفور. لن يعود هناك ألم، ولا خوف في داخلي، ولا لعنة.

لكن لن يعود هناك أيّ شيء آخر أيضاً...

الله أعلم لماذا فكرتُ ثانية بما قاله لي فرانك وهو يغادرني ذاك السبت الشهير: **هذا اللغز يشغل بالي منذ أكثر من ثلاثين عاماً. وأظن أنك الوحيد القادر على حلّه.**

كفكفتُ دموعي. كان مثيراً للشفقة أن أحاول إيجاد سلوى في كلام شخص كذبَ عليّ دوماً، وأن أتشبث به رغم كلّ شيء. لعدم وجود شيء غيره.

رجعتُ نحو الخزانة المعدنية، وتناولتُ إحدى أدواتي المؤقتة - في هذه الحالة مكشطة الشواية- وتابعتُ انكبابي على الخزانة، محفّزاً غيظي لأحوِّله إلى طاقة إيجابية. وبعد نصف ساعة، انكسر أول قفل. استفدتُ من الشقّ المتشكل لأُدخل فيه مسناً فولاذياً يُستخدم في شحذ السكاكين. وبالضغط على المقبض مرات عديدة، نجحت في خلع القفلين الآخرين.

وأخيراً!

نظرتُ بتوجس إلى محتوى الخزانة، لكن لم يخب أملي: فوط كبيرة لمسح الأواني، مآزر قماشية، سترات طباخ، وكنزات. ارتديت بعجلة قميصاً رياضياً، وبزّة طبخ ووجدتُ حتى حذاء كاتربيلر على مقاس قدمي تقريباً.

وبصبرٍ، صنعتُ حبلاً، وأنا أعقد الملابس بعضها ببعض. ولمّا بدا لي رباطي طويلاً وقوياً بما فيه الكفاية، أوثقت طرفه بإحكام بمصراع النافذة، ودون أن أنظر إلى الأسفل، انزلقتُ على امتداد

جدار المبنى. ورحتُ أتأرجح مثل ورقة شجر. شعرتُ بالدوار والغثيان. تجنّبتُ النظر إلى الأرض وثنيتُ ساقيّ، وأنا ألصق قدميّ بالواجهة. وببطء شديد، نزلتُ خمسة أمتار، عشرة أمتار، خمسة عشر متراً. مكتبة أحمد

صوت قرقعة...

الحبل الذي بدا لي متيناً يوشك أن يتمزّق. وحين انقطع، سقطتُ من عدة أمتار وتدحرجتُ على الزفت. كان خوفي يطغى على ألمي. نهضتُ وشردتُ لبرهة في المنطقة النشطة، حيث الشاحنات تغادر وتصل. بدأت أشير للسيارات عند تحويلة الطريق العام. انتظرتُ نحو عشرين دقيقة حتى توقّفت مركبة أخيراً: شاحنة كبيرة يقودها شقيقان زنجيان علمت منهما أنهما يعملان بتجارة الفواكه والخضار في سبانيش هارلم. كانا ودودَين. راحا يستمعان إلى موسيقى الريغي بانسجام تام من مذياعهما وهما يدخنان بفرح نوعاً من الحشيش. رفضتُ لفافة، لكنني قبلت بطيب خاطر زجاجة ماء وخوخاً. وحين وصلنا إلى شمال مانهاتن، عرجا نحو مورنينغسايد هايتس ليُنزلاني عند زاوية الشارع 109 وجادة أمستردام.

كانت الساعة السابعة صباحاً.

.3

- كيف تجرؤ على المجيء إلى هنا، أيها القذر؟ اغربْ عن وجهي! لم أعُد أريد رؤيتك! شتمتني ليزا قبل أن تصفق الباب في وجهي.

دامَ لقاؤنا أقل من عشر ثوان.

كنتُ قد حضرتُ أمام بيتها، خافق القلب، ومتلهفاً، لكنها لم

تتعجّل المجيء لاستقبالي. وأنا أصيخ السمع، التقطتُّ بوضوح صوتاً ذكورياً في الشقة، ما أصاب قلبي بأول سَهم.

وماذا كنت تتوقع، بالضبط، يا صغيري آرثر؟

حين قرَّرت أخيراً أن تفتح لي، وجدتُ في حضورها المُشرق سلوى. كانت ترتدي قميص نوم مثير بلون أزرق باهت، وقد غيّرت تسريحتها وتسدل غرة مشذبة بإتقان. كان شعرها الطويل مسترسلاً. لكن لون عينيها الفيروزيتين مال إلى البحري الغامق وتفرّستا فيَّ بازدراء وعداء على حدّ سواء. كنتُ أتأهّب لأخبرها عن مقدار سعادتي بلقائها حين عاملتني كقذر.

ودون أن تهِن عزيمتي، تركتُ إصبعي تضغط على جرس الباب لأكثر من دقيقة.

- اهدأ يا فتى!

ظهر شخص طويل ضخم بجذع عارٍ من فرجة الباب.

- لعلّك أصم، طلبَت منك ليزا أن تنصرف، قال وهو يرمقني بنظرة ازدراء قبل أن يتكلّف ابتسامة ماكرة وهو يركّز بصره على ثياب الطباخ التي أرتديها.

وسيمٌ مثل منحوتة دارجة، كان الرجل أطول مني بنحو نصف متر. لم يكن يرتدي إلّا سروالاً داخلياً ضيقاً، وقد تعمَّد إبراز منطقته الذكورية، وكان يتمتع بعضلات بطن منحوتة على ألواح من الشوكولا.

- أنتَ، ابقَ خارج الموضوع، أجبتُ من دون انفعال.

أردتُ أن أدخل عنوةً، لكنه أمسكني من رقبتي وقذف بي إلى السلالم قبل أن يُغلق الباب.

لم ينجح الأمر، تأسفتُ وأنا أجلس على الدرجات.

في أثناء سقوطي، جُرح ساعدي. كنت أدلّك معصمي، مستنداً إلى الدرابزين، حين رأيتُ ريمنغتون الذي قفز بين ذراعيّ.

- مرحباً يا صديقي القديم!

وبينما راح الهر يقرّب رأسه ليأخذ نصيبه من المداعبة، خطَرَت فكرة ببالي.

- إليزابيث، سآخذ قطّك رهينة! صرختُ بقوة كافية لأن تسمعني. إذا أردتِ استعادته، تعالي ووافيني في الشارع.

أصختُ السمع والتقطتُّ نتفاً من حديث أضاء بصيص أمل. «قلتُ لكَ أن تنتبه إلى القط!» قالت ليزا لرجلها الوسيم فردّ عليها متذمراً.

- إذا كانت تهمكِ حياة المسكين ريمنغتون، لا تفكري بإرسال حارسك الشخصي! حذّرتها وأنا أنزل الدرج.

وبعد أقل من دقيقة، ظهرت ليزا على درج المدخل. وقد ارتدت بنطال جينز مثقّباً، وحذاءً رياضياً قديماً ماركة آير ماكس وصدرية.

- أعِدْ لي قِطّي!

- طبعاً سأعيده، لكن يجب أولاً أن تستمعي إليّ.

- لا ، أنت لا تستحق ذلك! منذ عام، انسحبتَ مثل لصّ عند الفجر، دون أن تترك رسالة، ولم تتصل بي البتة.

- هذا صحيح، ولكن لديّ سبب وجيه.

لم تسألني ما هو. وعوضاً عن ذلك، واصلت صبّ جامّ حقدها:

- يبدو أنك نسيت، ولكننا تحدّثنا كثيراً تلك الليلة. لأنك

أنقذتَ حياتي، بحثُ لك بأشياء حميمة جداً. لأنني وثقتُ بك. لأنني ظننتك مختلفاً.

- بمعنى ما، أنا مختلف...

- أجل، مختلف. فأنت تثير الشفقة أكثر من الآخرين. ولكن ماذا تظن؟ أنني أرتمي في أحضان جميع الرجال العابرين؟

- على كلّ حال، لم تستغرقِي وقتاً طويلاً في استبدالي!

- يا للوقاحة! ثارت عليّ. إنك أنت من ذهبتَ ولم تعُد!

رفعت ذراعها لتصفعني فأوقفتها في اللحظة الأخيرة. استغلّ ريمنغتون الموقف كي يقفز على الرصيف. أخذته ليزا بين ذراعيها واستدارت على عقبيها لتعود إلى بيتها.

- انتظري! دعيني أشرح لك! أمَرتها وأنا أتبعها.

- لا تُتعب نفسك يا آرثر، لقد أخبرني سوليفان بكلّ شيء.

جاريتها.

- كيف هذا؟ بماذا أخبركِ؟

- بما كان يجب أن يُخبرني به قبل ذلك بكثير: أنك تتصرف هكذا مع جميع النساء، وأنك متزوجٌ، ولديك أبناء وأنك...

السافل...

اعترضتُ طريقها بذراعي لأمنعها من دخول البناء.

- دعني أمرّ!

- أقسم لك أنّ كلّ ذلك كذب.

- ولماذا سيكذب عليّ جدك، إذاً؟

- لأنه مجنون.

هزّت رأسها.

- آه لا، لن تُقنعَني بهذا. أنا أتواصل مع سوليفان. أمرّ لرؤيته مرتين في الأسبوع، وصدّقني، هو بكامل قواه العقلية.

- اسمعي، ليزا، إنها قصة طويلة...

- ربما، ولكن ليس لدي الرغبة ولا الوقت لسماعها.

.4

زقاق ماكدوغال

الساعة 9 صباحاً

- مرحباً، يا فتى، استقبلني سوليفان على عتبة بيته.

- توقف عن هذا! لستُ فتىً!

فتح ذراعيه ليعانقني، لكن مزاجي لم يكن منشرحاً. رفضتُ اندفاعاته الحماسية ودخلتُ البهو دون أن أحيّيه.

- تصرّف كأنك في بيتك، تنهّد.

في الواقع هذا ما فعلته. صعدتُ إلى الحمام وتخلّصتُ من أسمالي المضحكة. كنت بحاجة إلى حمام إسعافي. كنت أفوح برائحة العرق ورائحة الملفوف التي تضمّختُ بها. وتحت دفق الماء الحار، أفرغتُ نصف عبوة غسول حمام لأنظف جسدي وأتخلّص من روائح مطبخ برونكس. نثرتُ بعد ذلك ماء الكولونيا القديم الخاص بسوليفان الذي أحبّ فيه عبير الخزامى.

وأخيراً، في «غرفتي»، ارتديتُ بنطالاً قطنياً وقميصاً بأكمام قصيرة وسترة من الكتان. على الطاولة الصغيرة، وجدتُ أربع أوراق نقدية من فئة الخمسين دولاراً تركَها جدي لي بلا شك.

وضعتُ النقود في جيبي، ودون أن أضيّع وقتاً، نزلتُ إلى

الطابق الأرضي. ومن مكبِّر صوت كانت تنبعث ألحان بيل إيفانس: **يجب أن تؤمن بالربيع**، المقطوعة الشهيرة لميشيل لوغران.

كان سوليفان جالساً إلى طاولة الصالون أمام حاسوب ويضع سيجاراً في فمه. ونظارته الصغيرة على أنفه، يتفحّص شاشته المليئة بمؤشرات البورصة.

- ما هذا؟ سألته وأنا أشير إلى الشاشة. قرص مدمج؟

- إنه موقع سمسرة على الشبكة.

حدقتُ مندهشاً.

- موقع؟

- إنه اتصال بخدمة المعلوماتية، إن شئت. وبفضل الإنترنت، يمكنك إعطاء أوامر للبورصة مباشرة من بيتك.

- وما هو الإنترنت؟

لم يستطِعْ كبح ابتسامته.

- عمري خمسة وسبعون عاماً وأنا مَن سيشرح لك ما هو الموقع...

- اعفني من ملاحظاتك الساخرة.

- ما هذه الحساسية! حسن، الإنترنت، هو شبكة معلومات عالمية تُتيح تبادل المعلومات والوصول إلى خدمات عديدة مثل...

قاطعته:

- وهل تفهم بالبورصة، أنت؟

- أجريتُ بعض الصفقات الرابحة في بداية الخمسينيات، أجاب بتواضع مصطنع.

ثم أدار نحوي شاشته التي تظهر عليها سلسلة رسوم بيانية.

- نحن الآن في فجر عصر لا يُصدّق: فأسهم التكنولوجيا

يحالفها الحظ وهذه ليست إلّا البداية. منذ عام وأنا أضارب في البورصة، وقد ضاعفتُ رأسمالي، هل تصدّق! ليتهم أخبروني يوماً أنّ جني المال سيكون بهذه البساطة!

مررتُ وراء المشرب ووضعت سترتي على مسند كرسي مرتفع. وبجانب زجاجات الويسكي كان يوجد إبريق قهوة قديم إيطالي. وحتى أهدئ انفعالاتي، أعددتُ لنفسي فنجان قهوة ثقيل مضاف إليه رشّة براندي.

- كيف يمكنك شراء أسهم وبيعها وأنت ليس لديك حساب مصرفي؟

هزّ كتفيه.

- باسم مستعار، إنها لعبة طفل. تصوّر أنني أستخدم بيانات ليزا المالية ومقابل ذلك أحوّل لها نسبة مئوية من ربحي.

أوشكتُ على الانفجار.

- لنتحدث عن هذا، بالتحديد، عن ليزا! لماذا رويتَ لها سلسلة أكاذيب عني؟

- لأن كذبة حلوة أفضل من حقيقة مرة. جدياً، ماذا كنت تريد أن أخبرها غير ذلك؟

نهض بدوره وصبَّ لنفسه مباشرة قدح كونياك دون أن يعير اهتماماً للقهوة.

- سأستمرّ في الكيد لك، حذّرني.

- ولكن تباً، لماذا؟ ألا تعتقد أنه يكفيني ما أعانيه؟

- يجب ألّا ترى ليزا ثانيةً، هذا كلّ شيء. إذا رغبتَ أن تقضي وطرك، خذ خمسمائة دولار من الخزنة: حانات الفنادق الراقية تعجّ بالبغايا.

- تريدني أن ألكمكَ!
احتسى سوليفان جرعة كحول.
- لا أريد إلّا سعادة ليزا. وسعادتك أيضاً.
- اهتمّ بنفسك في هذه الحالة. فأنا كبير بما يكفي لأعرف مصلحتي.
هزّ رأسه.
- ليس في مثل وضعك. لا تنسَ أنني سبق وجرّبتُ ما تعيشه الآن...
- لذلك بالضبط، كنتُ أنتظر مساعدتك.
- وهذا ما أقوم به لثنيك عن رؤية هذه الفتاة. ستؤذيها وتؤذي نفسك أيضاً.
وضع يده على كتفي وقال بلهجة وقورة:
- لقد رأيتَ إلى أين قادني كلّ هذا: قتلتُ المرأة التي أحبّها وأمضيتُ أكثر من عشر سنوات في مشفى نفسي.
- أشكركَ على نصائحك، لكن هذا لا يعطيك الحق أن تتدخّل في خياراتي! فضلاً عن ذلك، أنا في هذا الوضع بسببك أنت!
ثارت ثائرته:
- لا يمكنك أن تحمّلني مسؤولية جميع أخطائك. فهذا أسهل شيء تفعله.
- أنا لم أطلب شيئاً من أحد! كنتُ أعيش حياةً هادئة. وفرانك هو مَن جاء للقائي. فرانك! ابنك! ابنك الذي صار شخصاً حقيراً، لأنك تخلّيت عنه وذهبتَ لتعيش مع سارة تلك. هذه هي الحقيقة!
أمسكني من ياقة قميصي. ورغم سنه، لا تزال لديه قوة ثور.
- انتبه جيداً لما تقول، يا صغير.

- أنتَ لا تخيفني، أجبتُ وأنا أثبّته إلى خشب الجدار. لا تنسَ أبداً أنك إذا كنتَ الآن في هذه الحجرة، وإذا كنتَ تستطيع الاستماع إلى أسطوانات الجاز، وشرب الويسكي، وتدخين السيجار، والمضاربة بالبورصة وراء شاشتك، لا تنسَ أبداً أن هذا بفضلي. فأنا مَن جئتُ لأخلّصك من ذلك المشفى. أنا! وليس ابنك، وليس أصدقاؤك، وليس أخي، ولا أختي! أنا!

وبينما كان يُطأطئ رأسه، أفلتّه من قبضتي.

- لم أعُد أريد أن أراك البتة، يا سوليفان، قلتُ وأنا أرتدي سترتي بعجلة. سأحاول استدراك الأمر مع ليزا، ولكن إياكَ أن تفكر ثانية في محادثتها عني.

أصبحتُ في الردهة. وقبل أن أنصرف، لم أتمالك نفسي عن تهديده:

- إذا اعترضتَ طريقي ثانية، في مرة قادمة، أقسم أنني سأعيدك إلى المأوى.

5.

- ليزا، إذا كنتِ موجودة، افتحي لي!

أنزلَتْني سيارة الأجرة عند مدخل المبنى في جادة أمستردام. ومنذ دقيقة، أقرع الباب، لكن الشقة ظلّت صامتة، ما عدا أنّ الهرّ راح يموء من حين إلى آخر.

كانت الساعة تقارب الثانية عشرة ظهراً. أين عساها تكون، في عزّ الصيف، في أول يوم أحد من شهر أغسطس؟ ليست في مدرسة جوليارد سكول بطبيعة الحال، ولا في حانة إيست فيلاج.

نزلتُ الدرجات. كان سائق سيارة الأجرة -وهو هندي من السيخ معتمراً كوفية- قد ركن سيارته الفورد كراون في ممرّ جانبي وراح يمضي استراحة غدائه في ظلّ شجرة جنكو. أسند ظهره إلى غطاء سيارته، وأخذ يلتهم بنهم رغيف خبز.

تلفتُّ إلى جميع الجهات، خائباً، وطفقتُ أبحث عن إيحاء، وأترصّد أيّ علامة.

صناديق البريد...

في بيت الدرج، جميع علب الرسائل دُمِغَتْ بوردة محصورة في فتحاتها. لم تكُن النشرات الدعائية موجودة حين أتيت هذا الصباح ومن وزّعها أو وزَّعَتها تركها ظاهرةً عن قصد.

أخذتُ إحدى النشرات ورأيتُ صورة ظلّية نمطية لشكسبير برأسه الأصلع وشاربيه ولحيته الصغيرة المدبّبة. ونص قصير على شكل دعوة يعلن:

بمناسبة الدورة 34 لمهرجان شكسبير في المنتزه،
سيقدم طلاب السنة الأخيرة في مدرسة جوليارد للدراما
عرضاً استثنائياً لمسرحية وليام شكسبير:

حلم ليلة صيف
الأحد 4 آب على الساعة 30 :13
في قاعة مسرح دولاكورت
الدخول مجاني

شكرتُ السماء: ليزا موجودة هناك!

كان السائق قد أنهى سندويشته، أريته النشرة الإعلانية فأدار محرّكه. كان الجو خانقاً في بداية ما بعد الظهيرة. وكانت أرصفة

مانهاتن تتلظّى تحت الشمس ولم تبدُ لي حركة المرور مزدحمة. في أقلّ من عشر دقائق، نزلنا على امتداد سنترال بارك ويست حتى متحف التاريخ الطبيعي. أنزلني سائق السيخ عند الشارع 79 وشرح لي كيف أصل إلى القاعة. دفعتُ الحساب وشكرته واجتزتُ الشارع لأغامر في سنترال بارك.

كانت لافتات عديدة تعلن عن عرض مسرحية **حلم ليلة صيف**. كنتُ أعرف المسرحية لأنني مثّلتها في الثانوية. وأنا أتبع إرشادات السائق، وصلتُ بسرعة إلى أمام مسرح في الهواء الطلق، يقع وسط أشجار على بُعد خطوات من قصر بيلفيدير. في هذا الجو الريفي كانت فرق مسرحية تنظّم كلّ صيف منذ أكثر من ثلاثين عاماً عروضاً مجانية لمسرحيات معلّم ستراتفورد.

درتُ حول القاعة. كان هناك حشد في المنتزه: سيّاح، مغرمون بالفن المسرحي، أولاد يتحلّقون حول باعة مثلجات ومشروبات غازية.

رأيتُ ليزا برفقة ممثلين من فرقتها، تحت خيمة كبيرة منصوبة في الهواء الطلق تستخدم كغرفة ملابس جماعية. ميزتُ المنحوتة الدارجة -سيد ألواح الشوكولا- الذي قذفني إلى السلالم. كان قد قايض سرواله الداخلي ببزّة أكثر عرياً من بزّة ديميتريوس. أما ليزا، فارتدت بأناقة التاج المتلألىء والثوب الخلّاب لتيتانيا، ملكة الجنيات. وهو لقب يليق بها.

سيكون القول بأنها لم تكن منشرحة لرؤيتي نوعاً من التهذيب. أرادَ لوح الشوكولا أن يتدخل، ولكنني كنتُ مستعداً له هذه المرة، وأنا مَن ابتدأ الأعمال العدائية موجهاً له ضربةً بركبتي على الأجزاء الحساسة فطرحته أرضاً.

وبينما كنتُ أهاجم واحداً منهم، أراد تيزي وإيجي وليساندر الانقضاض عليّ، لكن ملكة الجنيات تدخّلت.

- آرثر! ماذا فعلتُ لك؟ لماذا قررتَ أن تنغّص حياتي؟

كان كلامها مفعماً بالشجن حتى أنني تساءلتُ فعلاً، لبرهة وجيزة، عن سبب تعلقي بهذه الفتاة.

- حقاً يجب أن تصغي إليّ يا ليزا.

- لدي ما أقوم به الآن! سندخل إلى المسرح بعد دقائق. أتدرّب على هذه المسرحية منذ ستة أشهر. إنها مهمة جداً بالنسبة لي!

- أعرف، ولكن لا يمكنني تأجيل هذا الأمر. لذلك إليكِ ما أقترحه: تصغين إليّ أقل من ربع ساعة وبعدها إذا قرّرتِ ألّا تريني ثانيةً، أعدكِ ألّا تسمعي شيئاً عني أبداً.

- لا بأس، تنهّدتْ بعد ثوانٍ. سأمنحكَ عشر دقائق.

ابتعدنا عن أصدقائها لنتحدّث بهدوء. وبما أنّ ثوبها كان طويلاً وتضع جناحي ملاك كبيرين معلقين في ظهرها بسلك حديدي، لم نستطعْ أن نبتعد كثيراً. لذلك جلسنا على أحد المقاعد العامة، في منطقة وارفة الظلال على بعد عشرات الأمتار من الخيمة.

بجانبنا، راح صبي أحمر الشعر، مرتدياً نظارة وعمره خمسة أو ستة أعوام، يمصّ قطعة من البوظة الإيطالية وهو يتغمى أمام ليزا، بينما أمه مستغرقة في آخر رواية لجون لوكاريه.

- حسنٌ، ما الأمر المهم الذي ستخبرني به؟ قالت بضيق.

- لن تصدِّقيني أبداً. ما يحصل لي لا يمكن تخيّله، ومع ذلك هو من صلب الواقع...

- أفصِحْ، لو سمحت؟

أخذتُ شهيقاً كأنني سأغطس غطسة تقطع النفس، ولمدة عشر دقائق، ودون أن أدع لها مجالاً لمقاطعتي، سردتُ لها كلّ شيء: أبي، المنارة، باب القبو المعدني، كيف ألفيتُ نفسي في كاتدرائية سانت-باتريك، أول مرة ظهرتُ فيها تحت صنبور حمامها، كيف أنقذتها حين استيقظت في محترف عشيقها القديم، مأساة سوليفان، ولعنة الأربع وعشرين ريحاً...

وبعد أن وصلتُ إلى نهاية نفق تفسيراتي، ترصَّدتُ ردة فعلها بتوجّس.

- إذاً، إذا فهمتُ جيداً، سبب عدم اتصالك بي، هو أنك لا تعيش إلّا يوماً واحداً في العام؟ سألَت ببرود أعصاب.

- هو ذاك. رأيتكِ البارحة، لكن هذا يعني بالنسبة لك انقضاء عام تقريباً.

- وأين تكون حين لا تعود موجوداً؟

- لا أكون في أي مكان، بكل معنى الكلمة. لا أكون موجوداً.

- وكيف يحدث هذا، حين تتبخّر؟ سألت بسخرية. كما في أفلام ستار تريك؟

- أتلاشى، هذا كل شيء. ليس هذا قدرة بطل خارق ولا خدعة سحرية لديفيد كوبرفيلد.

ضحكَتْ ضحكة عصبية.

- لقد هرَّبتَ جدك من مشفى نفسي، ولكنك تعي جيداً أنك أنت مَن ينبغي أن تكون فيه، أليس كذلك؟

استوعبتُ السخرية، لكنني لاحظتُ فضولاً. وقلقاً.

- إذاً، ستختفي الآن؟ وأمامي؟

- أخشى ذلك.

بل صرتُ واثقاً من ذلك. منذ ثوانٍ، شعرتُ بوخز في أعضائي، ولطخ سوداء أمام عينيّ، وشممت رائحة زهر البرتقال الزكية. حاولتُ بكلّ قواي طرد هذه الأحاسيس، ونفيها، وإبعادها. كان عليّ أن أصمد أيضاً لفترة وجيزة.

لم تزَل ليزا هنا، مستغرقة في التفكير. خمنتُ اضطراباً في نظرتها. منطقياً، لا بد أنها شعرت بالخوف وأرادت الانصراف، لكن شيئاً ما استبقاها.

- عليّ أن أخبرك بأمر، بدأت. لعله ليس مهماً...

أثارت فضولي، لكنها توقفت فجأة أيضاً.

أخذَ جسدي يرتعش. رجفات لا يمكن التحكّم بها. نظرتُ حولي، جَزِعاً من النتائج لو رآني أحد. لكن أحداً لم ينتبه إليّ، باستثناء صبي أحمر الشعر يضع نظارات.

- ليزا، تابعِي، من فضلك، ماذا تريدين أن تقولي لي؟

لكن المرأة الشابة بقيت بكماء، مشلولة بسبب ما تشهده.

طنّت أذناي. ثمة ضجيج مألوف من الآن فصاعداً للشهيق وهذا الإحساس المزعزع دوماً في التلاشي.

- آرثر! صرخت.

لكن جسدي اختفى الآن.

ومع فارق طفيف دوماً، أدركتُ ذلك الآن، بقي «ذهني» في المكان ثانية أو ثانيتين إضافيتين.

فقط لحظة رؤية ليزا، بثوبها الجميل، تُصاب بالإغماء على العشب.

على المقعد، في الجوار، تركَ شعر الجزرة قرنَ بوظته وهزّ أمه.

- هل رأيتِ ماما؟ هل رأيتِ، قولي؟ ملكة الجنيات، جعلت حبيبها يختفي!

1997
يوم استثنائي

أين يهرب قلبي من قلبي؟
أين يمكنني أن أفرّ هرباً من نفسي؟

سانت أوغستين

.0

هذه المرة، استيقظتُ استيقاظاً لطيفاً إن صحّ التعبير، استيقاظاً شبه رطب.

أستعيد وعيي وسط رائحة خبز ساخنٍ. وحين أفتح عينيّ، أكون ممدداً على بطني، وأنفي على بلاط خشن من الفخار. أشعر بألم أقلّ في مفاصلي، وصداعي النصفي أخفّ، وتنفّسي أصفى. أنهض واقفاً بسهولة وأنظر حولي.

أميّز عجانة آلية، وقطاعة عجين، وخزانة تخمير، وفرناً على عجلات تُخبَز فيه المعجّنات. أكياسٌ من خيش القنب، ومغلفات ورقية نقرأ عليها: للكرواسان الساخن - مخبز فرنسي منذ عام 1974.

أنفض الطحين عن سترتي وبنطالي: أجد نفسي في فرن مخبز حرفي.

.1

أسمع أصواتاً وحركةً في الطابق. أملأ بسرعة كيساً بالكرواسان والخبز بالشوكولا قبل أن أتوارى في درج يفضي إلى الشارع.

كنتُ في طريق مسدود ومرصوف، متعامد مع بويري، على الحدّ الفاصل بين ليتل إيطالي ونوليتا. بزغ النهار منذ لحظات. وراح قمر فضّي يتوارى بين الأبنية. في واجهة أحد المتاجر، لافتة مضيئة تشير إلى الساعة 6:25.

أصبح لدي الآن طقوسي وأحاول التمسك بها: قطعة نقدية في موزع الصحف، مطالعة أول صفحة من **النيويورك تايمز**. كان تاريخها... 31 أغسطس 1997.

ثلاثة عشر شهراً مضت منذ رحلتي السابقة. من العبث توقع ذلك، وفي كل مرة هناك صدمة من الصعب استيعابها: أستيقظ وأتلقى صفعة عام كامل في طرفة عين.

هذا الصباح، كانت صورة الأميرة ديانا تحتل الصفحة الأولى.

مقتل ديانا في حادث سير في باريس

أومأتُ إلى سيارة أجرة واغتنمت المسافة لأقرأ الأسطر الأولى من المقالة:

> **وفاة ديانا، أميرة بلاد الغال، في حادث سيارة في أحد أنفاق نهر السين بباريس بعيد منتصف الليل [...]**
> **محطات إذاعية فرنسية عديدة نقلت ردّ فعل أحد الناطقين باسم العائلة الملكية البريطانية وعبّر فيه عن غضبه معتبراً أن مثل هذا الحادث كان متوقَّعاً بسبب معاناة الأميرة من ملاحقة المصورين لها أينما حلت.**

حين وصلتُ أمام مبنى جادة أمستردام، عزمتُ أن أفي بوعدي. إذا رفضت ليزا مقابلتي هذه المرة، فلن أصرّ ثانية أبداً.

تأكدتُ أن اسمها لم يزل مكتوباً على صندوق البريد، وصعدتُ السلالم وضغطتُ بحزم على جرس الباب. بعد ثوانٍ، سمعتُ صوت خطى تقترب وخمنتُ أن أحداً يراقبني من منظار الباب. وحين صرّ الباب، تأهبتُ لتقبّل كل شيء، ولو لكمة من لوح الشوكولاتة أو ضربة بمرقاق العجين (مع أن ليزا ليست من النساء اللاتي يقتنين مرقاق عجين في بيوتهن...).

هي مَن فتحت الباب. ولبرهة، ظلّ وجهها الجميل جامداً. حرّكتُ عندئذٍ كيسي الورقي.

- لا أعرف هلْ تفضّلين الكرواسان أم الخبز بالشوكولاتة، لذلك سمحتُ لنفسي أن أُحْضِرَ الاثنين.

وبعد ثوانٍ من الارتباك، ارتمَت ليزا على عنقي. تشبَّثت بي وأحاطت خصري بساقيها. أفلتُّ معجناتي، وأمسكتُ وركيها وصفقتُ الباب بقدمي.

.2

استقرّ رأسي على بطنها العاري.

مضت ساعة منذ وصولي إلى الشقة.

وبينما نسترد أنفاسنا، راحت ليزا تمسد بيدها قذالي وشعري.

- هل تتذكر، آخر مرة تحدثنا فيها، تماماً قبل أن تختفي؟

- أجل. كنتِ على وشك أن تبوحي لي بشيء ما.

- آرثر، أظن أنني كنتُ موجودة في كاتدرائية سانت-باتريك، حين قمتَ برحلتك الأولى.

اعتدلتُ فوراً وجلستُ على الفراش.

- أنتِ جادة؟

رفعت الغطاء على صدرها.

- كان ذلك في 16 يونيو عام 1992، أليس كذلك؟

أكّدتُ بإيماءة من رأسي.

- كنتُ قد نقلت مسكني منذ فترة وجيزة إلى نيويورك، إلى شقة مثيرة للاشمئزاز في موت ستريت. خرجتُ نهاية عصر ذلك اليوم أتنزه في الجادة 5 مع شريكتي في الشقة، وهي كاثوليكية من بيت كاثوليكي، لا يمكنكَ أن تتخيل هذا!

انحنت لتتناول عبوة مياه معدنية موضوعة على الأرضية الخشبية.

- في تلك الفترة، لم تكن الكنائس تعنيني، ولكن مقابل سانت-باتريك تماماً، يوجد متجر ظريف اسمه فيكتوريا سيكريت... وبينما رحتُ أقيس ألبسة داخلية، أصرّت رفيقتي على زيارة الكاتدرائية، ولأنها لم تعُد، ذهبتُ أنا لموافاتها. رأيتُ من بعيد حشداً حول جوقة التراتيل. وبالضبط حين صعدتُ المعبر الرئيس، اقتحم شرطيان المكان واندفعا في ملاحقة شخص يرتدي سروالاً داخلياً مبرقعاً بحبات بازلاء وردية. أنا متأكدة من ذلك الآن: هذا الشخص، كان أنتَ!

أذهلني هذا الاكتشاف. وبدت ليزا مندهشة أيضاً.

- هذا مذهل، أليس كذلك؟ قالت بابتسامة عريضة. كنت متلهّفةً لأخبركَ بهذا!

- هذا أكبر من أن يكون مصادفة، أجبتُ.

- طبعاً ليست مصادفة! وسأخبركَ ما يعنيه هذا: يعني أنني أنا

أيضاً أشكّل جزءاً من قصتك! وأن المنارة هي التي جمعتنا، أنا وأنت، كما جمعت سوليفان وسارة!

بدت هذه الفكرة تُشعلها حماساً. أما أنا، فانتابني الخوف.

- وهل روى لكِ سوليفان أيضاً خاتمة قصته المأساوية؟

- أجل، لكننا نحن، سنحطّم هذه اللعنة! أجابت بمنتهى الثقة.

فجأةً، بدأت الشكوك تراودني، وقلت في سري لعلّ سوليفان لم يُخطئ في توجيه كلّ هذه التحذيرات لي.

لكن ليزا رفعَت الغطاء، وعرضت نفسها عليّ. تمدّدت ومدت يديها لتجذبني إليها، وحين استسلمتُ لها، صارت جميع تحذيرات سوليفان بعيدةً ورائي.

3.

ودون أن نتطرق إلى ذلك، أدركتُ أننا اتفقنا على نقطة: أن نعيش اللحظة الراهنة.

ألّا ندع ثقل الماضي أو لايقين مستقبلنا يُفسد جمال اللحظة.

بدا لنا كلّ اهتمامٍ آخر مضيعةً للوقت (والله أعلم كم من الوقت ينقصنا)، واختصرنا النهار في ممارسة الشيء الوحيد المهم: الوصال.

ونحن متشبّثان أحدنا بالآخر، لم نبرح السرير.

الساعة 9

حضّرتُ طعام فطورنا. فنجانا قهوة بالحليب. معجّنات مسروقة فاخرة من الكرواسان الطازج. فُتاتٌ على الشراشف. وشمس متوهجة في بيضنا المقلي.

الساعة 10

جمعَت ليزا كل أقراصها المدمجة فوق سريرها وأسمعتني أغانيها المفضَّلة بواسطة قارئ أقراص وضعته على طاولة سريرها. سمعتُ ذلك اليوم لأول مرة معزوفة غيتار لفرقة راديوهيد بعنوان **لا مفاجآت**، وتقليداً لأغنية **يقتلني بهدوء** لفرقة فوجي، واللازمة المدوخة لأغنية **سيمفونية حلوة مرة**.

الساعة 11

اكتشاف مسلسلات تلفزيونية حالية: مقبلات لطيفة مع مسلسل **أصدقاء**، حلقتان مضحكتان من مسلسل **سينفيلد** وحلقة من مسلسل **طوارئ** الذي جعلني أشعر بحنين جارف إلى مهنتي.

الساعة 14

درّبتُ ليزا على مسرحية كان عليها أن تمثّلها قريباً في لنكولن سنتر. «ما الحب إلّا دخانٌ من الزفرات السخية، إذا ما انجلى صار ناراً توهج في مُقَلِ العاشقين، وإن عاقه عائقٌ، صار بحراً يغذيه دمعٌ من الهائمين» **روميو وجولييت**، الفصل الأول، المشهد الأول.

الساعة 16

فوق رف المطبخ، وجدتُ بتأثّر كتاب الطبخ. حليفي الوفي الذي أتاح لي أن أنجز بلا ضرر تقريباً طبقي الشهير من الآن فصاعداً بشرحات لحم البط بالعسل. سألت ليزا عمّا ترغب بتناوله على الغداء، ثم بذلت جهداً خارقاً لأخرج من شرنقتنا، ونزلتُ أشتري مؤناً من بقالية على ناصية الشارع. حين عدتُ إلى المطبخ، انهمكتُ في تحضير اللازانيا بالجبن على الطريقة البولونية. وحتى أكون

صادقاً، لم أحرز إلّا نصف نجاح، ولكن لأن الحب أعمى، أكّدت ليزا لي أنها ألذ لازانيا أكلتها في حياتها.

الساعة 18

كان المغطس بشكل القبقاب صغيراً بالنسبة إلى شخصين. لكن التصاق أحدنا بالآخر جعلنا شخصاً واحداً. في المذياع، فرقة تكساس، المغنية آلانيس موريسيت وفرقة كرانبيريه. وفي بخار الحمام المزبد، كانت ليزا تبحث عن آخر عدد من مجلة **فوغ**، أما أنا فأتصفح أعداداً قديمة من **نيوزويك** و**تايم ماغازين**، منقّباً بلا توقف في أحداث الأشهر الأخيرة، عن عيّنة من وساوس العصر وأبطاله: بيل غيتس سيد جديد للعالم، قلقٌ من الاحتباس الحراري، عالم الإنترنت الغريب والجديد، موت توباك شاكور في تبادل إطلاق نار في لاس فيغاس، إعادة انتخاب بيل كلينتون، النتائج الثورية للرقاقة البرمجية على الاقتصاد، مزيد من النمو السكاني في البلد وتنامي الفروق الاجتماعية.

الساعة 20

موعد الواجبات. أعددتُ شاياً أخضر. ارتدت ليزا قميصي على عجل. استلقينا جنباً إلى جنب في الفراش، وتسلّحنا بأقلام حبر، وانغمسَ كلّ واحد منّا في عمل مختلف.

انهمكَت هي في تنظيم لائحة تتعلق برمزية الرقم 24 على أملٍ مجنون بعض الشيء في اختراق لغز المنارة (24 ساعة في اليوم، 24 قيراط في الذهب الصافي، 24 صورة في الثانية في فيلم سينمائي، 24 حالة شفاء للمسيح في الكتاب المقدّس، 24 عنصر ذري في جسم الإنسان...).

أما أنا، فانهمكتُ في الإجابة عن نوع من استبيان بروست أعددته لأفهم نفسي بشكل أفضل.

الساعة 23

تقع حانة إمبانيادا باباس على بُعد مربّعين سكنيين من الشقة، وهي حانة مقبّلات مزدحمة وصاخبة، لكنها تقدّم أطباقاً لذيذة من اللحم المطهو في الفرن. جلستُ إلى طاولة، ورحتُ أنظر إلى ليزا تشقّ الحشد بيدين تحملان زجاجتين من الكورونا ذهبَت لجلبهما من طاولة الشراب.

ابتسامتها، رشاقتها، بريقها الألماسي. لماذا لم يحالفني الحظ في لقائها من قبل؟ لماذا لا يحقّ لنا أن نعيش حياة طبيعية؟ تحت الضوء الخافت، اختلطَ بريق سترتها الجلدية بلون الكراميل مع لون شعرها العسلي. وضعت الزجاجتين على الطاولة وجاءت لتجلس بجانبي.

طوال النهار، أذهَلَني توافق حركاتنا، وانسجام ضحكاتنا، وتناغم دماغينا.

لكن ساعة حائط مكسيكية بشكل جمجمة، معلّقة على الجدار، راحت تنثر الثواني، وتذكّرني أن موعد الرحيل يقترب.

تذكّر أن الزمن لاعب طماع
يربح كل مرة دون أن يغشّ! هذ هو القانون.

منبثقةً من أحد دروس اللغة الفرنسية البعيدة، لم تبد لي قطّ أبيات بودلير ملائمة بهذا القدر.

كيف يمكن للقدر أن يكون بهذه الفظاعة ليُنزل بي هذا العقاب؟

الساعة 5 صباحاً

كانت الغرفة غارقة في ضوء القمر الشاحب. نظرة خاطفة يائسة على المنبّه. وأنا أرتعد خوفاً، نهضتُ دون أن أحدثَ ضجةً.

قميصي، سترتي، بنطالي، حذائي. من الأفضل أن أكون مستعداً للرحيل.

شعرتُ بوجود ليزا خلفي؛ كنتُ أظنّها غافية. يدها على بطني. قبلاتها تصعد من كتفيّ إلى قذالي.

- لا أستطيع أن أصدِّق أنك سترحل حقاً، قالت وهي تدفعني على كرسي الخيزران لطاولة مكتبها الصغيرة.

تخلّصت من قميص نومها. فجأةً، تشوّشت أفكاري. وضاق تنفسي. وخزاتٌ تزداد وضوحاً جمّدت حركاتي. تضاعفت الرؤية ودغدغ فوحان روائح زهر البرتقال المريبة منخريّ.

لا، ليس الآن!

تشبّثتُ بها، محاولاً أن أتمسك بقدر ما أستطيع: بصوتها الدافئ، برائحة بشرتها الأخّاذة.

بأيّ شيء لأبقى بضع دقائق إضافية.

هنا والآن.

تشبّثت ليزا بنظرتي. شعرتُ بجسدها يرتعش.

لكنني لم أعُد موجوداً.

أي جريمة اقترفتُ لأستحق أن أدفع ثمناً باهظاً إلى هذا الحدّ؟

وأي ذنب لا يُغتفر يجب أن أكفّر عنه؟

1998
الرجل الذي يختفي

الضعفاء وحدهم هم المطالبون أن
يسلكوا الدروب السهلة.

هيرمان هيسه

.0

هناك استيقاظات أصعب من غيرها. وهذا الاستيقاظ حدث بكلّ عذوبة. بين روائح الزعفران والخلنج والورود. حين استعدتُ وعيي، كنتُ ممدّداً فوق مرجة عشب قُصَّ حديثاً.

أفرك عينيّ، أقف، أدلك كتفيّ. الوقت نهار، والجو دافئ. ما زالت نقودي معي، في جيب سترتي، لكن أزرار بنطالي مفكوكة، وقد تهدّل حتى كاحليّ. ارتديتُ ثيابي على عجل. لم تصل الشمس إلى كبد السماء. والخريف ألقى على الأشجار مسحة وهّاجة. إنني في حديقة منزل جميل في المدينة.

على درج المدخل، ألتقط صحيفة محميّة بغلاف بلاستيكي لا بد أنّ موزّع الجرائد سلمها قبل بضع دقائق. أنظر إلى العنوان - قرب منتزه غرامرسي - والتاريخ - نحن في 31 أكتوبر 1998. إنه عيد الهالوين.

هذا الجو الشاعري المطمئن لا يستمر طويلاً. فجأةً، يقطع الهدوءَ نباحٌ غاضبٌ لكلبين بوبرٍ قصير. كلبا حراسة ضخمان في أعقابي، هربتُ راكضاً وتسلّقت السياج الشبكي. سقطتُ بتثاقل في الجهة الأخرى من السور. هربتُ من الكلبين، لكن جرحاً شقّ ربلة ساقي.

.1

استقليتُ سيارة أجرة حتى جادة أمستردام. الدرج. رنّة جرس الباب التي تمتد. الذهول في نظرة ليزا حين تفتح الباب لي. ارتياحي الأناني حين أتأكّد من عدم وجود رجل آخر في الشقة. الصعوبة التي نكابدها في اللقاء. في التغلّب على الشرخ الذي يهدم حياتنا. في تجاوز قسوة وضعنا. في كلّ مرة، أجد صعوبة في أن أضع نفسي مكانها. مع ذلك أعرف أنه يجب عليّ أن أمنحها وقتاً لتستوعب الصدمة، لكن حُكِمَ على أحاسيسنا ألّا تتزامن أبداً: بينما هي لم ترَني منذ أكثر من عام، أشعر أنني لم أتركها إلّا ساعات قليلة...

لأنني الرجل الذي يختفي. رجلٌ بلا مستقبل. الرجل المنقط. رجل متعطّش للحياة لكنه لا يستطيع أن يقدّم وعوداً. رجل عليه أن يعيش بسرعة. عليه أن يعطي لكلّ يوم كثافة جبل روسي. رجل عليه أن يمطّ الزمن ليضاعف باقة الذكريات التي سيتركها خلفه حين يرحل.

.2

أنا الرجل الذي يختفي، لكنه يتذكّر كلّ شيء.

ومثل الأيام الأخرى، مرّ هذا اليوم بلمح البصر. في الألم، في العجلة، في ترقّب الفقدان الذي سيدعه لكلينا.

أتذكر يقطين هالوين المكشّر يزيِّن النوافذ والحدائق.

وتلك المكتبة قرب يونيون سكوير حيث قرأنا قصائد إميلي ديكنسون.

وعازف الساكسفون الذي يعزف **وداعاً يا بلاكبيرد** أمام نافورة بيتيسدا.

أتذكر أننا وقفنا في طابور في منتزه ماديسون حتى نتذوّق همبرغر شاكي شاك.

على ملعب مسيّج بشبك في مولبيري ستريت، أتذكر أنني تحدّيتُ مراهقاً أطول مني بعشرين سنتيمتراً في كرة السلة.

أتذكر ذينيك الزوجين اللذين كانا يمزّقان بعضهما بعضاً في المترو الهوائي المتّجه إلى بروكلين، ولكنهما يُعطيان انطباعاً أنهما متحابّان.

أتذكر ضحكة ليزا على الدولاب القلّاب في كوني آيلند.

وردّها لخصلة شعرها وراء أذنها.

وهبوب الريح على الكورنيش الخشبي المحاذي للبحر.

وبائع البوظة يغطّس قرون الفانيليا في سائل الشوكولاتة.

أتذكّر لفافات التبغ التي دخّناها على شاطئ برايتون عند غروب الشمس.

وعودتنا إلى مانهاتن.

وأطفالاً متنكرين صادفناهم في الشوارع يطرقون الأبواب صارخين: «**خدعة أم حلوى!**»

أتذكر الكُشك قرب جامعة كولومبيا الذي يدّعي أنه يقدّم أفضل سندويشات البسطرما في المدينة.

وسينما أوبر ويست سايد القديمة التي كانت تعرض أفلام شارلي شابلن.

أتذكّر أننا كافحنا لنصدّق أنّ هذا اليوم لن ينتهي.

عند الفجر، حين كان الزمن ينتزعني منها مرة أخرى، حين كانت شحنة أقوى تكهرب دماغي، أتذكر أنني فكرتُ أنّ حياتي لا يمكن أن تستمر طويلاً هكذا.

ولا حياتها.

1999
السفن الأشباح

[...] معظم مَن يتمتعون بشيء من الذكاء يعلمون [أنّ الحب] يتغيّر بمرور الزمن. نحافظ عليه بحسب الطاقة التي نكرّسها له، نتشبّث به أو نضيّعه.

كولم ماكان

0.

باديء ذي بدء، البرد.

نسمة قطبية تلسع وجهي وتجمِّد أعضائي. موجة جليدية تخترق ثيابي، وجلدي، وتنفُذ إلى عظامي.

بعد ذلك الرائحة.

روائح سمك مجفّف، ومازوت. روائحَ مقزّزة تخنقني وتدفعني للتقيّؤ. وحتى قبل أن أستيقظ، انتابني غثيان جعلني أبصق دفقة من العصارة الصفراوية. أسعل، أختنق وأنتهي إلى النهوض. بطني متشنّج بسبب القلق. عند كلّ استيقاظ، الهلع ذاته، الرعب ذاته لعدم معرفتي أين أستردّ وعيي وأيّ خطر سأواجه.

أفتح جفنيّ الملتصقين وأكتشف منظراً مهيباً وموحشاً في آن معاً.

لم يزل الوقت ليلاً، لكن لون السماء بدأ ينجلي. وعلى مدّ النظر، لا أرى إلّا حطام سفن. قوارب من كلّ الأحجام أكَلَها الصدأ: زوارق بخارية قديمة، سفن شحن، قوارب شراعية صواريها محطّمة، سفن صيدٍ بشباكٍ عملاقة، مراكب أجرة، زوارق إنزال وحتى كاسحات جليد.

مئات وآلاف المراكب دُفنت في مقبرة السفن.

.1

كنتُ حقاً عاجزاً عن تحديد مكان وجودي.

لا أثرَ في الأفق لناطحة سحاب مألوفة: اكتشفت بضع رافعات برجية، مداخن صناعية وشعلة مصفاة متوهّجة.

لم يكن المكان مضيافاً. لا أثر لأيّ وجود بشري حول المكان. صمتٌ لا يعكّره سوى خرير ماء، وصرير، وطقطقة حبال وزعيق نوارس تحوّم محلقة في سماء زرقاء معتمة.

رحتُ أرتعد وأسناني تصطك. البرد قارسٌ. ولا أرتدي إلّا بنطال كتان، وقميصاً رقيقاً وسترةً أخفّ من أن تقيني برودة طقس كهذه. لسعاتُ الشتاء تقرص وجهي. فتسيل دموعي على وجنتيّ.

وكي أدفّئ جسدي، فركتُ كتفيّ ونفختُ في يديّ، لكن هذا لم يكف. إذا بقيتُ ساكناً فترة أطول، أخشى أن أتجمّد في مكاني.

قدماي تغوصان في سبخة. ليس ثمة أيّ رصيف بحري. إنه ليس حوض سفن، وإنما مجرد مكبّ قمامة بحري تهترئ فيه مراكب مهجورة في مياه راكدة.

إنه مشهد نهاية العالم، رهيبٌ ومرعب.

الوسيلة الوحيدة لمغادرة هذا المكان هي السير على امتداد

الشاطئ. تركتُ ورائي هياكل سفن الأشباح وقطعتُ مائة متر في الوحل حتى بلغتُ الجسر الصغير الوحيد الذي مكّنني من الوصول إلى شاطئ رملي.

طأطأتُ رأسي وجسدي يرتعد لأحمي وجهي من رياحٍ قارصة تلفحني من الأمام وأخذتُ أركض.

وبعد بضع خطوات، لم أعُد أشعر بجسدي. أخذَت رئتاي تحترقان، وكلما استعدتُ أنفاسي، احترق منخريّ وحلقي من البرد. إنه برد قارص جداً حتى إنه خدَّر جميع أعضائي.

وحتى لم أقوَ على التفكير، كأنّ دماغي تجمَّد هو أيضاً.

كنتُ أركض منذ عشرين دقيقة حين وصلتُ أخيراً إلى مدخل مجموعة سكنية مؤلِّفة منازل صغيرة بطابقين مكسوّة بألواح خشبية رقيقة مطلية. توقفتُ أمام أول مسكن. وهو متدثِّرٌ بسترة فراء ذات قلنسوة، راح رجلٌ عجوز يحرق كومة من أوراق الشجر يابسة وسط حديقته.

- هل أنتَ تائه؟ سألني فور أن رآني.

كان يعتمر قبعة راعي بقر وله شاربان طويلان مصفران من التبغ.

انحنيتُ إلى الأمام، ويداي على ركبتيّ، ورحتُ أسعل سعالاً شديداً. كنت أشعر بالدوار وقلبي يخفق بقوة.

- أين نحن؟ سألتُ لاهثاً بين شهقتين.

حكَّ العجوز رأسه ومجّ مضغة تبغ كما في أفلام رعاة البقر.

- أين نحن؟ حسنٌ، في مقبرة ويت مارين للسفن.

- وأين تقع بالضبط؟

- في روسفيل، ستاتن آيلند.

- وهل مانهاتن بعيدة؟

- المدينة العظيمة؟ أف، عليك أن تحسب أكثر من ساعة بالباص حتى العبّارة. ثم زمن العبور وما شابَه.

وأنا خائبٌ، أخذتُ أتجمّد في مكاني بكلّ معنى الكلمة.

- لستَ على ما يُرام، يا فتى، لاحظ. هل تريد الجلوس واحتساء كأس نبيذ ساخن؟

- أشكركَ، يا سيدي.

- اسمي زكريا، لكن يمكنك أن تناديني الشيخ، مثل الجميع.

- آرثر كوستيلو...

وبينما أتبعه إلى المنزل، اقترح:

- يمكنني أن أعطيك ثياباً على مقاسك أيضاً. لدي خزانة مليئة بالملابس. كانت لابني. لنكولن، هذا اسمه. كان متطوعاً في الصليب الأحمر. مات منذ سنتين في حادث دراجة نارية. أنت تشبهه قليلاً...

شكرته مرة أخرى.

- في أيّ يوم نحن؟ سألته ونحن نصل إلى درج المدخل.

- الجمعة.

- في أي تاريخ؟

بصق عصارة مضغة تبغه وهزّ كتفيه.

- حسنٌ، إذا صدّقنا جميع هؤلاء الصحافيين المأجورين، سيبدو أننا في آخر يوم للعالم.

قطبتُ حاجبيّ. وتابع:

- في منتصف الليل، ستغدو جميع الآلات مجنونة. خطأ

بالتاريخ في الدارات، كما يزعمون. أمّا أنا فأظن أنّ كل هذا هو هراء.

وجدتُ صعوبة في فَهم ما يقوله لي. دخلتُ إلى الصالون حيث بقي جهاز التلفزيون مشغّلاً. نظرتُ إلى الشريط أسفل الشاشة، وفهمتُ على الفور.

كنا في 31 ديسمبر من عام 1999.

عشية «نهاية العالم».

.2

وجدتُ باباً مغلقاً عند وصولي إلى منزل ليزا. استغرقتُ وقتاً طويلاً حتى غادرتُ ستاتن آيلند واجتزتُ مانهاتن إلى مورنينغسايد هايتس. وكما في كلّ عام خلال فترة الأعياد، كانت جحافل السياح تتدفق على نيويورك. لم تكن احتفالات الألفية في هذا اليوم من 31 ديسمبر تلائمني. فالشرطة قسَّمت المدينة إلى مربعات أمنية. وحول تايمز سكوير، أُغلقت عدة شوارع أمام حركة السير، وهو ما أدّى إلى اختناقات مرورية في أنحاء ميدتاون.

والمرأة التي أحبّها لم تكن موجودة.

أو الأصح، كانت في كلّ مكان. نهاية عام 1999 هذا، كانت صورة ليزا، الملتقطة بالأبيض والأسود لصالح حملة كالفن كلاين، معلّقة في كلّ مكان تعتبره نيويورك مخصصاً للإعلانات. صادفتها على اللوحات الزجاجية لمواقف الحافلات ومقصورات الهاتف، ورأيتها ترفرف على جوانب الحافلات وعلى ظهر سيارات الأجرة. صورة مصغّرة وجمالية: بشعر مبلول، ونهدان عاريان تغطي ذراعٌ جزءاً منهما بحشمة زائفة، نشرت ليزا صورتها على شاطئ هامبتونز.

شنّفتُ أذني، محاولاً التقاط مواء ريمنغتون. لكن يبدو أنّ الهرّ غير موجود في الشقة أيضاً.

ولأتأكّد، طرقت الباب بضربات قوية.

- لا داعي لإلحاحك هكذا! أنت ترى جيداً أن الآنسة الصغيرة ليست في بيتها!

لفافات شعر على رأسها، وخبث في زاويتَي شفتيها، ظهرت لينا ماركوفيتش، الجارة العجوز في الشقة المقابلة، على عتبة بابها. وفي إثرها، أطلّ ريمنغتون رأسه، ثم جاء يتمسّح بساقيّ.

- طاب يومك، سيدة ماركوفيتش. أنتِ مَن ترعين قط ليزا؟

- يا لفطنتك، أيها الشاب!

- هل تعرفين أين هي؟ سألتها وأنا أحمل القط بين ذراعيّ.

- جاءتها فرصة لتذهب في إجازة. أما أنا، فليس في معاشي ما...

- أين ذهبَتْ؟ قاطعتها وأنا متسمِّر أمامها.

أشارت العجوز بحركة مبهَمَة من يدها.

- إلى الجزر.

- الجزر؟ أية جزر؟

- هذا ما أعرفه، أنا!

كانت هذه المرأة تغيظني. إنها نوع من القرين الأنثوي الشرير لزكريا، حارس مقبرة السفن الذي لم يبذل، هو أيضاً، أيّ جهد لمساعدتي.

- بالتأكيد تركت لكِ رقم هاتف؟ ألححتُ.

هزت ماركوفيتش رأسها، لكنني عرفتُ أنها تكذب. وبسلطوية، تقدمتُ خطوة إلى الأمام لأدخل مسكنها. حاوَلَت منعي، لكنني لم

أتردّد في دفعها وإغلاق الباب خلفي، تاركاً إياها على صحن الدرج بثوب النوم وخُفّيها.

كانت الشقة عبارة عن حجرتين ظلّتا على حالهما من دون تجديد. خمسون متراً مربعاً تخثرت عند أعوام 1970: مشمع أرضيات مصفر، ورق جدران بزخارف هندسية، أثاث من الفورميكا، أرائك من جلد أصهب. كان الهاتف فوق رفٍّ من الميلامين البني مثبتٍ في ردهة المدخل. وقرب الجهاز، رزنامة، ومفكرة، ودليل هاتف ولصاقات ورقية عديدة. على إحدى الفراشات اللاصقة، وجدتُ ما أبحث عنه: **إليزابيث آيمس، منتجع بلو لاغون، موريا**. يتبعها رقم من اثني عشر عدداً.

موريا. دونتُ اسم الجزيرة واستغرقت لحظة حتى استوعبت ما يعنيه ذلك عملياً: كانت ليزا في البولينيز الفرنسية ولن أستطيع رؤيتها هذه السنة.

لا.

رفعتُ السماعة وطلبت الرقم.

– منتجع بلو لاغون، بماذا يمكنني أن أخدمك؟ سأل صوت بالفرنسية.

– أودّ التحدث إلى الآنسة إليزابيث آيمس.

– بالتأكيد، سيدي، ولكن. . . أنت تتكلم من الولايات المتحدة، أليس كذلك؟ لأن الساعة الآن، مع فارق التوقيت، هي الخامسة صباحاً و. . .

– أيقظيها، فالأمر مهم جداً. أخبريها أنّ آرثر كوستيلو يطلبها.

– حسنٌ، سيدي، سأرى ما يسعني فعله.

وبينما كانت عاملة تضعني قيد الانتظار، رأيت باب المدخل

يهتزّ تحت ضربات عنيفة. ألقيت نظرة من منظار الباب: حدث ما كنتُ أخشاه، استنفرت لينا ماركوفيتش قسماً من سكان المبنى أمام بيتها. استرقتُ السمع: لم يكن في فم الجميع إلّا كلمة واحدة: «اتّصلي بالشرطة!».

- آرثر؟ أنتَ في مانهاتن؟

أغمضتُ عينيّ. كان سماع صوت ليزا سلوى وعذاباً في آن معاً.

- أنا في بيتكِ، أو الأصح في منزل جارتك الساحرة. استيقظتُ منذ أربع ساعات في إحدى الزوايا الأكثر بؤساً في ولاية نيويورك. لدي رغبة جامحة لرؤيتك! أشعر بخيبة أمل فظيعة!

- اسمع، أنا...

لاحظت فوراً أنّ ثمة خطب ما في صوت ليزا. لا حماس، ولا أيّ إثارة. لا تشاركني مشاعري، إنني شبه متأكّد من ذلك. أحسستُ بالغضب يتملّكني.

- هل يمكنني أن أعرف ماذا تفعلين في البولينيز؟

- أنا مع فريق من فرقتي المسرحية. ذهبنا للاحتفال بالعام الجديد في الشمس.

كنت أغلي داخلياً: تتنعّم بعطلة في الطرف الآخر من العالم وهي تعرف أنني يمكن أن أصل في أيّ لحظة؟ إذاً جازفت عمداً بتفويت موعدي. هذا التقييم أخرَجَني عن طوري.

- لا أفهم: سافرتِ لتأخذي حماماً شمسياً مع أنك تعرفين حقّ المعرفة أنني سأعود قريباً؟ كان بوسعك أن تنتظريني، رغم كل شيء!

رفعَت صوتها بدورها.

- ولكن ماذا تريد، بالضبط؟ أن أوقفَ وجودي؟ أن أتخلى عن

حياتي الاجتماعية؟ أن أبقى مسمّرة في بيتي أنتظر بفارغ الصبر قدوم اليوم الأوحد والوحيد في العام الذي يمكننا أن نكون فيه معاً؟ منذ أربعة عشر شهراً أنتظرك يا آرثر! أربعة عشر شهراً!

تنهدتُ. استوعبَ دماغي منطقها تماماً، لكن قلبي كان يتمزق.

فجأةً، سمعتُ -أو خلتُ أني سمعتُ- صوتَ رجلٍ وراءها.

- لستِ وحدكِ في غرفتك؟ هل معكِ رجل؟

- أعتقد أنّ هذا ليس من شأنك.

كانت هذه الغيرة المفرطة إحساساً جديداً بالنسبة لي. لم أكُن تملكياً قط. انفجرتُ.

- كيف هذا ليس من شأني؟ كنتُ أعتقد أننا معاً. كنتُ أعتقد أنك تحبينني!

صمتَت ليزا للحظة مديدة.

- لم أقُل لك قطّ إنني أحبك يا آرثر. وحتى لو كانت هذه هي الحال، لا أرى نهاية لقصتنا. أن أحبك، هذا لا يعني سوى العذاب. إنه أسوأ من أن أكون زوجة سجين يمكنني أن أزوره في قاعة استقبال. وأسوأ من أن أكون زوجة جندي يمكنني على الأقل انتظار إجازاته!

دوّت صفارة إنذار تحت النافذة تماماً. انحنيتُ ورأيتُ سيارتَي شرطة تركنان بمحاذاة الرصيف. اندفع عدد من رجال الشرطة بالزي الرسمي من السيارتين وتلاشوا في بهو المبنى.

وأنا في غاية الغضب، ذكّرتُ ليزا بالكلام الذي قالته قبل بضعة أشهر.

- أنتِ نفسكِ مَن زعمتِ أنّ المنارة وحدتنا وأنك تشكلين أنتِ أيضاً جزءاً من قصتي!

احتدّت.

- حسنٌ، لقد أخطأت، ماذا تريدني أن أقول لك؟ ليست أول مرة أتحمّس فيها لشخص بعيداً عن العقل. كادَ هذا أن يقتلني سابقاً، وأنت أكثر مَن يعرف ذلك.

ضجّة دحرجة جعلتني أرفع رأسي. وبينما كان عناصر الشرطة يطرقون الباب ويأمرونني أن أفتحه لهم، سدَّدت لي ليزا الضربة القاضية.

- آرثر، لا يمكنكَ أن تطلب مني التوقف عن الحياة لأنتظرك. لم أعُد أريد أن نلتقي. أبداً. لا أستطيع مساعدتك ولا أريد أن أتعذّب، قالت قبل أن تغلق السماعة.

بغيظٍ، حطّمتُ هيكل التلفون البلاستيكي على حافة الرف. وفي اللحظة ذاتها، انخلع الباب وارتمى عليّ شرطيان.

استسلمت لهما من دون مقاومة. وبعد أن قيّداني بالأغلال، جرّاني على السلالم ثم على الرصيف.

- وهذا أيضاً واحد سيقضي سهرة رأس السنة في السجن، قال أحد رجال الشرطة وهو يقذفني إلى المقعد الخلفي لسيارة الفورد كراون.

لم يكن مخطئاً: فاللعبة انتهت لهذا العام.

2000
الغرفة الروسية

احتضن البحر بنظرة وأدرك العزلة اللانهائية التي يعيشها. ومع ذلك ظلّ يرى موشورات في الأعماق المظلمة.

إرنست همنغواي

.0

البرد من جديد.

هواء جليدي يخترقك، يعبرك، يشلّك.

أرتجف من رأسي حتى قدميّ. أنفاسي تتقطّع، شفتاي متجمدتان، شعري مبلّل، ووجهي مغطى بمسحوق جليدي.

أفتح بصعوبة أجفاني الملتصقة، وأحاول أن أنهض، ولكنني أنزلق وأجد أنفي. . . في سجادة من ثلج.

أقف من جديد مستنداً إلى حاجز درج وأمعن النظر لأقرأ أسماء الشوارع.

أنا على رصيف شارع مقفر من الإيست سايد. على ناصية الجادة A وتومبكينز سكوير بارك.

يُذهلني الصمت الغريب في مانهاتن. حولي، تتدثر المدينة

بغطاء من الصدف. وعلى طبقة ثلج سميكة تنعكس سماء رمادية متلألئة لم تزَل ندف ثلج تتطاير فيها.

.1

لحسن الحظ، كنتُ بكامل ملابسي. لم أزل أرتدي سترة الصليب الأحمر، والكنزة وجزمة الفراء الذين أعطاهم لي زكريا، حارس مقبرة السفن. لم تكن آخر ذكرياتي سارّة: فقد قضيت ليلة رأس السنة في زنزانة في الدائرة 24 برفقة سكّيرين ومدمني المخدرات. لم أشرب الشامبانيا، لكنني عانيتُ صداعاً وغثياناً كأنني شربتُ حتى الثمالة.

تقدمتُ بضع خطوات حذرة في شارع مستقيم. كان حلاق يمسك رفشاً ويُجَرِّفُ الثلج عن مدخل صالونه. أصختُ السمع إلى نشرة أخبار يبثّها مذياع يحمله معه.

«العاصفة الثلجية التي تضرب شمال شرق البلاد تبدو الأسوأ منذ خمسة أعوام. في نيويورك، تجاوزت سماكة الثلج المتساقط خمساً وثلاثين سنتيمتراً في فترة الصباح، وبدأت الكاسحات في تجريف الشوارع الرئيسة. عمدة المدينة، رودولف جولياني، أعلن منذ قليل عن إعادة فتح وشيكة لمطارات المدينة الثلاثة الرئيسة، لكن العديد من سكان بروكلن وكوين لا يزالون من دون كهرباء. استمرار تساقط الثلوج قد يعكّر أيضاً احتفالات رأس السنة غداً. . .».

فجأةً، توقفتُ. على الرصيف المقابل، لوَّح لي رجل يرتدي

معطفاً بيده. في البداية لم أعرفه. كان يعتمر قبعة فراء ويرفع وشاحاً ملفوفاً حول عنقه حتى عينيه، كأنه قناع. ثم هتف باتجاهي:

- مرحباً يا ولد، يسرّني أن أراك!

2.

استمرّ عناقنا أكثر من دقيقتين. سرَّني أن ألتقي سوليفان. فقد اشتقتُ خلال السنوات الثلاث الأخيرة إلى جدي شوقاً أكبر ممّا أردتُ الاعتراف به له.

- متى رجعت؟ سألني، ويداه على كتفيّ.

تجاوز الثمانين عاماً، لكنه لم يزل يبدو بصحة جيدة: مشية رشيقة، قامة مصارع، ونظر صافٍ وثاقب، ولحية كثّة لكنها مشذّبة بعناية.

- منذ لحظة بالضبط، أجبت. استيقظتُ للتو مستلقياً على الرصيف، في طرف الشارع.

- كما ترى، لا يوجد صدفة! هنّأ نفسه بصيغة جامعة مانعة بعض الشيء. تعالَ معي، الجو بارد هنا!

- أين سنذهب؟

- إلى المكان الوحيد في نيويورك الذي لن تتجمد فيه بالتأكيد مؤخراتنا اليوم!

رافقته حتى لافتة منعزلة في الشارع 110: حمامات روسية وتركية.

«الحمامات الروسية والتركية» هي منشأة مشهورة منذ مئة عام في لوير إيست سايد. سبق أن سمعتُ بها، لكن لم يخطر ببالي قط أن أدخلها. أما سوليفان، فعلى العكس، يبدو أنه اعتاد التردّد

عليها. باللغة الروسية، حيّا إيغور، العامل الذي يستقبل الزبائن: شخص طويل ونحيل بطول مترين وهيئة جافة وحادة. كان العملاق يرتدي قميصاً تقليدياً من الكتان المطرّز، وينحت قطعة خشبية بنصلٍ طوله عشرون سنتيمتراً. حين لمحَ جدّي، غرز سكينه في خشب طاولته وجاء للقائنا.

قدّم لنا رداءي حمام ومناشف وزوجين من القباقيب، ثم قادنا إلى غرفة ملابسنا. كانت الحمامات شبه خالية بسبب العاصفة. بعد ارتداء ملابس الحمام، تبعت سوليفان عبر متاهة ممرات وسلالم معقدة. اجتزنا الحمام والجاكوزي وصالة التعرّق والعلاج الفيزيائي لنصل إلى الحجرة التي اشتهرت بها المنشأة: «الغرفة الروسية». كانت حجرةً كبيرة مجهّزة بفرن ضخم جداً ذي حجارة حارقة. ومنذ الثواني الأولى، أراحتني حرارتها الجافة والشديدة. وبتأثير درجة الحرارة، شعرتُ بمسامات جلدي تتسع، وجيوبي التنفسية تنفتح، والدم يروي جسدي بحيوية جديدة.

جلس سوليفان في أعلى الدرجات الصخرية وأشدّها حرارة.

– أفضّل أن أخبرك بالأمر فوراً، بدأ وهو يدعوني بحركة من يده إلى الجلوس بجانبه. ليزا ليست في نيويورك الآن.

لم أحاول إخفاء خيبة أملي.

– إنها تلتقط صوراً في البندقية لصالح علامة مجوهرات تجارية.

البندقية... حتى لو لم تعد ليزا تريد أن تكون جزءاً من حياتي، فإنّ معرفتي بأنها تبعد عني سبعة آلاف كيلومتر وَجَّه لي هذا ضربة معنوية قوية. وبينما رحتُ أمسّد صدغيّ بصمت، أكّد جدي:

– أخبرَتني بكلّ شيء. صدقني، اتخذتما قراراً حكيماً.

– لا يمكنكَ القول إنها تركت لي خياراً بالفعل...

أخذَت الحرارة ترتفع في الغرفة الروسية. نظرتُ إلى ميزان الحرارة على الجدار: إنه يشير إلى ما يقارب التسعين درجة.

- هذه الفتاة، أعجبتني على الفور، استأنفتُ وأنا أفرك جفوني. متقلّبة، حارة، ذات نزوات، متهورة...

سوليفان -الذي يعرفها أكثر مني- لم يستطِعْ كبح ابتسامته. أمّا أنا فانفجرت ببكاءٍ مفاجئ وغير متوقّع.

- تباً، لا أستطيع أن أصدّق أنني لن أراها ثانية!

بشيء من الانزعاج، ناولني جدي منشفة.

- اقلب الصفحة يا آرثر.

- هذا صعب، قلتُ وأنا أمسح وجهي.

- أعرف، ولكن فكِّرْ: لا يمكنك أن تطلب منها انتظارك. لا يمكنك الطلب منها أن تبقى مخلصة لك. ليس إنسانياً أن تطلب ذلك من أحد.

ولأول مرة، أستسلم.

- أنتَ محقّ بلا شك.

أغمضت عينيّ بضع دقائق، واسترخيتُ في جوّ الساونا المنعش.

- ولكنك أنت، نجحتَ في الاحتفاظ بحبّك لسارة، علّقتُ.

هزّ سوليفان كتفيه وتنهّد تنهيدة عميقة. وكما في كلّ مرة يتذكّر فيها ماضيه، أخذت عيناه تلمعان، ووجهه يتجهّم.

- كانت امرأة أخرى، وعصراً آخر، وجيلاً آخر. ثم انظر أين أودى بي ذلك. قتلتُ المرأة التي أحبّها ولم أستطِعْ فعل شيء لإنقاذ ابنتي.

كنت أعرف قصته، ونهايتها المأساوية، لكنه في ذلك اليوم، وأنا أسمعها للمرة الألف، أقلقني أمر ما.

- ولكن ماذا فعلت لتقنع سارة أن تنتظرك؟ كيف تصرفتَ حتى استطاعت أن تحبك وهي قليلاً ما تراك؟

نهض وهوَّى بيديه. ظننتُ أنه سيُجيبني، ولكنه عوضاً عن ذلك، تناول علبة خشبية مملوءة بماء متجمّد وصبها على جسدي.

- منعشة، أليس كذلك؟

أطلقتُ زعيقاً وهو يغادر مقهقهاً قهقهات مديدة.

وبينما كنت أرمقه بنظرة تقدح شرراً، ظهر فجأة عملاقان في الحجرة. روسيان برأس حليق، ووشم من القدمين حتى الرأس ويرتديان فقط سروالاً قصيراً وقميصاً داخلياً.

- حان موعد التدليك، أعلن لي سوليفان.

قبلتُ مع ذلك الإذعان لهذا الطقس بحذر. وفيما يتعلق بالتدليك، كان عبارة عن صوبنة شديدة للجسم بزيت الزيتون يتبعها نوع من الجَلْد بأغصان السنديان والبتولا. في البداية تذمرت، واستسلمت في النهاية «للجلد»، مأخوذاً بالرائحة المنعشة والبرية، وأنا أتابع حديثي مع جدي، المتمدّد على الطاولة المجاورة.

- ماذا فعلت في الأعوام الثلاثة الأخيرة؟

- ربحتُ الكثير من المال.

- حقاً؟ بفضل البورصة؟

همهم همهمة استحسان.

- بعتُ سبائكي الذهبية الثلاث عام 1995. وطرحتُ إجمالي المبلغ في التجارة. وفي غضون خمسة أعوام، تضاعف سهم بورصة ناسداك خمسة أضعاف. وبعتُ كلّ شيء في بداية العام قبل انهيار الأسعار.

- هل ثمة أزمة اقتصادية؟

- لا، بكلّ بساطة فقاعة تكنولوجية تنفجر. مجرد توقّع. أنت تعرف ما يقوله كينز: «الأشجار لا تبلغ السماء أبداً» فالتطهير سيستمر فترة طويلة، وبالنسبة إلى كثيرٍ من قطيع مستثمري رؤوس الأموال سيذهب كلّ شيء هباءً منثوراً.

ضحك ساخراً:

- المغفلون! لزمهم مع ذلك خمسة أعوام حتى يفهموا أنهم لم يكونوا يشترون ويبيعون إلّا رياحاً! فالشركات الناشئة لن تصبح مربحة أبداً، بالوعود المعسولة التي. . .

- وأنتَ، كنتَ أدهى من الآخرين؟

- تماماً، قال بلهجة راضية.

- وهذا المال، ماذا فعلتَ به؟

- حافظتُ عليه من أجلك.

ضحكتُ ضحكة حزينة.

- سأجدُ صعوبة في إنفاقه.

- لا تبصق على المال يا آرثر. إنه ميزان حرارة الحرية. حياتك أبعد ما تكون عن النهاية، وآمن بتجربتي: هناك دوماً لحظة في الحياة يكون امتلاكك فيها لبعض المدّخرات حاسماً في إنشاء مشروع ناجح.

.3

- هذا لكَ، أعلن جدي وهو يناولني جواز سفر.

وأنا أفتح الوثيقة المزيّنة بصورتي، تذكّرت فجأة ستان لو كوبيست، مزوّر الألفابيت سيتي.

- إنه «مزوّر بإتقان»، أليس كذلك؟

- تماماً، أكد سوليفان. عمل في غاية الإتقان. إنه تقريباً مثل الحقيقي.

كانت الساعة السادسة مساء. وقفنا في الطابور عند «روس ودوتر»، محل يهودي للمقبلات في إيست هيوستن ستريت يقدّم، بحسب سوليفان، أفضل كعك «بيغل» في المدينة.

بعد الحمامات، رجعنا إلى «المنزل». أمضيتُ بعد الظهر أمام المدفأة أستمع إلى التلفاز وأتصفّح صحفاً قديمة. علمتُ بموت فرانك سيناترا، وستانلي كوبريك، وجو ديماجيو، ويودي مينيهان. قرأتُ بهلعٍ مقالات عن إطلاق نار في ثانوية كولومبين. فهمتُ أنّ بيل كلينتونَ تجنّب الإقالة بعد قضية لوينسكي، وأن البلاد، بعد انتهاء إعادة فرز الأصوات الذي استمر خمسة أسابيع، انتخبت رئيساً جديداً منذ بضعة أيام: جورج دبليو بوش، ابن جورج بوش...

- الزبون التالي، من فضلكم!

تقدمتُ نحو طاولة البائع. كان يصعب عليّ أن أخفي قرقرة معدتي لشدّة جوعي. طلبتُ كعكتين بالسمسم مع سمك السلمون، ومخلّل القبار، وبصل وكريم الجبن، وجلستُ مع سوليفان على إحدى الطاولات قرب المدخل.

ولم نكد نجلس، حتى فتح مخططاً قديماً لمنارة 24 ويندز لايتهاوس.

- في الأعوام الأخيرة، أجريت أبحاثاً عن تاريخ المنارة، بناؤها، هندستها المعمارية. اطّلعتُ على كلّ شيء في محاولة لفهم اللعنة التي تصيبنا.

- وهل عثرتَ على شيء؟

- لا شيء محدّد، للأسف. وهذا يتطابق مع ما اعتقدته دوماً: لا نستطيع تحطيم هذه اللعنة.

- أما أنا، فأرفض الاستسلام، قلت وأنا أعضّ على كعكتي.

- أنتَ تفعل ما تريد، ولكنك تلقي بنفسك في معركة خاسرة سلفاً، ولستُ واثقاً من أنّ هدر وقتك هو أفضل الخيارات.

التهم سمكة رنكة بالخل قبل أن يتابع:

- أعتقد أن المنارة هي تجسيد الحياة. تجسيد القدر، بدقة أكبر. لذلك لا يمكنك أن تصارع القدر.

أنهيت كعكتي الأولى ونقرت السمسم عن خبز سندويشتي الثانية.

- لا أؤمن بالقدر.

- أنا أحدّثك بالأصح عن «طبيعة الأشياء» غير القابلة للتبدّل. هل تعرف كيف كان الفلاسفة القدماء يعرّفون القدر؟

هززت رأسي. فقال:

- «العلة الأبدية للأشياء، التي بمقتضاها حدثت الأحداث الماضية، وتحدث الأحداث الحالية ولا بد للأحداث المستقبلية أن تحدث».

- لن أستطيع أبداً الاعتقاد أن الحياة مكتوبة سلفاً. لكان الأمر سهلاً للغاية: ما من مسؤولية شخصية، وما من ذنب، ما من حافز للفعل...

بدا سوليفان حكيماً.

- بعض الأمور تحدث لأنها يجب أن تحدث، والوسيلة الوحيدة لعدم معاناتها، هي تقبّلها والتأقلم معها.

كنت متشكّكاً. راودني إحساس أن سوليفان يسعى بهذه الجمل الجميلة إلى خداعي.

فرضت عليه فكرة أخرى.

- ألم تفكّر قط أنّ ما يحدث لنا هو بالأحرى نوع من العقاب؟

- عقاب؟

- قصاصٌ لنكفّر عن ذنب.

أشاح بوجهه ونظر إلى المدينة البيضاء من خلال النافذة، كانت حركتها جامدة وراكدة تحت قشرة الثلج.

- ولكن أيّ ذنب؟ سأل جدي.

لم يكن عندي أي فكرة عن هذا.

4.

بعد عودتنا إلى البيت، وضع سوليفان حطبة كبيرة في المدفأة، وصبّ لنا قدحَين من نبيذ الشيري وأشعل سيجاراً.

وطيلة السهرة، راح يُطلعني على محاسن الإنترنت. وعلى حاسوب مدمج وملون، مغلف بغلاف بلاستيكي على شكل بيضة، علّمني تصفّح وإرسال الرسائل الإلكترونية.

ثم صبَّ لنفسه قدحاً آخرَ وانتهى إلى النوم على أريكته. أمضيت الليل في سبر الفضاء الإلكتروني وسماعات رأس على أذني. أنشأتُ عنوان بريد إلكتروني لي، واستمعت إلى الأغاني الرائجة (المذهلة **ماريا ماريا** لكارلوس سانتانا، و**كاليفورنيكشن** لرِد هوت تشيلي بيبرز و**يوم جميل** ليو تو وأغنية **ستان** لفنان راب يُدعى إيمينيم)، وبقيتُ ساعات على مواقع الصحف وفي غرف الدردشة التي تسهب في الحديث عن ظاهرة هاري بورتر وعن آخر مقالة علمية حول فك شيفرة الجينوم البشري. كنت منهمكاً في استكشاف موقع رد سوكس (فريقي المفضل في البيسبول) حين رأيت الشمس تشرق.

استيقظ سوليفان. تناولتُ الفطور معه. ثم أخذتُ حماماً، وارتديت على عجل ثياباً نظيفة، وحذاءً متيناً وسترة الصليب الأحمر الفضفاضة.

- لا تنسَ أن تأخذ نقوداً! لا تعرف إطلاقاً أين يمكن أن تهبط، نصَحني جدي وهو يفتح خزنته ويدسّ في جيبي رزمة أوراق نقدية من فئة الخمسين دولاراً.

أنهيتُ استعدادي للرحيل، وجلستُ على الأريكة، مثل مستكشف قبل أن يبدأ الصعود.

- نلتقي العام القادم، اتفقنا؟ في مثل سني، الزمن ينفد، تذمّر سوليفان.

- بالتأكيد، وعدته. وفي مثل سني، يمر سريعاً.

- هذه السترة الحمراء، لماذا تصرّ على ارتدائها؟ مازَحَني ليواجه انفعال الوداع الذي يوشك أن يتملّكنا.

- أحبّها كثيراً...

وبينما راحت رائحة زهر البرتقال تدغدغ منخريّ، شعرتُ بمعدتي تتشنج. وبالكآبة الملازمة لكلّ رحيل، والقلق لعدم معرفتي أين سأستيقظ...

- ما هو المكان الأقل متعة الذي هبطتَ فيه؟ سألتُ سوليفان.

حكّ رأسه، ثم أجابني:

- في صيف 1964، في وسط أعمال الشغب في هارليم. وجّه لي شرطي مغفل ضربة هراوة ما زلتُ أحمل ندبتها.

وبينما راح جسدي يرتجف، سمعته يعاتبني:

- لكن شعركَ مشعّث؟ كما تعرف يا آرثر، إنّ قفزك في الزمن لا يعفيك من التزام أناقة معينة...

2001
البرجان

[. . .] نادراً ما يرغب شخصان بالشيء ذاته في لحظة محددة من الحياة. أحياناً، هذا أقسى مظهر من مظاهر الوجود الإنساني.

كلير كيغان

.1

استيقظتُ على تشجؤ حمض لاذع يُشعل المريء.

حرقة شديدة في المعدة!

أفتح عيني، وأنظر إلى ساعتي. تجاوزت السادسة والنصف. الشمس تُرسل أشعتها الأولى من خلال النوافذ الخارجية. أسمع شخير شخص ينام بجانبي.

فيليب، على ما أعتقد. . . أو داميان.

أشعر بالغثيان والصداع. أفكاري مشوّشة. أبرح الفراش بحذر، وألتقط حمالة نهدي، وبنطالي الجينز، وقميصي وسترتي. أغادر الغرفة إلى الحمام. وهناك، أخضِعُ نفسي لحمام بارد تقريباً: بدل الصدمات الكهربائية لأستعيد رشدي.

فركت بقسوة وجهي بالصابون. بحاجة إلى استعادة النشاط والطاقة. أحتاج بشكل خاص إلى استرداد أفكاري الواضحة. في هذه اللحظة، حياتي تنهار. أخرج عن مساري وأضلّ سبيلي، وأفعل أي شيء. إفراط في الكحول، إكثار من الخروج، إسراف في مضاجعة أشخاص جميعهم مغفلين.

أخرج من الحمام، وأنشّف جسدي في رداء نظيف عثرت عليه في خزانة جدارية. أرتدي ملابسي بأقصى سرعة وأمرّ في الغرفة على رؤوس أصابع قدميّ. ليست لدي رغبة في فتح حديث صباحي مع ماشان الذي لم يزل يشخر لحسن الحظ.

في الصالون، أقترب من الكوة الزجاجية وأرى لافتة مطعم ذا أوديون الملونة. أنا في تريبيكا، عند زاوية توماس ستريت وبودوي. وبينما ألتقط حقيبة يدي، رحت أسترجع بالتدريج وقائع سهرة ليلة أمس: دعوة إلى افتتاح معرض لوحات فنية في رواق الفن تلاه عشاء لدى نوبو وسلسلة كوكتيلات في حانات مجاورة.

في المصعد، أخرجتُ هاتفي المحمول وتصفّحت الرسائل القصيرة.

عيد ميلاد سعيد حبيبتي ليزا!
أفكر فيك كثيراً. ماما

تباً، نسيتُ هذا أيضاً: اليوم، عمري ثمانية وعشرون عاماً.

2.

لم تكن زرقة السماء قط بمثل هذا الصفاء.

أنزل على طول تشيرتش ستريت وفي يدي كوب كابتشينو.

أسرّح شعري على زجاج الواجهات. هذا الصباح، لدي موعد في باتري بارك من أجل جلسة تصوير تنظمها مجلة نسائية. ولأنني أتابع العمل في المسرح وأجري وراء اختبارات الأداء، فإنني لا أكسب لقمة عيشي إلّا بفضل الصور الإعلانية. أعي جيداً أنّ هذا لن يعمر طويلاً وعيد ميلادي جاء الآن ليذكّرني بذلك. في العام المنصرم، رن هاتفي أقل من المعتاد: فالموضة تحتاج جسداً بضاً وأقترب بشكل خطير من تاريخ انتهاء الصلاحية.

إنها ساعة الذروة والأرصفة تعجّ بالناس: آلاف الأشخاص يلتحقون بأماكن عملهم. رجالٌ، نساءٌ، بيضٌ، سودٌ، آسيويون، ولاتينيون. دفق، تلاقح، طاقة.

شنّفت أذنيّ والتقطتُ أطراف حديث. العمل، الأولاد، العائلة، المشاكل العاطفية، ومشاكل الجنس. في الساعة الثامنة صباحاً في نيويورك، كل حياة هي رواية.

وصلت إلى مكان موعدي مبكراً. لون السماء الأزرق المعدني والنسمة العليلة يضفيان على رأس مانهاتن الجنوبي جمالاً مذهلاً.

- مرحباً، ليزا!

كنتُ أعرف أودري سوان، المصوّرة التي ستُدير الجلسة. فتاةٌ أحبها حباً جماً. أعرف أننا نتشارك خيبة الأمل الهادئة ذاتها. في العشرين من عمرها، كانت تحلم بتقديم تقرير عن الحرب وأنا كنت أريد أن أصبح ميريل ستريب. واليوم، نلتقط كلانا صوراً لصالح رالف لوران.

نحثّ الخطى وكل واحدة تتأبط ذراع الأخرى.

- هل وقعتِ عن السرير؟ تسألني. فالفتيات لن يصلن قبل نصف ساعة!

أرافقها إلى خيمة التجميل التي أقامها فريقنا وسط المنتزه. تخلّصني من أمتعتي وهي تعرض عليّ فنجان قهوة.

صبت لنفسها فنجاناً أيضاً وسنحتسيها على مقعد المنتزه حيث يعبر المارة والعداءون.

نثرثر في الشمس لبضع دقائق وخلفنا العَبَّارات وتمثال الحرية وإيليس آيلند.

مشاكلنا العاطفية، مشاكلنا الجنسية. حياتينا.

وفجأةً، يتوقف فتىً شاب على زلّاجات أمامنا. يضع يده كواقية من الضوء المبهر، يلتفت نحو الشمال، ويحدّق في السماء بطريقة غريبة.

بعد لحظة، نلتفت نحن أيضاً.

أحد برجي مركز التجارة العالمية مشتعل.

3.

- الأمر بسيط، بالتأكيد طائرة سياحية صغيرة تحطّمت في المبنى، يؤكّد بشكلٍ أخرق أحد الدرّاجين.

وخلال ربع ساعة، لا ننفك ننظر إلى عمود الدخان الأسود الذي يرتفع في السماء. تناولت أودري كاميرتها والتقطت صوراً عديدة لقمّة البرج الواقع على بُعد أقل من مئتي متر عنا. تستحضر عدّاءة ذكرياتها عن اعتداء 1993 الذي قَتَل ستة أشخاص، ولكن معظم الناس لا يزالون يعتقدون حتى هذه اللحظة أن الأمر مجرد حادث.

ثم تظهر طائرة أخرى في السماء. طائرة ينبغي ألّا تكون هناك، وألّا تطير على ارتفاع منخفض إلى هذا الحدّ. طائرة يشير مسارها غير المتوقع إلى انعطافة تؤول إلى اصطدام بالبرج الثاني.

صخب يائس يخترق المنتزه. سريالية الكارثة التي نشهدها تتركنا مذهولين لبرهة. ثم في أقلّ من دقيقة، ندرك أننا لم نعُد مشاهِدَين فقط، وإنما أيضاً ممثلين في دراما تُعرَض أمام أعيننا. إدراكٌ أطلقَ موجة هلع.

وبينما يركض معظم الناس نحو الشرق باتجاه جسر بروكلين، أقرّر أن أتبع أودري نحو مكان الاعتداء.

متسلحةً بآلة تصويرها، راحت في خضمّ تزايد الأضواء الدوارة تخلِّد الذهول والهلع والرعب. يبلبل القلق المسعفين، والأنظار تائهة، والحشد بلا هدى، هائماً، وفاقداً رشده، هارباً من قفير محترق.

على الأرصفة، ووسط الشوارع، أشكال مختلفة للرعب: أجساد تنزف، ممزقة، محترقة، تتلوى من الألم. وحشيةُ مشهدِ حرب. بيروت في وسط مانهاتن.

في كلّ مكان شظايا زجاجية، أنقاض، شظايا معدنية. آلاف الأوراق تتطاير في الفضاء. في كلّ مكان الفوضى، الدخان، يوم القيامة. في كلّ مكان الزعيق، الخراب، والتضرع لله.

انتشرت شائعة بين الحشد: طائرة ثالثة اصطدمت منذ قليل بالبنتاغون. وبعد أن يفقد رجال الشرطة سيطرتهم على الوضع، يدفعوننا إلى الهرب نحو الشمال.

أفتش عن أودري بالنظر، لكنها اختفت. أصرخ باسمها، فلا تجيبني. وبينما هي نجَت، استولى عليّ الخوف بدوري. أندفع إلى تشيرتش ستريت حينما ينطلق شخير رهيب. نخير اللوياثان وغضب التنين.

ألتفت وأتجمد وأنا أكتشف المستحيل: أحد البرجين ينهار. ناطحة سحاب تتهاوى كأنّ صاعقة ضربتها وتبتلعها الأرض في سحابة من الإسمنت والغبار.

أشعر بالرعب ويصيبني الشلل. الناس من حولي يزعقون، يركضون، يلهثون، يبحثون عن أيّ وسيلة لينجوا بجلدهم ويهربوا من وابل الرماد والفولاذ الذي يطمر كلّ شيء في طريقه.

انفجار متواصل. أرى موجة شظايا، أنقاض وجسور معدنية تتحطم، فوران مرعب.

أعرف أنني سأموت.

تباً، هل تقتصر حياتي على هذا فقط؟...

.4

لكنني لم أَمُتْ.

إنها الساعة 8 مساءً، من يوم 11 سبتمبر. أجلس إلى طاولة الشراب في الإمبانيادا باباس، بار المقبّلات الواقع على بعد شارعين من شقتي.

حين ضربتني العاصفة، شعرتُ بيد أودري تمسك يدي لتسحبني إلى داخل بقالية. استسلمنا لضربة الإعصار، ملتجئتين وراء براد، ورُكَبنا مضمومة، وأيدينا على رأسينا، وجسدانا متقوقعان. ومثل قشرة جوز وسط أمواج متلاطمة، اهتزّت البقالية ثم ابتلعها الطوفان، وطَمرها سيل من الأنقاض. حين نهضتُ، كنت وسط ليل نووي. الهواء رمادي، أسود، رصاصي. جسدي مغطّى بطبقة سميكة من الرماد.

أومئ للنادل أن يصبّ لي مرة أخرى. هنا، في شمال مانهاتن،

نحن بعيدون عن مركز التجارة العالمية، لكن المدينة تتأرجح هذا المساء بين حالة حصار ومنع تجوّل.

بالعادة تكون الحانة مكتظة ومبهجة، لكن ثلاثة أرباعها خالٍ اليوم. وزبائنها القلة سمّروا عيونهم على الشاشات: شاشة الهاتف لتبادل الأخبار؛ شاشة التلفاز حيث الصحافيون و«الخبراء» يخوضون باكورة جولاتهم ليفكّوا رموز الاعتداء.

أتناول جرعة كحول.

مثل الكثيرين من سكان نيويورك، كدتُ اليوم أفقد كلّ شيء. ولكن أفقد ماذا بالضبط؟

أي حياة؟ وأي حبّ؟

لو أنني متّ، مَن كان سيفتقدني حقاً هذا المساء؟

والداي، ربما. لكن من سواهما؟

ثمة ذكرى غريبة لم تزل تجول في رأسي. هذا الصباح، عندما ضربَتْ موجة الإسمنت، وحين أيقنتُ أنني ميتة لا محالة، فإنّ صورته هو، هي التي خطرت ببالي.

وجه آرثر كوستيلو.

وليس صورة أمي أو أبي. ولا صورة أي رجل غيره.

لماذا هو؟ منذ ثلاثة أعوام لم أرَه، لكن ذكراه تشغَل تفكيري بلا انقطاع.

معه، كنتُ بخير. واثقة، مستقرة، شامخة.

حين كانت نظرته تحدّق بي، كان يعتريني شعور نادر بأنني في مكاني الصحيح. فأصبح الفتاة والمرأة التي رغبتُ دوماً أن أصيرها.

لكن كيف أعيش مع رجل لا يوجد سوى يومٍ واحدٍ في السنة؟

رجلٌ لن يسعَكم أبداً أن تقدّموه لأهلكم.

رجلٌ لن تستطيعوا أبداً أن تقيموا معه مشروعاً حقيقياً.

رجلٌ لن يسعكم أن تحتضنوه في الأماسي الموحشة.

تباً!

أنهي قدحي بجرعة واحدة.

هذا المساء، ما أحوجني إليه بحيث أنني سأهب أي شيء لأراه يحطّ الرحال من جديد في حياتي.

عندئذٍ، وبطريقة شبه طفولية، أشبك أصابعي، وأغمض عينيّ وأبدأ الدعاء كما كنت في العاشرة من عمري. **يا إلهي، من فضلك أعِدْ لي آرثر كوستيلو! يا إلهي، من فضلك، أعِدْ لي آرثر كوستيلو!**

طبعاً، لا يحصل شيء. أرفع يدي مستسلمة لأطلب كوكتيلاً آخر.

وفجأة، تنبعث ضجة زجاج يتحطّم من المطبخ وتهزّ المطعم كله. كأن أحداً أوقع كدسة صحون. ثم تنطلق صرخة تجمّد كلّ الأحاديث. تلتفت الأنظار القلقة نحو خلفية الحانة. فينفتح باب المطابخ بجلبة مفسحاً المجال لرجل ظهر فجأة من العدم.

رجلٌ شعره مشعّث يرتدي سترة الصليب الأحمر.

القسم الرابع

قبيلة كوستيلو

2002
الهبوب الثالث

لا يسعنا أن نتنبأ بالأساسي. فكلّ واحد منا عاش أسعد الأفراح في الحياة دون أن يوعَد بها. وتركَت فينا حنيناً نتحسّر معه حتى على بؤسنا، ما دام بؤسنا سمحَ بها.

أنطوان دو سانت-أكزوبيري

.0

الضجيج المألوف لحركة السير.

نسمة فاترة، ربيعية. استيقاظ مريح بالأحرى.

أفتح عينيّ. أخمن أنه ضوء الفجر. أنا ممدّد على مقعد أخضر داكن من الخشب والمعدن. على رصيف جادة عريضة تحفّ بها أشجار الدلب.

رغم الهواء العليل والمحيط الرائع، أشعر على الفور بشيء غير مألوف.

أنظر بقلق إلى أرقام لوحات السيارات، وأقرأ بصعوبة اسم مطعم مُحاط بالخضرة -لا كلوزري دو ليلا- وأتأمل عمود موريس المنصوب بجانب المقعد -يُعلن عن ظهور قريب لفيلم عنوانه النزل

الإسباني-، أحدّق باللوحة التي تشير إلى اسم الشارع - بولفار دو موبارناس.

وأخيراً، أشنّف أذنيّ، وألاحظ أن جميع الأحاديث حولي بالفرنسية.

ولأول مرة، لم أستيقظ في نيويورك.

إنما في باريس!

.1

اجتزتُ الجادة راكضاً، أبحث عن مقصورة هاتف لأتصل بسوليفان. عثرتُ على واحدة أمام كنيسة نوتردام، لكن متشرّداً ينام داخلها. ألقيت بنظرة خاطفة إلى الجهاز، وأدركت أنني بطبيعة الحال لا أحمل بطاقة مصرفية. تركتُ الهاتف ورحتُ أشير لسيارة أجرة. شرحتُ لأول سائق توقّف أنني لا أحمل إلّا دولارات، ولكنني سأضاعف له أجره إذا تكرّم بإيصالي إلى المطار. أقلع السائق دون أن يكلِّف نفسه عناء الرد عليّ. لحسن الحظ، كان السائق الثاني ألطف ووافق أن يقلّني.

نظرتُ إلى ساعة لوحة القيادة: الساعة 7:30. ثمة نسخة من صحيفة لوموند موضوعة على المقعد. الصحيفة تحمل تاريخ يوم الأربعاء 12 يونيو عام 2002. يحتلّ عنوان عريض صفحتها الأولى تعلوه صورة لاعب كرة القدم زين الدين زيدان.

المونديال: فرنسا تخرج.

خسارة قاسية لأبطال العالم الزرق عام 1998

امام الدنمارك 2 - 0

هذه المرة، لم أكتفِ بقفزة في الزمن لتسعة أشهر. وإنما استيقظت بوضوح في قارة أخرى.

من خلال زجاج النافذة، نظرت إلى شاخصات تتتالى وتشير إلى أماكن لم أسمَع بها قط: بورت دو بانيوليه، نوازي-لو-سيك، بوندي، أولني-سو-بوا، فيلبانت... لم تكن حركة السير كثيفة. وفي أقل من ثلاثة أرباع الساعة، وصلتُ مطار شارل ديغول. وبناءً على نصائح سائقي، نزلت في المحطة الأخيرة، وهناك يمكنني، برأيه، أن أجد كوة بيع تذاكر دلتا إيرلاينز. وبفضل بصيرة سوليفان، وجدتُ دولارات تملأ جيوبي وجواز سفر أرجو أن يكون صالحاً.

بقيت هنالك أماكن شاغرة على متن رحلة الساعة 10:35. دفعت ثمن تذكرتي نقداً واجتزتُ بلا صعوبة مراقبات الهجرة والجوازات. وفي قاعة الركاب، اشتريت فنجان قهوة وخبزاً بالعنب. ثم حَوَّلت بعض الدولارات إلى يورو لأشتري بطاقة هاتف. من الأفضل أن أتأكد إن كانت ليزا موجودة فعلاً في نيويورك قبل أن أصعد الطائرة. طلبتُ رقم سوليفان مرات عديدة، لكن اتصالاتي ظلّت من دون ردّ. والأدهى هو فرق التوقيت، فالساعة في نيويورك كانت الثالثة صباحاً. وجدّي إمّا ينام ملء جفنيه، أو ليس في بيته.

من أحد الأكشاك، اشتريت مجلات أميركية: «حرب جورج دبليو بوش على الإرهاب ومحور الشر» تتصدر الأخبار. ثم نادوا على الركاب للصعود. وبسرعة، ألفيت نفسي جالساً على مقعدي، محشوراً بين أمّ تحاول تهدئة ولدها ومراهقٍ تفوح منه رائحة العرق يستمع إلى آلة تسجيله بصوت عالٍ.

خلال جزء كبير من الرحلة، تذكرت أحداث ليلة أمس. وبالتالي أحداث العام الماضي...

في يوم 11 سبتمبر المشؤوم عام 2001، تجسّدتُ في مطابخ الإمبانيادا باباس وفوجئت حين اكتشفتُ أن ليزا تجلس إلى طاولة الشراب كأنها تنتظرني. عندما رأتني، ارتمت على عنقي دامعةً. لقد أثارت الاعتداءات فيها ظمأ لا يرتوي للحياة. ورغم ذاك اليوم الفوضوي، تلاقينا وتطارحنا الغرام. بسرعة، وبلا تحفّظ، وبلا حساب لليوم التالي.

وحين «غادرتُ من جديد»، كانت نائمة في سريرها واختفيتُ دون أن نتطرق إلى مسألة مستقبلنا. ماذا يجب أن أتوقع بعد الآن؟ هل ستستقبلني بابتسامة أم بصفعة؟

بدت لي الرحلة بلا نهاية. حين هبطت طائرة الإيرباص في مطار جون كينيدي، قفزتُ في سيارة أجرة وأعطيت السائق عنوان شقة مورنينغسايد هايتس.

كانت الساعة تقارب الثانية عشرة ظهراً حين وصلت إلى زاوية الشارع. طلبت من السائق أن ينتظرني وصعدت السلالم بحذر. ضغطت جرس الباب، لكن أحداً لم يفتح الباب. ورغم احتياطاتي، سمعتني لينا ماركوفيتش، الجارة المشاكسة، إذ إنها خرجت إلى صحن الدرج متسلحةً بعبوة بخاخ مسيّل للدموع. حاولت أن ترشّني، لكنني لذتُ بالفرار لا ألوي على شيء. لم تكن في الحقيقة لحظة مناسبة للوقوع في قبضة الشرطة. ركبتُ سيارة الأجرة باتجاه واشنطن سكوير. طرقتُ باب سوليفان، ولم يحالفني الحظ كما في بيت ليزا. كنت على وشك أن أعود أدراجي حين رأيت مغلفاً كُتِبَ اسمي الأول فوقه، محشوراً بين مخالب أسد مطرقة الباب.

مرحباً يا ولد،

لم أؤمن بالله قط.

لكن لعلّني أخطأت.

لعله يوجد فعلاً مهندسٌ عظيم يترأس مصائرنا. ولعله يحدث له أحياناً أن يكون رحيماً.

أتمنى أن تعود اليوم...

أودّ لو تشهد ما تسنى لي أن أشهده بنفسي منذ زهاء أربعين عاماً.

لا أؤمن بالله ومع ذلك، منذ عدة أسابيع، يلهج لساني بالدعاء وأنا منزوٍ في ركني. من دون أخ في الدين، ودون أن أعرف أي كلمات أستخدمها، ومن دون حتى أن أعرف ما يمكنني أن أعد به بالمقابل.

إذاً، إن كان ثمة إله حقاً على هذا الكوكب السيّئ وإذا عدتَ اليوم، فلا تُضِعْ دقيقة واحدة! تعال لرؤيتنا في قسم الولادة في مشفى بيلفو.

أسرع!

ستصبح أباً!

2.

أركض.

أهرول في ممرات المشفى ترافقني إحدى الممرضات.

كانت آخر مرة جئت فيها إلى هنا منذ ثمانية أعوام. كانت ليزا قد ابتلعت كوكتيلاً من المنومات قبل أن تقطع شرايينها. في محاولة منها للانتحار.

وها هي اليوم، تهبُ الحياة.

العجلة تدور. يجب استيعاب الصدمات. يجب إظهار الجَلَد. يجب الانحناء. وتحمّل وابل المطر. والنجاة من الطوفان. معظم الوقت، ينتهي بندول الساعة إلى الانعكاس. ليس دوماً، وإنما غالباً.

وبشكل عام حين لا نتوقع ذلك.

فتحت باب الغرفة رقم 810.

ليزا ممدّدة على طاولة العمليات. سوليفان وقابلة يسهران على راحتها. إنها ممتلئة، رائعة، مشرقة. تحوّلت بشكل كامل. حين رأتني، صرخت وانفجرت في البكاء.

- لطالما انتظرتكَ! قالت ونحن نتعانق.

ثم أرتمي في أحضان سوليفان.

- يا إلهي، كنت أعرف ذلك! زمجر وهو يضمّني بقوة.

هو أيضاً اغرورقت عيناه بالدموع. لم أره قط سعيداً إلى هذا الحدّ.

- من أين أنت قادم؟

- من باريس. سأخبرك.

أنظر إلى بطن ليزا الضخم. لا أستطيع أن أصدق أن كل هذا حقيقي. لا يمكنني أن أصدّق أن دورنا جاء لنصبح أبوين.

- أنا طبيب، قلتُ للقابلة. كيف يبدو الوضع؟

- بدأت الانقباضات في الساعة العاشرة. وزوجتك فقدت ماء الرحم منذ ساعة. وكان عنق رحمها ستة.

- هل خدَّرها طبيب موضعياً؟

- أجل، لكن الجرعة كانت زائدة وأبطأت الانقباضات، أخبرتني ليزا. لم أعُد أقوى على تحريك ساقيّ.

- لا تقلقي يا حبيبتي. سننتظر حتى يخف تأثيره، ثم نحقنك بحقنة أخرى أخف.

ثم تركتنا القابلة بيتّي لوحدنا بضع لحظات. اغتنمتها ليزا لتُريني صور الإيكو المختلفة.

- إنه صبي! أعلنت بفخر. لقد أحسنت صنعاً بمجيئك اليوم، تصوّر أنني كنت أنتظرك لنختار اسمه!

أمضينا أكثر من ساعة يقترح كلّ منا ما يفضله. أدلى سوليفان بدلوه، واتفقنا أخيراً على بنجامان.

- في الواقع، حين ستتكرم في المرة القادمة بالمجيء لرؤيتي، لا تخطئ العنوان، نبهتني ليزا.

- لم أفهم...

- هل كنتَ تتخيل أنني سأربي ابنك في شقتي الصغيرة؟ نقلتُ مكان سكني!

هذه المرة، جاء دور سوليفان ليُخرج صوراً من جيبه. ناولني صور منزل جميل من الآجر في غرينويتش فيلاج. كنت أعرف زاوية كورنيليا ستريت وبليكر، قرب حانة الأوستر التي اصطحبني إليها لنأكل المحار عام 1995. في الصور، اكتشفت بتأثّر غرفة أطفال مجهزة: سرير، طاولة تقميط، خزانة، عربة أطفال، وغطاء فراء دافئ، وكرسي بحر...

وأنا أتصفح الصور، فهمتُ لأي غاية استخدم الأموال التي ربحها في البورصة.

ميزان حرارة الحرية.

- الدكتور قادم، أخبرتني بيتّي.
- ولكنني أنا الدكتور.
- ربما، يا سيدي، لكن لستَ أنتَ من سيُوَلّد زوجتك.
- إياك حتى التفكير بذلك! زادت ليزا.

وبانتظار طبيب النسائية، تثبت القابلة ليزا، قدماها في الركابين، وهي تذكّرها بالتعليمات كي تدير الانقباضات وتركّز على تنفسها. وبينما تظن ليزا أنها «تتدرب»، تدرك بالتدريج أن السباق بدأ.

- هيا، سنستغلّ كلّ انقباض لتدفعي، قال الطبيب النسائي وهو يحلّ على الحجرة مثل ضيف شرف.

خلال الدقائق العشر التالية، أمسكتُ يد ليزا، أشجّعها بغمزة، بإيماءة رأس، بمزحة.

من خلال خبرتي كطبيب، أرى أن الأمور تسير على ما يرام. سيظهر رأس الطفل بسرعة.

سبق أن مارستُ بعض حالات الولادة في المشفى، وأعرف أنّ حالات المغص القادمة هي الأكثر إيلاماً. أفلتت ليزا يدي وأطلقت صرخة. شهقت وهي تلهث، وغصّت، وبدت عاجزة عن الدفع، ثم استجمعت ما تبقى من طاقتها وألقت بآخر قواها في المعركة.

وفجأة، الخلاص. سكون. وقفة في الزمن.

قضي الأمر ومرّ باقي الجسد... وها هو رضيعنا يتلوى ويزعق على صدر ليزا. بنفسجي تماماً، متكور على نفسه ومفعم بالحياة الآن.

أقطع حبل السُّرّة وأنحني فوقه. تنظر ليزا إليّ. ينتابني التأثّر. دموعٌ، تعرّق، دم. إنه ميدان معركة من حرب نجونا فيها.

ومن الآن فصاعداً، صرنا ثلاثة.

.3

على مرأى من القابلة وجدّي، قدّمت لابني حمّامه الأول. استغرقتُ وقتاً في تأمله حقاً. إنه طويل ونحيل، جذعه ممتلئ، أصابعه صغيرة، مع أنها طويلة ورفيعة. شعره كثيف أسود، عينان واسعتان ورائعتان.

- شكراً على المنزل، قلت وأنا أنشّف الرضيع.

- لا شكر على واجب، رد سوليفان. لا تقلق. سأعتني بأسرتك في أثناء غيابك.

- وأنت، هل حالك على ما يرام؟ الصحة، وغير ذلك؟

انطلق يقهقه.

- لا تشغل بالك بي، يا ولد. هذا الطفل سيمنحني شباباً ثانياً!

وبينما يغادر جدي وبيتّي، أضع الصغير بن في حضني وأجلس على أريكة قرب النافذة المطلّة على سقوف المدينة المشمسة.

أشعر ببشرته على بشرتي.

وأبكي بهدوء.

أبقى لحظة مديدة وحيداً مع ابني، هذا الصبي الصغير المجبول في فوضى يوم مترعٍ بالرماد والخوف.

ماذا ستكون شخصيته؟ كيف سيتدبّر أمره في عالم مملوء بالأخطار؟ كيف لي أن أحبه، وأحميه، أنا الذي لا يوجد إطلاقاً؟

أمسح دموعي بذراعي. أشعر بثقل المسؤولية الممتزجة بالسعادة.

أعرف أنني سأغادر من جديد في غضون ساعات.

وللمرة الأولى، أشعر أنني أصلب وأمتن.

أنظر إلى الصغير الغافي، أستمد القوة من وجوده وأبتسم.

أي مغامرة، تباً!

أعيد التفكير في كل ما اجتزته حتى وصلت إلى هنا.

يجب أن أستمر في استيعاب الصدمات. من أجله.

ذات يوم، ستنتهي الدورة الجهنمية إلى التوقف.

واليوم هو علامة فارقة. لا تزال الحرب طويلة، لكنني أشعر أنني انتصرتُ للتو في معركة مهمة.

لن يعود شيء كما كان في السابق.

أستمر في تذوّق هذه اللحظة.

حياة جديدة تبدأ.

2003 - 2010
مسيرة الزمن

لم يزل أصغر من أن يعرف أن ذاكرة القلب تمحو كل الذكريات السيئة، وتضخم الذكريات الطيبة، وأننا بفضل هذه الخدعة نتمكن من تحمّل الماضي.

غابرييل غارسيا ماركيز

.1

استأنف الزمن مسيره.

تابعتُ الاستيقاظ مرة في السنة، ودوماً في مانهاتن أو في ولاية نيويورك. أحياناً في أماكن رائعة (سوق الزهور في الشارع 28؛ على أريكة وثيرة في كامبل أبارتمنت؛ على شاطئ روكاواي بيتش ذات صباح صيفي...)، وأحياناً في أماكن أكثر خشونة (هارت آيلند، في مقبرة نيويورك الجماعية؛ على الجادة 5 يدوسني حشد في أثناء موكب عيد القديس باتريك؛ على مسرح جريمة، في غرفة فندق حقير في بدفورد ستيفيسانت، مع جثة لا تزال دافئة تنزف دمها...).

نظمتُ روتيناً. أولاً، حرصتُ على ارتداء ملابس دافئة في كل وقت، وانتعال حذاء متين، ووضع ساعة يد، وحمل ما يكفي من

النقود لحظة رحيلي. ثم، عند استيقاظي، حسبما يتوفر لي، أقفز حالاً في سيارة أجرة وأعود إلى لقاء عائلتي.

كان بنجامان يكبر بسرعة. بسرعة زائدة.

وعلى مدار كلّ عام، راحت ليزا تُعدّ ألبوم صور وأفلاماً تتيح لي عند كلّ عودة أن أوهم نفسي أنني أعوّض شيئاً من الوقت الضائع. وأنا أراجعها، كنت أكتشف عيني ابني اللامعتين، ابتساماته الأولى. أولى كلماته «بابا»، «برافو»، «كوكو»، «إلى اللقاء». أول سنَّين في فمه اللذين جعلاه يشبه الأرنب باغز باني، خطواته الصغيرة المتردّدة، كتبه المصورة، دُماه، ألعاب البازل، نزواته، انزعاجاته، وهزّه المحموم لأردافه كلّما سمع الموسيقى.

وفيما بعد، عباراته الأولى، ركلاته الأولى للكرة، رسوماته الأولى للرجل الطيب أو المنزل، تنكّره بزي الكاوبوي، دراجته ثلاثية العجلات.

لم أكن موجوداً عند دخوله المدرسة، ولم أرَ أياً من استعراضاته نهاية العام. لستُ من علّمه التلوين أو الحساب. ولا أنا مَن حفّظته الأحرف الأبجدية، ولا مَن سحب العجلتين الخلفيتين من دراجته أو سواعد العوم المطاطية في المسبح.

حين كنت أعود إلى البيت، كنت أفعل ما بوسعي لأرتدي بزة «الأب». أب منقوط يعود دوماً على حين غرة، ويسيء السقوط أحياناً ويغادر بالسرعة التي جاء بها.

2.

ومع ذلك، عرفنا أياماً ممتازة. أياماً أصبحنا لساعات فيها أكثر ما تمنيناه في العالم: أسرة كغيرها من الأسر.

في عام 2006، في جزيرة كوني، يوم الاحتفال بالاستقلال. بن في سن الرابعة. أحمله على كتفيّ. الشمس في أوجها. أتسكّع يداً بيد مع ليزا على ممشى خشبي يحاذي الشاطئ ونتذكر بحنين أننا أتينا إلى هنا في عزّ الشتاء قبل أكثر من تسعة أعوام. سوف نسبح كعائلة، ونأكل هوت دوغ في مطعم ناثان الشهير، ونقوم بجولة في الأرجوحة الدوارة الضخمة وأخرى في قطار الجبال الروسية السريع. ومساءً، سننضم إلى سوليفان لنشاهد الألعاب النارية المنطلقة من ضفاف إيست ريفر.

وذات يوم أحد من نوفمبر عام 2007، استعدتُ وعيي على بُعد عشرات الأمتار من بيتنا، تحت مصباح في شارع كريستوفر ستريت. كانت الساعة تجاوزت الثانية عشر ظهراً حين قرعت جرس الباب. جدي هو مَن فتح لي. وكما في كل مرة، تعانقنا طويلاً.

- جئتَ في الوقت المناسب، قال لي.

وفيما أنا أقطب حاجبيّ، قادني إلى صالة الطعام. حول المائدة، التقيتُ لأول مرة بوالدَي ليزا.

- أخبرتكم مراراً أنه موجود! قالت وهي ترتمي بين أحضاني. بابا، ماما، أقدم لكما «الرجل الذي يختفي».

وانقضى النهار مع «حمويّ» كأنني أعرفهما من زمن طويل.

نهاية مايو عام 2008، الساعة الثامنة مساءً. إنه «الانقلاب الشمسي في مانهاتن». ظاهرة تحدث مرتين في العام. تجمّعت الحشود لتشاهد غروب الشمس التي تحاذي عند الغسق بشكلٍ مستقيم الشوارع الرئيسة في هذا الحي على المحور الشرقي الغربي.

ليزا وبن أمام البيت. ابني على دراجته وأمه تدير ظهرها ولا ترى قدومي.

- هذا بابا! صرخ حين رآني. بابا!

وفيما هو يدوس على الدواسات بسرعة، رأيتُ ليزا تلتفت. إنها حامل في الشهر الثامن تقريباً.

- إنها بنت صغيرة، أخبرتني وهي تضع رأسها في تجويف كتفي.

تأثرتُ كما في المرة الأولى.

- ولكنني وصلتُ هذه المرة أبكر من موعد الولادة...

باعدتْ ذراعيها لتُشير لي أن هذا ليس مهماً.

- كنت أنتظركَ لاختيار الاسم، ولكن تخطر ببالي فكرة. ما رأيك باسم «صوفيا»؟

وذات صباح سبت من صيف 2009، في شرنقة بيتنا الدافئة، بينما تنهمك ليزا بمتعة غريبة في تحضير شطيرة خبز بالزبدة المملحة والنوتيلا، أتناول غيتاري ذي الأوتار المعدنية وأضبطه على أغنية لليونارد كوهين.

وداعاً ماريان.

على كرسي عالٍ، ترافقني الصغيرة صوفيا، أميرتي الحسناء، وتعزف الإيقاع بملعقة تطرقها بحماس على صحنها البلاستيكي. وبن، متنكراً بزي هندي أحمر، يرقص رقصة المطر حول طاولة المطبخ.

وفوق طاولة العمل ثمة نسخة من مجلة التايم على غلافها صورة نمر البنغال مع عنوان مقلق.

أنظر إلى أولادي وأجدهم رائعين. بفضلهم أظلّ صامداً. يساعدونني على ألّا أستسلم، وعلى أن أظلّ مؤمناً بالمستقبل. ولكنني كلما نظرتُ إليهم، أتذكر العبارة المنقوشة على الصفيحة النحاسية: «بعد هبوب الأربع وعشرين ريحاً، لن يبقى شيء». وفي كلّ مرة، يذكّرني صوت هامس بتحذير سوليفان: **اعتبر أنّ كلّ ما ستبنيه ليس إلّا قصراً رملياً ستجرفه الأمواج. وهذه هي اللعنة الحقيقية للمنارة: في صبيحة اليوم الرابع والعشرين، سيتلاشى كل شيء. ولن يتذكّرك أحد ممّن صادفتهم.**

لم أنسَ هذا، لكنني قررتُ أن أعيش كما لو أنّ التاريخ لا يعيد نفسه حتماً. ومثل سجين يعدّ الأيام قبل إطلاق سراحه، رحتُ أعدّ السنين التي تفصلني عن الرحلة الرابعة والعشرين. يوم حسابي.

وذات مساء من ربيع عام 2010، حملتُ بن في أحضاني حتى سريره. غفا على أريكة في الصالون ونحن نشاهد نسخة من فيلم **أفاتار** على قرص مدمج.

أرقدته، وهدهدته، وقبّلته بحرارة. تموّنت بشكل خاص من رائحته حتى العام القادم. وبينما أتأهب لمغادرة الغرفة، أمسكني من كمّي.

- هل أنت ذاهب يا بابا؟

- أجل، يا كبيري، قلت وأنا أجلس على السرير.

- وأين تذهب الآن؟

- لا أذهب إلى أيّ مكان يا بن. أنت تعرف هذا حقّ المعرفة. سبق وتحدثنا في هذا الأمر.

اعتدل ابني في سريره واعتلى وسادته.

- ألستَ ذاهباً لرؤية أسرتك الأخرى؟ سألَ وصوته مشُوب بالقلق.

- لا يا بن، ليس عندي أسرة أخرى، لا تخف! ليس عندي سواكم: ماما، وجدك، وصوفيا وأنت. لا يوجد أحد آخر.

شعثتُ شعره. أصرَّ بغضب تقريباً:

- ولكنك حين لا تكون معنا، تكون حتماً في مكان ما! وإلّا هذا مستحيل!

وضعتُ يدي على كتفه:

- أعرف أنه يصعب فَهم هذا الأمر، لكن الزمن بالنسبة لي يسير بشكلٍ مختلف. شرحَت لك الماما ذلك مراراً.

تنهد وسأل:

- وهل ستصبح الأمور طبيعية يوماً ما؟

- آمل هذا.

- متى؟

- بعد خمسة أعوام، قلت. في عام 2015.

أجرى حساباً ذهنياً.

- في عام 2015، سيكون عمري ثلاثة عشر عاماً.

- أوافقك، ما زال هذا بعيداً... هيا، عُدْ إلى النوم الآن.

- هل يمكنني مشاهدتك وأنتَ تختفي؟

- لا، لا. هذه ليست لعبة ولا مشهد سحر. ثم إنني لن أرحل على الفور. سأبقى قليلاً أيضاً مع ماما.

من جديد، هدهدته وقبّلته.

- في أثناء غيابي، سأعتمد عليك لتكون لطيفاً مع شقيقتك وخاصة مع ماما.

هزّ رأسه وأكّد:

- حين لا تكون هنا، أنا رب المنزل!

- لا يا بن. ربة المنزل هي ماما. أما أنت، أنت رجل البيت. اتفقنا؟

- اتفقنا.

3.

أخذ الوقت يمضي بأقصى سرعة.

وها هو العقد الأول 2010 يُشرِف على نهايته.

أنهته أميركا مع عائلة بوش وأطلّت أعوام أوباما.

عند كلّ عودة لي، كنت أتابع مراقبة تبدلات العالم. اجتاح الإنترنت كلّ شيء، وافترس بضراوة كلّ شيء: الموسيقى، الكتب، السينما. صار الناس يعيشون مع الهاتف المحمول المزروع بأيديهم، يستطلعونه بنظرة شاردة كلّ ثلاث دقائق. آيفون، فيسبوك، غوغل، أمازون. . . أصبح كل شيء افتراضياً، رقمياً، غير ملموس: المراسلات، المقايضات، الأصدقاء، الترفيه.

في المحادثات، كانت الكثير من المراجع الثقافية تفوتني. لا أعرف الممثلين الجدد، ولا فرق الروك الجديدة، ولا الشخصيات المشهورة الجديدة التي ظللتُ دوماً لا أفهم **لماذا** أصبحت مشهورة.

رحتُ أتذكر ملاحظات أبي في بداية أعوام 1980 حين كنتُ أقضي ساعات في الاستماع إلى مشغّل أشرطة التسجيل: «هذا

الجهاز سيخلق أجيالاً من المعتوهين والطرشان»، «مادونا عاهرة، ديفيد بوي مخنث، إريك كلابتون مدمن مخدرات». وبدوري، صرتُ أبدو واحداً من هؤلاء الحمقى العجائز الرجعيين الذين كنت أمقتهم في مراهقتي.

كنتُ رحالة لا ينفكّ يجتاز العصر دون أن يعيشه حقيقة.

لم أعُد أمتلك كلماته، ولم أعُد أمتلك رموزه.

أصبحتُ منبوذاً، شريداً، وقد تجاوزني هذا العالم الذي بالتدريج لم يعُد عالمي وصار يخيفني.

ومن الآن فصاعداً، أصبحَت أسرتي هي مرساي الوحيد.

وأفقي الوحيد.

2011
القلوب المحطَّمة

ليس الحب هو ما يكدر الحياة،
وإنما عدم الثقة بالحب.

فرانسوا تروفو

.0

الحرارة تكتنف صالة جيدة التدفئة.

لمسة مخملية تُداعب وجنتي.

جلسة مريحة. مسند طري أسند قذالي إليه.

ثم مقطوعات موسيقية، صوتٌ صافٍ، أغنية شعبية تحكي عن انفصال زوجين، والحزن على حبّ ضائع. تركت نفسي لبضع ثوانٍ تنساب مع إيقاع الأغنية. كنت أعرف هذه المقطوعة. فرقة آبّا. الفائز يأخذ كل شيء.

أفتح عينيّ. أنا جالس في أريكة وسط صالة مسرح. وحولي مئات الأشخاص مستغرقين في العرض: الكوميديا الموسيقية ماما ميا!

ألتفت برأسي، وأرفع بصري. اتّساع المسرح استثنائي،

وارتفاع الأسقف، وشكل الشرفة... سبق أن جئتُ إلى هنا منذ زمن طويل.

أنا في برودواي، في مسرح الحديقة الشتوية. كانت أمي قد اصطحبتني إليه لمشاهدة مسرحية القطط قبيل موتها بفترة قصيرة.

أنهض، ووسط صياح الاستنكار، أدفع جيراني لأخرج من صف المقاعد. أصعد إلى أعلى الممشى، وأنزل السلالم وأغادر المسرح.

.1

برودواي، مساءً.

مشيت بضع خطوات، وألفيت نفسي الآن في زحمة تايمز سكوير، بين الحشود، والحافلات، وعربات الهوت دوغ. كانت الشاشات الإعلانية تعرض سلسلة لقطات رومانسية لعلامات تجارية للمجوهرات. وعلى الأرصفة، ثمة باعة متجوّلون يحاولون ترويج بالونات على شكل قلب منفوخة بالهليوم وباقات أزهار ذَبلت الآن. كانت الساعة قد تجاوزت السابعة مساءً بقليل. كنا في يوم 14 فبراير من عام 2011، عشية عيد الفالنتاين.

وبينما كنت أشيرُ لسيارة أجرة، تذكرتُ ذاك الصباح من يوليو عام 1992 حين عمل جيفري وكسلر على إطلاق سراحي من السجن. لقد استأجرت سيارة قريباً جداً من هنا، ومذاك لم آتِ إلى هذا المكان حقاً. خلال عشرين عاماً، تحوّل المكان إلى منطقة ترفيه فسيحة في الهواء الطلق. حلّت متاجر الديزني ستور والمتاجر العائلية مكان ملاهي التعري ودور السينما الإباحية. وأخلى المشردون ومدمنو المخدرات والعاهرات المكان للسياح.

توقفت سيارة فورد إسكايب هيبريد بمحاذاتي. قفزت في سيارة الأجرة، وبعد عشر دقائق، كنتُ عند بائع أزهار في شارع بليكر حتى أشتري لليزا تشكيلة زهور راقية من السحلبيات البيضاء والوردية.

نقرتُ على الباب والباقة في يدي، متحمساً وسعيداً بلقاء زوجتي وأولادي.

ولكن ليست ليزا هي من فتحت الباب.

- مساء الخير، بماذا يمكنني أن أخدمكَ؟ سألتني صهباء فتية لم تكَد تبلغ من العمر عشرين عاماً ترتدي كنزة طويلة تحمل شعار مدرسة الاقتصاد في ستوكهولم.

- أين زوجتي؟

- مَن أنت يا سيدي؟

- أنتِ، من تكونين؟ سألتها وأنا أرفع صوتي.

- أنا المربية. أنا مَن ترعى بنجامان وصوفيا حين السيدة...

- بابا! بابا! هتف بن وهو يرتمي في أحضاني.

رفعته ودوّرته في الهواء.

- مرحباً، يا كبيري! ماذا فعلتَ، أخبرني إذاً!

تجاهلتُ الفتاة السويدية، ودخلتُ عنوة إلى البيت.

لم تكن صوفيا في الصالون. وضعتُ باقة الورد على الطاولة وصعدتُ إلى غرفتها. كانت ابنتي الصغيرة غافية بعمق في سريرها.

- هل نامت الآن؟ تساءلتُ بصوتٍ خفيضٍ مندهشاً.

- صوفيا متوعكة قليلاً اليوم، شرحت المربية بكرب.

- ماذا يعني هذا؟

- التهاب قصبات، وأنف وأذن. والكل.

قبّلتُ ابنتي دون أن أوقظها، ووضعت يدي على رأسها.

- إنها محمومة.

- أعرف، أجابت، لكنني فضلتُ عدم إيقاظها. سأعطيها الباراسيتامول فيما بعد.

نزلتُ إلى المطبخ.

- هل تعرف أين الماما يا بن؟

- خرجَت.

- أعرف هذا، ولكن هل تعرف إلى أين؟

هزّ ابني رأسه.

- أين زوجتي؟ سألتُ الشابة.

- لا أعرف شيئاً عن هذا. وحتى لم أكن أعرف أنّ ليزا متزوجة، وفي جميع الأحوال، لا تُخبرني أين تذهب عندما تخرج...

الآن، لم أعُد أسمعها. تركت ليزا حتماً عنواناً من باب الاحتياط. نظرتُ قرب الهاتف، ثم في طاسة توضَع فيها الأشياء البسيطة وأخيراً فوق البراد. ثمة ورقة مثبتة بمغناطيس انتُزعت من مفكّرة تحمل كتابة بخط اليد: مطعم بولي، 163 دوين ستريت، متبوعاً برقم هاتف.

مطعم. مساء عيد الفالنتاين...

- هل تتعشى هناك؟

- لا أعرف، قلتُ لكَ!

- سحقاً... قلت متذمّراً وأنا أرشقها بنظرة.

تشبّث ابني بكمي.

- عليك ألّا تتفوه بكلمات نابية يا بابا!

قرفصتُ لأصبح بارتفاعه.

- معك حق. اسمع، سأذهب لأجلب ماما وأعود، اتفقنا؟

- هل يمكنني المجيء معك؟

- هذا غير مفيد، سنكون هنا في غضون نصف ساعة. إذا بقيتَ عاقلاً، سأعدّ لك لازانيا.

- لكنني أكلتُ منذ قليل.

- حلوى، إذاً؟ بوظة بكريما الكراميل واللوز المحمّص!

- ماما لا تحب أن آكل الكريما المثلّجة. تقول إنه دسم وفيه سكر.

تنهدتُ وأنا أشعِّث شعره.

- إلى اللقاء بعد قليل يا كبيري.

.2

رفضتُ أن أستقلّ سيارة أجرة. كانت حركة المرور مزدحمة. ولم يكن حي الترايبيكا بعيداً وأتاح لي الركض أن أحرك ساقيّ.

باتجاه الجنوب: شارع ماكدوغال، الجادة السادسة وبرودواي حتى دوين ستريت.

- ألديك حجز يا سيدي؟

وصلتُ إلى المطعم الراقي لاهثاً ومتعرّقاً مثل كلب يقف في لعبة البولينغ. كانت سترتي الحمراء وبنطالي الجينز نشازاً بين البزات وفساتين السهرة.

- أريد فقط أن أتأكّد إن كانت زوجتي هنا.

- يمكنني أن أذهب وآتي بها، يا سيدي، أجاب وهو يستطلع حاسوبه. بأيّ اسم حجزتْ؟

- أشكرك يا سيدي، لكنني أفضّل أن أبحث عنها بنفسي.

- ولكنك في النهاية يا سيدي، لا . . .

تجاوزتُ ممرّ المدخل لأصل إلى الصالة الرئيسة.

في هذه السهرة بمناسبة عيد الفالنتاين، كان الزبائن حصراً من الأزواج.

كان بولي مطعماً رومانسياً بامتياز: مكان أنيق، جو حميمي، شمعدانات، سقف مقبّب، ولوحات على الجدران تصوّر الريف.

لمحتُ ليزا جالسةً إلى طاولة قرب المدفأة الحجرية التي تتصدّر مركز الحجرة. متجمّلة، أنيقة ومسترخية، تقابل رجلاً يدير ظهره لي.

حين رأتني، تجهّم وجهها. طوت فوطتها، ونهضت وهرعت نحوي قبل أن أستطيع بلوغ طاولتها.

- آرثر، ماذا تفعل هنا؟

- الأَولى أن أطرح أنا هذا السؤال عليكِ، أليس كذلك؟

- أنا أعمل. أحاول أن أكسب رزقي لأطعم أسرتنا.

- بالعشاء على ضوء الشموع مساء عيد الفالنتاين؟ هل تسخرين مني؟

توقفت الأحاديث وحدقت عشرات العيون فينا باستهجان. تدخّل مدير الفندق وطلب أن نُنهي نقاشنا في البهو.

- اسمع يا آرثر، لم أحتفل قط في حياتي بعيد الفالنتاين. أنا هنا في عشاء مهني. لا تجعلنا فرجة، أتوسل إليك.

- لا تظني أني مغفل! مَن هذا الشخص؟

- نيكولا هول، كاتب وسيناريست مشهور. يريد أن يعطيني دوراً في مسلسل تلفزيوني يعدّه لصالح قناة آي إم سي.

- إذاً يكفي أن يلوّح لك شخص بدورٍ حتى تلبي دعوته إلى مطعم مرتدية مثل عاهرة؟

- لا أسمح لك بإهانتي!

وأنا غاضبٌ، أرهقتُها بالملامات، واتّهمتها بالخروج فيما ابنتها ذات الثلاثة أعوام مريضة. لكن ليزا رفضت أن أُلصِق بها دور الأم السيئة.

- نحن في شهر فبراير. وصوفيا لديها زكام، مثل تسعين بالمئة من أطفال هذه المدينة. هذا عادي، في الشتاء. لكن هذا ما لا تعرفه أنت، لأنك تتغيب عن المنزل دوماً!

- أنت تعرفين حق المعرفة أنّ الأمر خارج عن إرادتي! وتعرفين أيضاً كم أعاني بسبب ذلك. وكم هو كابوس ما أعيشه!

- وهل تظنّ أنه ليس كابوساً بالنسبة لي أيضاً؟

وبينما نتشاجر، شممتُ عطرها برائحة الفانيليا والبنفسج. كانت ليزا متألقة. حلَّت شعرها الناعم والحريري وأسدلته على كتفيها العاريين وعلى صدرها المغطى بصدار أسود مثير. وسواران مطعّمان بالصَّدَف يلمعان في معصميها. لا بد أنها أمضت ساعات تتجمّل لشخص آخر غيري. نحن لا نختار من نُغرم بهم. كانت ليزا تحتاج دوماً أن تختبر قدرتها على إغراء الرجال. هذا أوكسجينها. نوع من مقياس أنوثتها. اكتشفتُ ذلك من البداية واستمر مع مرور الزمن. كان هذا يُحزنني. ويُخرجني عن طوري.

بذلتُ ما بوسعي لأكبح غضبي. فأنا هنا لمدة أربع وعشرين ساعة. **يمكن تسوية الأمر**، فكرتُ بسذاجة. لكنني كنتُ مخطئاً.

- لنعُد إلى بيتنا يا ليزا. هيا لنلتقي أولادنا.

- ليس قبل أن أنهي موعدي. أرغب حقاً في أن أحصل على هذا الدور. أعرف أنني سأنجح فيه.

نفد صبري.

- لا نستطيع أن نلتقي إلّا يوماً واحداً في العام وتقولين لي من دون أن يرفّ لك جفن أنك تفضلين إنهاء وجبتك مع رجل آخر أكثر من قضاء السهرة معي؟

- امنحني فقط ساعتين وسأوافيك إلى البيت. الوقت اللازم فقط لإنهاء هذا الموعد.

- لا، لن تعودي إلى هذا الشخص!

أمسكتها من يدها، لكنها تملّصت وهي تصرخ:

- توقف عن جعلنا فرجة! أنا لا أطلب إذنك! لستُ شيئاً! لستُ ملكاً لك!

- عودي معي يا ليزا، وإلا...

- وإلاّ ماذا؟ ستضربني؟ ستجرني من شعري إلى البيت؟ ستهجرني؟ لكنك يا آرثر لا تحسن القيام بشيء آخر سوى هذا: هجري!

وقفَلت راجعة إلى طاولتها.

- ما أسخف رجلاً يختفي! قالت وهي تعود إلى الصالة.

3.

خرجتُ من المطعم مرغياً ومزبداً من الغضب وغمرني الحزن.

على الرصيف، كان عامل ركن السيارات يستقبل زبونة أخرى، مخلوقة شعرها طويل وناعم، جاثمة على جزمة ذات ساق طويلة من

الجلد والمعدن. فتح الباب لسائقتها، وساعَدَها على الخروج من سيارتها الرياضية المكشوفة.

عندئذٍ، تتالى كل شيء. وفي نوبة هيجان، هرعت نحوها واستوليتُ على مفاتيح السيارة وهي تناولها للعامل.

- هيه!

مغتنماً البلبلة، جلستُ على المقعد الأمامي وجعلت الإطارات تصرّ وأنا أقلع.

غادرتُ مانهاتن سالكاً امتداد نهر هدسون وأخذتُ طريق ستيت هايوي السريع المفضي إلى بوسطن.

وقدمي على دواسة الوقود، سرتُ لمدة ربع ساعة، بأقصى ما أستطيع من سرعة، غير آبهٍ لقواعد السلامة. كنتُ في حالة فرار، منفعلاً، تائهاً، ومرتاعاً من ردّة فعل المرأة التي أحبها. شعرتُ أنّ سداً ينهار. كنتُ متعباً، منهكاً، وعاجزاً عن معرفة كيف أستعيد زمام حياتي. وأي تأثير لي على الأحداث؟ ولا أي تأثير. أكابد كلّ شيء. منذ عشرين عاماً ووجودي يهرب مني. لم أكن إلّا شذرات من حياتي الخاصة. كافحتُ، وحاولت أن أفعل الأفضل. لم أتخاذل في المعركة، لكن كيف تقاتل حين لا تعرف حتى مَن هو عدوك؟

حين وصلتُ إلى بوسطن، استحوذت عليّ هواياتي القديمة. ركنتُ السيارة المكشوفة في شارع من شارلستون ودفعتُ باب ماكيلان، الحانة الإيرلندية التي اعتدتُ على ارتيادها قديماً.

وأخيراً مكانٌ لم يطرأ عليه تغيير! كانت الحانة موجودة منذ نهاية القرن التاسع عشر. لم تزل على الحالة ذاتها التي كانت عليها حين كنتُ في سن العشرين: طاولة شراب على شكل حدوة حصان، جو

الحانة نفسه، والخشب الداكن ذاته من الأرضية حتى السقف.

على الجدران، صور فوتوغرافية ألوانها باهتة تذكّر بماضي المنشأة كماخور. وعلى الأرض، نشارة خشب تعطي للحانة هيئة خمارة. وفي الأقداح، يجري الويسكي والبيرة بسخاء.

ارتقيتُ كرسياً عالياً وطلبتُ أول قدح.

فرانك هو مَن عرّفني على هذه الحانة، التي يرتادها الرجال بشكلٍ أساسي. لم يكن زبائن ماكيلان يأتون إلى هنا سعياً وراء غزوة غرامية، أو لعقد صداقات أو التلذّذ بمقبلات فاخرة: يأتون ليشربوا حتى الثمالة. لينسوا نهارهم، وعملهم، ومشاكلهم، وزوجاتهم، وعشيقاتهم، وأولادهم، وأهلهم. يأتون هنا ليثملوا. ليقتلوا أنفسهم. وهذا ما فعلته، بواسطة سلسلة من أقداح وجرعات الويسكي. شربتُ حتى الإنهاك. حتى فقدتُ القدرة على النطق بكلمة. حتى فقدتُ القدرة على الوقوف. وحين أقفلَت الحانة، جرجرتُ نفسي في الشارع وارتميتُ في سيارتي الجديدة.

.4

نمتُ بتأثير الكحول حتى شروق الشمس، لكن البرد القارس هو ما أيقظني وليست أشعة الشمس. فمي جاف وذهني مشوش، أدرتُ مفتاح التشغيل ورفعت المكيّف إلى أعلى درجة. اتجهتُ جنوباً، اجتزتُ جسر هارفرد بريدج وسرتُ حتى جامايكا بلين. كانت الساعة السابعة صباحاً حين ركنت السيارة المكشوفة في مرآب مقبرة فوريست هيلز.

في مثل هذه الساعة، ما زالت الأبواب الشبكية مغلقة، ولكن، رغم صداع الثمل الفظيع، تسلقت جدار السور في جزئه المنخفض.

كانت المئة هكتار من المنتزه مغطاة بالصقيع. محَت قشرة ثلج بيضاء الخطوط التي تحدّد الدروب. وأحرق البرد الغطاء النباتي. وتجمّدت مياه المناهل. صارت التماثيل تشبه كائنات من لحم ودم جمدتها ريح قطبية في أوج حركتها.

بأنفاس مشبعة بالكحول ورأس ثقيل، تسلقتُ بخطوات سريعة منحدر الهضبة، مستنشقاً هواءً جليدياً ألهب رئتي. وحين وصلتُ إلى الجهة الأخرى للسفح، اكتشفت سطح البحيرة المتلألئ الذي يعكس تلولاً حراجية وزرقة السماء.

انحدرتُ على امتداد الدرب المشجر حتى ممرات الحصى الواصلة بين الشاهدات وسراديب الدفن. طبقة خفيفة من الضباب تحوم فوق المربع حيث تنتصب شاهدة قبر أبي.

فرانك كوستيلو

2 يناير 1942

6 سبتمبر 1993

كنتُ ما أنتم عليه،

وستصبحون ما أنا عليه.

- مرحباً، فرانك. ليس الطقس حاراً، أليس كذلك؟

أحسستُ إحساساً غريباً. صرتُ أحقد عليه أكثر من أيّ وقت مضى لأنه أفسد حياتي. لكن جزءاً مني لا يزال يحتاج إلى مواصلة الحوار معه.

- المكان جميل هنا، لكنه ميت، لاحظتُ وأنا أسترخي على حافة سياج. لا بد أن الأيام تبدو لك طويلة. لا بد أنك تضجر، أليس كذلك؟

عثرتُ في جيبي على علبة تبغ وعلبة عيدان ثقاب تركتهما لي نادلة ماكيلان. أشعلتُ لفافة وسحبتُ سحبة بتلذّذ.

- حتى هذا، لم يعُد لك الحق فيه. لاحظْ، هذا قتلكَ، إذاً. . .

نفثتُ ضفيرة دخان تبلورت في الهواء الجليدي قبل أن تتلاشى.

- في نهاية المطاف، كنت محقاً بالفعل: لا يمكن الوثوق بأحد في الحياة. شكراً على تحذيرك المبكر لي، حتى لو لم أستفِدْ بما فيه الكفاية من هذا الدرس.

طار عصفور من غصن جفلاً، ناثراً بعض الندف التي تساقطت ليلة أمس.

- آه صحيح، لم أخبرك: لقد صرتَ جَدّاً. بلى، بلى، هذا صحيح. عندي ابن عمره تسعة أعوام وابنة صغيرة في الثالثة من عمرها. ولستُ أباً صالحاً، لكن لدي مبرّراتي. على العكس منك.

نهضتُ عن الحافة كي أقترب من البلاطة الرخامية. كان القبر أجردَ. لا باقات زهور، ولا نباتات، ولا لوحة تذكارية.

- يخطر ببالي أنّ أولادك لا يزورونك أغلب الأحيان، أخبرني! في الواقع، لا أحد يشتاق إليك. ظننتُ دوماً أنك لم تكن تحبني، لكنني كنت مخطئاً: حتى هُم، أنتَ لم تكن تحبهم.

سحبتُ سحبة جديدة من الدخان وجدتها لاذعة أكثر من الأولى قبل أن أسحق عقب اللفافة تحت كعبي.

- لماذا لم تكن تحبّنا يا فرانك؟

اقتربتُ أكثر من حجر القبر حتى اصطدمتُ بالقاعدة.

- أنت تعرف، فكرتُ كثيراً في هذا الأمر مؤخراً وأعتقد أنني حصلتُ على بداية إجابة. أنت لم تكن تحبّنا لأن الحب ضعفٌ. هذا

واقع: حين تُرزق بطفل، تخاف أن تفقده. حين ترزق بطفل، تنهار تحصيناتك. تصبح أعزلاً وضعيفاً. إذا أراد أحد أن يؤذيك، لا يعود يحتاج إلى مهاجمتك أنتَ. عندئذٍ، تغدو هدفاً سهلاً.

انقشع الضباب. وراحت الشمس تُرسل أشعتها الأولى خلف السراديب.

- ولكن أنتَ، تابعتُ، كنتَ ترفض أن تكون ضعيفاً. كنتَ تريد أن تكون صعب المنال، كنتَ تريد أن تكون حراً، ولو أصبحتَ وحيداً. ثمة شيء من هذا القبيل، أليس كذلك؟ لم تكن تحبّنا حتى لا تصبح في موقف ضعف. لم تكن تحبّنا لتحمي نفسك.

هبّت الريح. ولأكثر من دقيقة، انتظرتُ جواباً لما يأتِ.

ثم فجأةً، حملتها نسمة صباحية، رائحة دافئة، ربيعية، شاردة، باغتتني.

روائح زهر البرتقال.

لا، هذا مستحيل!

وبينما تستولي نوبة ارتعاش على أعضائي وساقاي ترتجفان، حاولتُ أن أفهم ما يحدث لي. كانت الساعة تنوف على السابعة صباحاً. ولم يمضِ على ظهوري إلّا اثنتي عشرة ساعة.

لا يمكنني الرحيل الآن.

لكن شحنةً كهربائية صعقت دماغي.

ومادت الأرض المتجلدة تحت قدميّ.

واختفيت.

2012
الواحد دون الآخر

اعتدتُ على الإحساس بأنني وحيد،
لكن كره الذات أسوأ بكثير من العزلة.
جون إيرفينغ

.0

رائحة خزامى ندية ومنعشة.

هفهفات حراجية لصمغ الصنوبر. خلفية موسيقية، لحن أخاذ يُعزف بإتقان على أسطوانة فينيل: أغنية فولاري، يؤديها صوت دين مارتن الدافئ والآسر.

أشعر باختلاجات وتعرق. أجد صعوبة كبيرة في فتح جفوني الملتصقة. حلقي جاف، أحسّ أن فمي مملوء بالرمل وصداع حادّ كأنني لم أصحُ إطلاقاً من الثمل.

قرقرات تزعزع معدتي. أهمُّ بحركة، فتتعطل بسبب التشنجات العضلية.

وفي النهاية تجعلني ضرورة إرواء عطشي أفتح عينيّ. الوقت نهار. أستعيد رشدي بالتدريج. نظرة خاطفة على ساعتي: تجاوزت الساعة الرابعة عصراً بقليل.

شبه مسترخٍ على أريكة جلدية قديمة. أنا في محل دافئ يعود لأعوام 1950. أنظر إلى الرفوف حولي: عبوات كريم، مستحضرات تجميل، عجائن صابون، فراشي حلاقة، وقارئ أسطوانات كهربائي. أقف، أترنّح، وأنجح في قراءة الكتابة المطلية على الواجهة.

إنني في محل حلاقة رجالي في إيست هارليم.

.1

- هلّا جلستَ يا بني؟ اقترح صوت خلفي.

انتفضتُ حين اكتشفتُ مالك المحل: عجوز أسود ذو لحية بيضاء، يعتمر قبعة إيطالية ويرتدي قميصاً وسترة وبنطالاً مقلّماً بحمالات.

دعاني بحركة من يده إلى الجلوس على أريكة حلاقة من الجلد الأحمر.

- لم أسمعكَ تدخل، يبدو أنني شديد الصمَم! قال وهو يطلق قهقهة رنانة.

- اعذرني يا سيدي، ولكن. . .

- نادني جبريل.

- أنا في غاية الظمأ يا جبريل. هل لي أن أطلب كأس ماء وحبة أسبرين؟

- سأجد لك هذا، وعَد وهو يتوارى في مؤخرة الصالون.

في ركن من الصالون، كدسة مجلات متوازنة فوق طاولة مستديرة قديمة بقائمة واحدة مصنوعة من خشب الأكاجو الصقيل الذي يثير ذرات لامعة في الشمس. أحدثُ مجلة كانت عدداً من

ويكلي أنترتينمنت مؤرخة في 24 فبراير 2012. وعلى غلافها، صورة امرأة شقراء، ذات شعر قصير ونظرة قاسية، وفوقها العنوان:

ليزا آيمس

لقاء مع بطلة باست فورورد

المسلسل الجديد المدهش.

إنها ليزا أنحل وأكثر اسفزازاً وبروداً من المرأة التي كنت أعرفها. تصفّحت المجلة الأسبوعية، وقرأت المقالة بشكل قُطري. وهكذا نجحَتْ في الحصول على الدور الذي طالما حلمَت به. هل يجب أن أفرح أم أتأسّف؟

- أمسك أيها الشاب! قال لي جبريل وهو يعود بعبوة مياه غازية وظرف باراسيتامول.

بعد أن ابتلعت حبتين وتجرعتُ ثلاثة كؤوس ماء، بدأتُ أشعر بالتحسّن، مع أنني بقيتُ أعاني صداع ما بعد الثمل الشديد.

نظرتُ إلى نفسي في المرآة بهلع. أصبحتُ في سن السادسة والأربعين وصرت أحمل عمري على كتفي من الآن فصاعداً. عيناي داكنتان أكثر، محاطتان بهالات سوداء، غائرتان في محجريهما، هاجمتهما التجاعيد في أطرافهما. شعري الأسود وخطه الشيب وأخاديد حُفِرَتْ على جبهتي. وظهرت التجاعيد حول عنقي وشحبت بشرتي. تراخت تقاطيع وجهي. فقدت نقاءها وطابعها. وبعد الآن، ثمة أخدودان عموديان ينطلقان من منخريّ حتى زاويتي شفتيّ، ويبرزان على خدي فيمنحاني هيئة مرهقة.

تهاويت على الأريكة منهكاً. وضع جبريل على وجهي منشفة

دافئة تفوح منها رائحة نعناع لاذعة. وبينما أسترخي، سمعته يشحذ موسى الحلاقة على سطح جلد مضرب. وبفرشاة حلاقة، وضع بعد ذلك رغوة صابون وراح يزلق شفرته الحادة على خديَّ وحنجرتي. استسلمت لحركاته الماهرة وأنا أتذكر خيباتي «ليلة أمس».

أفقدتني مشاجرتي مع ليزا صوابي وقادتني إلى ضلال أثيم. ضيّعتُ يوماً ثميناً كان بوسعي أن أمضيه مع أولادي.

غسَلَ الحلاق وجهي بالماء الفاتر ونظّف جرحاً صغيراً بحجر الشبّة. ثم أنهى عمله بوضع منشفة دافئة جديدة ومطيبة بالنعناع على وجهي وجفوني. وعيناي مغمضتان، سمعت رنين جرس صغير يعلن عن دخول زبون. بقيت للحظة ساكناً، محاولاً استعادة أقصى قواي، عندما ناداني صوت مألوف:

- إذاً، يا ولد، تريد تنعيم جلدك؟

انتفضتُ، وسحبتُ المنشفة التي تغطي وجهي واكتشفتُ سوليفان الذي جلس على الأريكة بجانبي.

أصبح جدي نحيفاً. خدّدت التجاعيد وجهه. بدا متعباً، لكن نظرته ظلت ثاقبة وخبيثة.

- تسرّني رؤيتك، قلتُ وأنا أضمّه طويلاً. أنا آسف، لقد فاتنا أن نلتقي في المرة الماضية.

- أجل. أعرف. أخبرتني ليزا. لقد أخطأتَ كثيراً.

- كلانا أخطأ، دافعتُ عن نفسي.

تأفّف سوليفان، ثم التفت نحو جبريل ليعرِّف أحدنا بالآخر.

- هذا حفيدي آرثر. سبق وكلمتك عنه.

انفجر العجوز الأسود بقهقهة أخرى.

- هل هو الرجل الذي يختفي؟

- بالضبط!

وضع الحلاق يده على كتفي.

- هل تعرف أنني حلقت لحية جدك في عام 1950؟ أنا وسوليفان نعرف بعضنا منذ ستين عاماً!

- هذا صحيح، وغدٌ عجوز! وطبعاً ستذهب لتُحضر زجاجة ويسكي من مؤونتك احتفالاً بهذه المناسبة؟

- لدي زجاجة باشميلز عمرها عشرون عاماً. ستتذوقها! وعد الحلاق وهو يغيب. مكتبة أحمد

أخرج سوليفان من جيب سترته هاتفاً خلوياً وطلب رقماً.

- أتصلُ بليزا. إنها في كاليفورنيا تصوّر مسلسلها.

صعقني هذا الخبر. كنت قد عزمت على ألاّ أضيّع يوماً آخر وأن أنقذ زواجنا، لكن احتمال عدم رؤية زوجتي هذا العام جعلني ضائعاً.

- صوفيا معها، أمّا ابنك فبقي في نيويورك، قال لي ليهدئ روعي.

وبعد أن تبادل بضع كلمات مع ليزا، ناولني جدي الجهاز.

- صباح الخير، آرثر.

لم يزل صوت ليزا الصريح والحازم يطرب أذني.

- صباح الخير، ليزا. أنا آسف بشأن المرة السابقة.

- حريّ بك أن تأسف. انتظرتكَ طوال الليل. وابنك انتظرك بشكلٍ خاص.

خرجت إلى الرصيف والهاتف النقال على أذني لأتابع النقاش دون أن يسمعني أحد. خطرت ببالي فكرة.

- ربما يمكنني المجيء لأراك في كاليفورنيا؟ إذا غادرتُ الآن إلى المطار، فإنني...

- لن يفتأ هذا يؤذي كلينا، قاطعتني بلهجة جارحة. أما إن استطعتَ قضاء بعض الوقت مع بن، فأعتقد أنّ هذا سيكون مُجدياً.

- هل هو على ما يرام؟ استفسرت.

- لا، بالضبط، ليس على ما يرام إطلاقاً، أكّدت لي بنبرة لوم صريحة. إنه صعب المراس في هذه الفترة. لم يعُد يهتم بدراسته في المدرسة، ويتشاجر مع الجميع، ويسرق، ويهرب. وهو ليس أفضل حالاً في البيت: لا يمكن توجيهه. القول إنه غير متعاون هو تلطيف. الأصح أنه أصبح عنيفاً. لم أعُد أنجح معه. وحده جدّه يفلح في توعيته. أحياناً.

جمّدني الضيق الذي لاحظته في صوتها.

- ربما يجب علينا أن نعرضه على طبيب نفسي.

- لم ننتظرك، تصور. منذ عدة أشهر يتابع طبيب نفسي حالة بن. فرضَت مدرسته علينا ذلك.

- وما رأي الطبيب؟

- أنّ سلوكه هو طلب مساعدة. ولكنني لم أكُن أحتاج إلى طبيب نفسي لأعرف أن بن يعيش وضعنا بشكل سيئ. بالأحرى، وضعك...

- حتماً، هذا خطئي أيضاً! لعلّك تعتقدين أنه يناسبه أن تعيشي على بُعد أربعة آلاف كيلومتر عنه؟

- أرى ابني كلّ أسبوع. ولستُ بينلوبي: لا يمكنني البقاء في المنزل أنتظركَ وأتجرّع المنومات ومضادات الاكتئاب.

نظرتُ إلى الناس الذين يمشون على الرصيف في الجهة

المقابلة. تغيَّرتْ شوارع هارليم كثيراً أيضاً خلال عشرين عاماً. مزيد من التنوع، والعائلات، وضحكات الأطفال.

- بعد ثلاث سنوات، سينتهي كل شيء، قلتُ لليزا وأنا أبذل ما بوسعي لإقناعها.

- لا، لا أحد يعرف ماذا سيحدث بعد ثلاثة أعوام.

- ليزا، لن نقضي أيضاً الوقت القصير المتاح لنا في الخصام. نحن متحابان و...

- لا، أنت لا تحبّني! قاطعتني بحدّة. في كل الأحوال، لم تحبّني قط لشخصي. أنت تحب فكرة غامضة تصنعها عني، لكنها لا تمتّ إلى الواقع بصلة.

أردتُ أن أخالفها الرأي، فلم تترك لي مجالاً.

- يجب أن أنصرف، قالت لي بجفاء.

وقطعَت الاتصال.

.2

- ابلَع هذا يا ولد، قال لي سوليفان وهو يناولني قدح ويسكي.

رفضتُ عرضه، لكنه أصرّ:

- هيا، كن مفخرة دمك الإيرلندي! أنت تعرف المثل القائل: في إيرلندا، لا نحتسي الويسكي إلّا في مناسبتين. حين نشعر بالظمأ وحين نرتوي.

التفتُّ نحو جبريل.

- أليس لديك قهوة، بالأحرى؟

- إيه، أيها الشاب! المكتوب على واجهة المحل ليس «حانة»، وإنما «حلاق»! أجاب وهو يربت على فخذيه.

فتش سوليفان في جيبه وأخرج تذكرتين من الورق المقوى ووضعهما أمامه.

- سيلعب فريق نيكس ضد فريق كليفلاند هذا المساء في ماديسون سكوير غاردن. حجزتُ هذين المكانين لي ولجبريل، ولكن من الأفضل أن تذهب لحضورها بصحبة ابنك...

- ما دمتم خططتم للذهاب إليها سوية، لا أريدكما...

- لا تشغل بالك بنا، تدخّل جبريل. اذهب وشاهد المباراة مع ابنك. وعوضاً عن ذلك، سأذهب أنا وسوليفان لنأكل الدجاج بالكاري أو لحم الضأن في ريد روستر. وربما نشرب قدحاً في نادي ستريب في الشارع 124. وتعرف ماذا أيضاً؟ سأحضّر لك قهوتك!

اغتنمت وجودي وحيداً مع سوليفان لأبوح له بما يقلقني.

- حدثت معي مشكلة عند عودتي العام الماضي. مشكلة خطيرة.

تنهّد تنهيدة مديدة، وبحث عن علبة تبغ اللوكي سترايك وسحب منها لفافة ووضعها وراء أذنه.

- الرحلة دامت وقتاً أقل من المعتاد، قلت. أقل وقتاً بكثير: اثنتا عشرة ساعة عوضاً عن أربع وعشرين ساعة!

أحدث سوليفان لهباً قوياً من قداحته.

- هذا ما كنت أخشاه، قال بأسف وهو يشعل لفافة تبغه. حدث الأمر ذاته معي. رحلاتي الأربع الأخيرة كانت أقصر بشكل ملحوظ.

- كيف هذا؟

- كانت مدّتها تتضاءل إلى النصف في كلّ مرة: في البداية، اثنتا عشرة ساعة، ثم ستّ، ثم ثلاث.

- والأخيرة؟

- لم تكد تتجاوز الساعة.

ساد صمتٌ مطبق الحجرة. لم أستطِعْ أن أتخيل ما كشفه لي. ثم حلَّ الغضب مكان الذهول.

- ولكن لماذا لم تُخبرني شيئاً عن هذا؟ صرخت وأنا أضرب بقبضتي الطاولة.

فرك سوليفان جفونه وهو متعبٌ.

- لأنه ما كان لهذا أن يفيدك بشيء يا آرثر. فقط سيحبط معنوياتك.

التقطتُ التذكرتين عن الطاولة وغادرت صالون الحلاق.

كان الكابوس مستمراً.

.3

تقع مدرسة ابني الابتدائية عند تقاطع شارع غرين وساحة واشنطن، في بناء من الآجر الأمغر يتاخم جامعة نيويورك.

استندتُ إلى جدار قبالتها، ورحتُ أراقب خروج التلاميذ الذين انتشروا على الرصيف يضحكون ويتصايحون. أولاد لم يبلغوا سنّ العاشرة بعد ويتصرّفون الآن كالمراهقين: فتيات صغيرات يرتدينَ ثياب شابات، وصبية صغار يقلّدون رجال العصابات.

حين لمحتُ بنجامان، كدتُ لا أعرفه. هو أيضاً كبر قليلاً. نبتَ شعره الجميل الأشقر. كان يرتدي جينزاً داكناً، وصدرية منفوخة بقبة من الفرو وينتعل الحذاء الرياضي ستان سميث الذي كنتُ أنتعله حين كنتُ في مثل عمره.

- لماذا جئتَ أنت لتأخذني؟ سأل وهو يفتح دراجته السكوتر.

- لا تبدو سعيداً، أخبرني إذاً! قلت له وأنا أرتمي عليه لأضمّه بين ذراعي.

تحاشى عناقي واندفع على زلّاجته باتجاه الحديقة العامة.

- سنخرج هذا المساء، قلتُ وأنا أتبعه. معي تذكرتان لحضور مباراة فريق نيكس.

- لا أرغب في حضورها. لا أحب كرة السلة، تأفّف بن وهو يزيد سرعته إلى أقصاها.

- لا بأس، سنذهب مع ذلك! صرختُ فيما هو يبتعد عني.

لن يكون ذلك بالأمر الهيّن...

أصبحتُ منفصلاً عن الواقع. وطيلة السهرة في ماديسون سكوير غاردن، حدّقتُ بابني مع غصّة في القلب. راح يعاملني كغريب، ويتهرّب من نظراتي المشجّعة، ويكتفي بالإجابة عن أسئلتي بإيجاز.

عشتُ أباً غائباً وها هو اليوم يجعلني أدفع ثمن ذلك. في أعماقي، كنتُ أتفهّمه تماماً. وحتى في المرات النادرة التي وُجدتُ فيها، كنتُ قلقاً ومشغولاً بحيث أنني لم أكن معه تماماً قط. ظلّ قسم مني دوماً في مكان آخر: يرنو سلفاً إلى الغد ووسواسه الاستيقاظ القادم. لم أخصّص قط وقتاً -ولم أمتلكه قط- لأعلّمه شيئاً ما. لم أزوّده بأي أساس صحيح، ولا بأي نظام أخلاقي، ولم أقدّم له أيّ دليل يساعده على اجتياز المحن. ولكن ماذا كنتُ سأورثه، وأنا نفسي لم أرث من أبي إلّا نظرة سلبية عن العالم تختزل الوجود إلى معركة خاسرة سلفاً ضدّ متاهات الزمن؟

فازت نيويورك على كليفلاند 120 مقابل 103. أصرّ بنجامان رغم البرد أن يعود سيراً على الأقدام. حين وصلنا أمام بيتنا، نظرتُ إلى ساعتي واقترحت عليه:

- هل يروقك أن نذهب لنأكل لفائف جراد البحر؟

رفع وجهه الوسيم نحوي ونظر إليّ بعينين لم أعهدهما لديه. حدقتان تتقدان لهباً وقلقاً.

- هل تعرف ما يسرّني حقاً؟

توقعتُ الأسوأ، والأسوأ حصل. فتح بنجامان فمه وسمعته يقول باستفزاز:

- ألّا تعود أبداً! أن تختفي من حياتنا إلى الأبد!

صمتَ لبرهة واستطرد بحدّة أشد:

- دعنا وشأننا. انسنا! توقف عن إيلام ماما! أنت لا تفلح إلّا في هذا: في إيلام الناس.

كانت هذه الكلمات تمزّق قلبي مثل طعنات خنجر.

- أنت تظلمني يا بن. أنت تعرف حقّ المعرفة أنه لا ذنب لي في كلّ هذا...

- كفاك قولاً طوال الوقت أنه لا ذنب لك! لا يهمنا مَن المذنب في هذا! أنتَ لستَ موجوداً، وهذا كل شيء! وسأخبركَ بأمر آخر: حتى لا تُصدم صوفيا، لم تخبرها ماما قط أنك أنت أبوها! ولكن ألم تلاحظ أنها لم تناديك بابا قط!

كان محقاً في كلّ كلمة وهذه الحقيقة لم أستطِعْ تحمّلها.

- اسمعني يا بن. أعرف أنه من الصعب عليك أن تعيش هذا الوضع وأن تفهمه، ولكن ثِقْ أنه لن يدوم كل الحياة. ثلاثة أعوام أخرى ويغدو كل شيء طبيعياً.

- لا.

- وكيف لا؟

في هذه اللحظة، سالت دمعتان كبيرتان على وجنتيه. فضممته بين أحضاني.

- بعد ثلاثة أعوام، سنكون أنا وصوفيا أمواتاً... قال وهو يشهق في تجاويف أذني.

- لكن لا، يا كبيري! مَن أخبرك هذا؟

- سوليفان...

كظمتُ كيفما اتفق الغيظ الذي استعرَ داخلي، وحملتُ ابني حتى حانة أويستر. كان المطعم خالياً تقريباً. جلسنا إلى طاولة هادئة في صدر الصالة وطلبت سندويشتين وعبوتَي شراب غازي.

- أخبِرْني بالضبط ما رواه لك سوليفان.

فرك عينيه، وأخذ جرعةً من زجاجة الكوكا وشرح منتحباً:

- منذ بضعة شهور، لم تكن صحة جدّي على ما يرام. يسعل ويفرط في الشراب. وذات مساء طلبت أمي أن أحمل فطائر أعدَّتها له. ذهبتُ إلى بيته، وطرقتُ الباب لكنه لم يفتح. هممتُ أن أغادر حين رأيت الباب غير مقفل بالمفتاح. دخلتُ ووجدته ثملاً تماماً، راقداً على أرض الصالون.

- متى كان هذا؟

رفع وجهه ليفكّر.

- منذ ثلاثة أشهر. ساعدته على النهوض. كانت تفوح منه رائحة كحول قوية. بقيت معه بعض الوقت وسألته لماذا يشرب بإفراط. أخبرني أنه يريد أن ينسى الخوف. سألته ممّ يخاف. عندئذٍ روى لي قصته وأخبرني أنه سيحصل لك الأمر نفسه. في صبيحة اليوم التالي للرحلة الرابعة والعشرين، سيختفي كلّ شيء. وعند استيقاظك، لن تعود ماما تعرفك ولن أكون أنا وصوفيا موجودين إطلاقاً.

مسحتُ الدموع التي تنذرف على وجنتيه بمنديل ورقي وحاولتُ طمأنته.

- ما حدث مع سوليفان حقيقي، لكنه لا يعني أنه سيحدث معنا.

- ولماذا سننجو منه؟

- لأننا نحب بعضنا بعضاً. ونشكّل أسرة، نحن الأربعة. نحن قبيلة كوستيلو. هل تعرف ماذا يقول شكسبير؟ «الحب يحبو إن لم يقوَ على المشي». هل تعرف ماذا يعني هذا؟

- أن الحبّ أقوى من كلّ شيء دوماً؟

- بالضبط. لذلك ليس هنالك ما تخشاه.

ولبضع ثوان، فعل ماجستير شكسبير فعله، ثم استعاد الواقع سطوته بسرعة.

- هل تعتقد أنّ ماما لم تزلْ تحبك؟ سأل بن وهو ينقر البطاطا المقلية. لأنني أعتقد أنها تحب حباً جماً ذاك الشخص، هناك، نيكولا.

أخفيتُ حزني واستعلمت:

- نيكولا هول، الكاتب؟

بهيئة محبطة، أومأ ابني بحركة من رأسه موافقاً.

- أجل، الكاتب. يُضحكها حين يأتي إلى البيت، وسمعتها تقول لأحد ما في الهاتف أنه مهتم بها كثيراً.

حدّقت النظر مباشرة في عيني ابني وأجبتُه، بنبرة تجهد قدر المستطاع لتكون مقنعة:

- اسمعني جيداً يا بن، يجب ألّا تشك فيَّ. الرجل الذي تحبّه

ماما حقاً، هو أنا. لأنني أبوكما، أنت وصوفيا. وعندما سأعود بشكلٍ نهائي، أنا أيضاً سأجعلها تضحك وسأهتم بها.

لاحظتُ أنني طمأنته قليلاً. في هذه اللحظة، استعادَ شهيته. وبعد أن التهمنا لفائف جراد البحر، عدنا إلى البيت حيث كانت المربية تنتظره.

وكما اعتدنا حين كان صغيراً، نظّفنا أسناننا في الحمام، ثم دثّرته في فراشه وتمنيت له ليلة هانئة.

– لم تزل أمامنا ثلاث سنوات عصيبة، اتفقنا يا بن؟ يمكننا أن ننجح إذا كنا فريقاً وإذا وثقنا ببعضنا. لهذا، يجب أن تساعدني وتكون عاقلاً وتوقف حماقاتك، اتفقنا؟

– اتفقنا. أنا رجل البيت.

– طبعاً.

– وأنتَ، أنتَ الرجل الذي يختفي! ماما تسمّيك هكذا دوماً.

– هذا صحيح، وافقته. أنا الرجل الذي يختفي.

وفعلاً، بدأتُ أرتعش.

– طابت ليلتك يا كبيري، قلتُ وأنا أطفئ الضوء حتى لا يراني أتشنّج.

– طابت ليلتك، بابا.

وعيناي مخضلتان بالدموع، جرجرتُ نفسي حتى باب الغرفة واختفيتُ حتى قبل أن أستطيع وضع قدمي على أول درجة من السلم.

أيّ جريمة اقترفتُ وتستحق أن أدفع ثمناً باهظاً إلى هذا الحدّ؟
وأي ذنب لا يُغتفر يجب عليّ أن أكفّر عنه؟

2013
موسم الأمطار

الحياة هي سلسلة انفصالات ملتحمة ببعضها.

تشارلز ديكنز

.0

همسات.

رائحة جلد وكتب قديمة.

صمتٌ مثابر لا يكاد يعكره إلّا حفيف صفحات تُقلب. نحنحات مخنوقة. طقطقة ملامس على لوحة المفاتيح. صرير خفيف لأرضية خشبية.

رأسي فوق سطح خشبي يفوح برائحة الشمع. أفتح عينيّ وأنتصب منتفضاً. ذراعاي متدليتان على طول متكئين. من حولي، آلاف الكتب المصفوفة فوق كيلومترات من الرفوف، زخارف منحوتة بدقة، ثريات أثرية، طاولات عمل متحركة، مصابيح مكتب من النحاس الأصفر مع أغطيتها من الأوبالين المائل إلى الأخضر.

أنا في قاعة مطالعة في مكتبة نيويورك العامة.

.1

نهضت عن أريكتي وأنا لم أزل مشوشاً ورحتُ أستكشف المكان.

فوق واجهة الباب الرئيس، ساعة حائط ضخمة تشير إلى الساعة 12:10. وقت الغداء. وبالفعل، كان عدد من الأماكن شاغراً. اجتزتُ مكان عرض الصحف، وألقيت نظرة خاطفة على الصفحات الأولى من الصحف اليومية - **حالة طوارئ إنسانية في سورية؛ بعد حادثة القتل في نيوتاون، تصويت حاسم في مجلس الشيوخ على ضبط الأسلحة النارية...** - وتحققت من تاريخ اليوم: إنه يوم الاثنين 15 أبريل عام 2013.

اقترب موعد الاستحقاق. من الآن فصاعداً، لم يبقَ لي سوى رحلتين قبل النهاية. رحلتان قبل المجهول.

في صدر القاعة، ثمة حيّز معلوماتي يقدّم بوابات حرة للحواسيب. خطرت فكرة ببالي. جلستُ أمام شاشة وحاولت الاتصال بالإنترنت. لسوء الحظ، يتطلّب فتح جلسة رمزاً وهو محجوز لحاملي بطاقة المكتبة.

انتظرت بضع دقائق، مستطلعاً مواقع العمل من حولي. وبعد لحظة، أخذ الهاتف المحمول لإحدى جاراتي يهتزّ. نهضتْ لتُجيب، ابتعدت عن حاسوبها دون أن تقطع الاتصال. اندسستُ مكانها واخترت نافذة جديدة انفتحت على صفحة محرّك البحث. وببضع نقرات، حصلتُ على بطاقة تعريف لعشيق زوجتي في ويكيبيديا.

لا توجد صورة فوتوغرافية. بيان سيرة ذاتية مقتضب:

نيك هول

نيكولا ستيوارت هول، ولدَ في 4 أغسطس 1966، كاتب وسيناريست أميركي.

حائز على دبلوم من جامعة دوك، يدرّس الأدب في بيركيلي وشيكاغو.

نشر بين عامي 1991 و2009 ثلاثيته، **الغوص**، وأصابت نجاحاً منقطع النظير وجعلته مشهوراً عالمياً.

في عام 2011، ألّف المسلسل الأميركي **باست فورورد** وبثته قناة إي إم سي، وهو مسلسل اضطلع فيه أيضاً بوظيفة المنتج المنفذ والمنتج المؤلف.

كنتُ على وشك أن أشاهد روابط أخرى حين صاح بي صوت:

- هيه، ماذا تفعل في مكاني؟

كانت الطالبة قد عادت إلى قاعة المطالعة. أمسكتني بالجرم المشهود، فاعتذرتُ وتواريتُ، وغادرتُ المكتبة عبر درجٍ يطلّ على براينت بارك.

كنت في أرض معروفة: ميدتاون بين الجادة الخامسة والسادسة. وبواسطة المترو، لا تبعد غرينويتش فيلاج إلّا أربع محطات، وبعد خمس عشرة دقيقة، اجتزت واشنطن سكوير. وقبل أن أعود إلى بيتي، قررت أن أقيس درجة الحرارة وأذهب إلى منزل سوليفان.

حين وصلت أمام باب جدي، فوجئت بوجود مغلّف جديد محشور بين مخالب مطرقة الباب.

في المرة الماضية، أخبرني المغلف عن ولادة ابني الوشيكة. أمّا هذه المرة، فالأخبار غير سارّة.

بني،
منذ وقت طويل لم نعد نلتقي وبدأتُ أشتاق لك كثيراً.
إذا فكرتَ بزيارة جدك في أحد الأيام القادمة، فتعال لرؤيتي في مشفى بيلفو.
لا تتأخر أكثر من اللازم.
جسدي الهرم بدأ يُنهك.

.2

وحدة العناية الملطفة.

مرافقة نهاية الحياة.

في جميع المستشفيات التي عرفتها، هناك دوماً جناح منعزل. من واجب الفريق الطبي فيه أن يؤمّن العناية المريحة، وأيضاً أن ينتبه لشكوك ومخاوف ورغبات المريض الأخيرة.

وأنا برفقة ممرضة، دفعتُ باب الغرفة. كانت حجرةً مضيئة، هادئة، ملائمة للتأمّل والتفكير في النفس. تسبح في نور لطيف، وقد خفضوا المعدات الطبية فيها إلى أدنى حدّ ليؤمّنوا لنزيلها نهاية حياة لائقة وغير مؤلمة.

كان جدي ممدّداً وسط السرير. لا يمكن التعرّف عليه. أصبح وجهه غائراً، وسحنته شاحبة، وبشرته لامعة. جسده هزيل ومتصلب، وقد نحل وبرزت عظامه، وبدا أنه تضاءل.

سرطان رئة في مرحلته الأخيرة: القذارة ذاتها التي سبق أن أودَت بحياة والده وابنه.

معنى مضحك للاستمرارية الأسرية.

فتح سوليفان عيناً وهو يتنبّأ بوجودي.

- هل تتذكر، بدأ بصوتٍ لاهث، لقد تعارفنا في غرفة مشفى. وفي غرفة مشفى أيضاً سيودّع أحدنا الآخر...

شعرتُ بغصّة في حلقي وطفَرَت الدموع من بين جفوني. لم أحاول حتى أن أعارضه. كنا نحن الاثنين نعرف أن هذه هي النهاية.

أرادَ أن يضيف شيئاً، لكنه انطلق في نوبة سعالٍ مديدة. وبعد أن وضعَت له الممرضة وسادة خلف ظهره، تركتنا لوحدنا.

- حان وقت مجيئك يا بني، استأنف لاهثاً. لقد حاولت أن أقتصد إلى أقصى حدّ حتى لا أرحل دون أن أودعك.

كنت أعرف هذه الظاهرة وظلّت تُسحرني دوماً. في اللحظات الأخيرة من حياتهم، من الشائع ملاحظة تجدّد الطاقة عند العديد من المرضى: إمّا لأنهم ينتظرون رؤية قريب لهم، أو لأنهم يريدون إكمال رغبة أخيرة.

طرد سوليفان حشرجة من حلقه واستأنف بصوتٍ مبحوح.

- كنتُ أريد أن أقول لك إلى اللقاء، ولا سيما شكراً. شكراً لأنك أخرجتني من الجحيم. حين حرّرتني من بلاكويل، منحتني عقدين من الحياة لم أكُن أتوقعهما. علاوة محترمة، أليس كذلك؟

كانت دموعي تنهمر على وجنتيّ. تناول سوليفان يدي وبدا مطمئناً.

- لا تبكِ. لقد عشتُ كفايتي وهذا بفضلكَ جزئياً. منذ عشرين سنة، حين التقينا أول مرة، كنتُ شبه ميت. وأنت من ردّني إلى الحياة! دفعتني إلى جزء من حياة شيّقة كنتُ سعيداً فيها. جعلتني ألتقي ليزا. وأتحتَ لي أن أتعرّف على أحفادي...

في هذه اللحظة، راح هو أيضاً يبكي. دموعه تستقر في أخاديد جلده المتجعّد. تشبّثَ بذراعي لأساعده على تعديل جلسته.

- اليوم، أنا مَن يقلق عليك يا آرثر. استعدّ لمواجهة أمور رهيبة.

وطفقتُ أنظر إلى عينيه المضطربتين، المحتقنتين بالدم، وهما تطرفان بسرعة مجنونة. كأن عرافاً يتنبّأ بنهاية العالم.

- بعد هبوب الأربع وعشرين ريحاً، لن يبقى شيء، استطرَدَ وكأنه يتلو تعويذة. أعرف أنك لم تصدّقني قط، ولكن هذا ما سيحصل مع ذلك! في صباح اليوم الرابع والعشرين، حين تستردّ وَعيَك، لن يتذكّرك أحد ممّن التقيتهم.

هززتُ برأسي وحاولت طمأنته بدوري:

- لا، لا أظنّ أنّ الأمر سيحدث هكذا. كان فرانك يتذكّر لقاءك في مطار كينيدي. ويتذكّر أنك طلبتَ منه أن يسدّ باب القبو بجدار. وكما ترى، لم تختفِ كلّ نتائج أعمالك.

لكن الأمر كان يحتاج إلى أكثر من هذه الحجّة لزعزعة إيمان سوليفان.

- سينهار كلّ ما بَنيته. وستصبح غريباً عن زوجتك، وسيختفي أولادك و...

توقف لينطلق في نوبة سعال جديدة توحي أنه يغرق. وحين مرّت النوبة، ألقى آخر تحذير له:

- لا يوجد أفظع من الألم. وحين يصبح الألم مبرحاً، وعندما تجده مجحفاً، تكون مستعداً للقيام بأيّ شيء حتى يتوقف.

أخذ يلهث ليسترد أنفاسه:

- سبق أن مررتُ بهذا يا بني، وبوسعي أن أؤكد لك أنّ هذا

العذاب سيبدو لك غير محتمَل لدرجة أنه قد يقتلك أو يصيبك بالجنون. عِدني ألّا تفعل مثلي يا آرثر! لا تدع الحزن يقضي عليك، قاوم إغواء الظلمات!

وفي نهاية شهقة، تشبّث بيدي.

- يجب ألّا تبقى وحيداً يا آرثر. في الحياة، الشخص الوحيد...

توقف واستجمع آخر قواه لينطق:

- ... الشخص الوحيد، هو شخص ميت.

كانت هذه آخر كلماته.

بقيتُ عند رأس سريره أطول فترة ممكنة. حتى شعرتُ بأعضائي ترتجف. وقبل أن أرحل، رأيتُ صورة فوتوغرافية يحتفظ بها على طاولة سريره. كنت قد التقطتها، بعد أن ضبطتُ مؤقت الكاميرا، في يوم جميل من صيف 2009.

كنا هناك نحن الخمسة، متراصّين بعضنا بجانب بعض: ليزا مشرقة، وبن يقلّد المهرج في منامته التايغرو، وصوفيا تُظهِر بجرأة سنَّتيها الوحيدتين والفريدتين، وسوليفان، بأبوية وقورة، يمسكني باعتزاز من كتفي. لحظة رائعة، تخثّرت إلى الأبد. نحن عائلة. نحن قبيلة كوستيلو.

وبينما رحتُ أتشنّج، وضعتُ الصورة في جيب سترتي.

وقبل أن أذوب في الزمن، وجَّهتُ آخر تحية إلى جدي.

الشخص الوحيد الذي دعمني دوماً.

الوحيد الذي لم يخيّب أملي قط.

الوحيد الذي لم يخنّي قط.

2014
الحقيقي، هو الآخر

هناك اثنان في كلّ شخص:
الحقيقي، هو الآخر.

خورخي لويس بورخيس

0.

انفجار.

الضجّة المبهَمَة لحشد.

دفوف، موسيقى أبواق، قرع صنوج، مفرقعات تنفجر. رائحة سمك مخلّل منفرة. روائح توابل غريبة، وزيت قلي، ولحم مدخّن.

أستعيد وعيي بصعوبة. جسدي محطم. قضيبٌ معدني يسحق وجنتي، وآخر يضغط جذعي. أشعر أنني معلّق في الفراغ، في توازنٍ دقيق. وفجأة، أشعر أنني أسقط!

تباً!

استيقاظ عنيف. أفتح عينيّ وفعلاً جسدي يتدحرج على طول درابزين من حديد. أفرد ذراعيَّ كيفما اتفق وأتشبّث بقدر ما أستطيع.

وحين أكبح سقوطي، أفتح عينيّ وأكتشف... رأساً ضخماً ومهدّداً لتنين أحمر.

.1

تنين. ثم آخر.

جيش تنانين، أسود، خيول يتماوجون أمام ناظري، يحرّكهم رجال متنكرون.

كنت جاثماً على ارتفاع عدة أمتار فوق الأرض، رأسي إلى الأسفل، وذراعاي متدليتان. اعتدلتُ ثم وقفتُ. ألفيت نفسي على صحن درج نجاة خارجي. درج نجاة معلّق على واجهة مبنى من الآجر.

في الشارع، يسود الحماس؛ موكب حاشد يبدأ في التحرك: عربات متعددة الألوان، أعلام بألوان زاهية، بهلوانات، راقصون، حيوانات عملاقة من الورق المقوى.

كنت أعرف هذا الشارع الضيق بأبنيته الداكنة والمتّسخة قليلاً، ومحلاته الصغيرة بلافتاتها المضيئة ورموزها. كنتُ في الحي الصيني، في موت ستريت. في كل عام ينطلق من هذا المكان موكب للاحتفال بالعام الصيني الجديد. في الواقع، كان الجوّ حماسياً: شرائط ترفرف في الهواء، قصاصات ورق تتطاير في السماء، ومفرقعات تنفجر لتطرد الأرواح الشريرة.

نزلتُ الدرجات بسرعة لأهبط على الرصيف. إعلان صغير ملصق على عمود يشير إلى تاريخ اليوم -نحن في يوم الأحد 2 فبراير عام 2014- ومسار الاستعراض: وورث ستريت، إيست برودواي، ثم روزفلت بارك.

شققتُ طريقي بين الحشد الكثيف والمتراصّ لأخرج من الموكب.

وأنا أنزل مولبيرّي ستريت، لاحظت سيارات أجرة عديدة بدت

قبيها الإعلانية أنها تسخر مني وهي تعلن عن قرب صدور رواية نيكولا هول الجديدة ع-ا-ش-ق.

استرحتُ في منتزه كولومبوس، متنفس الحي الصيني. كان الجوّ أهدأ بكثير. كان عصراً جميلاً من الشتاء: درجات حرارة لطيفة، سماء صافية، نسمة منعشة، شمسٌ من عليائها تنثر أشعتها بين الأغصان.

وهم يجلسون حول طاولة حجرية، راح عجائز صينيون يلعبون الماجونغ والدومينو ويتعايشون بانسجام مع أتباع رياضة التاي-تشي، وموسيقيون وأزواج شباب يمضون عطلة نهاية الأسبوع مع أولادهم.

- بابا!

جعلني النداء أرتعش. التفتُّ نحو بُنيّة مجهولة جالسة على مقعد خشبي، وتضع دفتر رسم على ركبتيها. ثم ابتسمَتْ لي فتسارعت دقات قلبي. إنها ابنتي صوفيا!

كان احتمال أن ألتقيها صدفة هو واحد في المليون. كان سوليفان محقاً: ولا رحلة من الرحلات كانت عشوائية. جميعها خضعت لمنطق ما.

- هل أنتِ بخير، يا جميلتي؟ قلت وأنا أجلس إلى جانبها.

لم أرَها تكبر.

الصورة المضطربة التي يأخذها جميع الآباء لم تكن قط بمثل هذا التطابق.

تركتها رضيعة، ولقيتها فتاة صغيرة بشعر طويل ذي التماعات ذهبية معقود بمشابك صدفية وترتدي فستاناً أنيقاً بقبّة كلودين.

- أنا بخير، بابا!

استطلعتُ المحيط. على بعد عشرة أمتار، وهي جالسة على

مقعد، لم تكن المربية السويدية ترفع عينيها عن شاشة هاتفها المحمول.

- هل عرفتِني يا صوفيا؟

- بالتأكيد. ماما تُريني صورك في أغلب الأحيان.

حبستُ بصعوبة دموعي.

- لو تعرفين كم أنا مسرور برؤيتك! قلت وأنا أضمّها في أحضاني.

أخذتها من يدها لنبتعد عن مربيتها.

- تعالي يا صغيرتي، سأقدّم لك وجبة العصر.

اصطحبتها إلى بسطات البائعين الجوالين وطلبت كابتشينو وعصير برتقال وتشكيلة من الأطباق المحلية: زنجبيل حلو، فواكه مجففة، بسكويت هونغ كونغ، رقائق مقلية من جذور اللوتس...

- هل الجميع بخير في البيت؟ سألتُ وأنا أفرغ مأكولاتنا على منضدة من حديد.

- لا بأس! أكّدت وهي تقضم بسكويتة.

نثرت أقلامها وفتحت كرّاستها وراحت ترسم.

- وأخوكِ؟ هل أنتِ على وفاق معه؟

- نعم، بن لطيف.

- وماما؟

- هي غالباً في عملها.

ارتشفتُ جرعة من قهوتي.

- هل ترى نيكولا دائماً؟

- أجل، بالتأكيد، قالت وهي ترفع بصرها نحوي. نسكن جميعنا عنده الآن.

جعلني هذا التأكيد أنتفض. طلبتُ منها أن تكرّر لأتأكّد أنني فهمت.

- لديّ غرفة خاصة بي كما تعرف، أكدت.

- لكن... منذ متى تعيشون هناك؟

- بضعة أشهر. قبل عيد الشكر بقليل.

تنهّدتُ واحتضنتُ رأسي بين يديّ.

- لا تحزن يا أبي.

أنهيتُ قهوتي.

- هل ما زالت ماما غاضبة عليّ؟

رمقتني صوفيا بنظرة استياء.

- أعتقد نعم، قالت وهي تخضّ زجاجة عصير برتقالها.

ثم أضافت وهي تناولني إياها لأنها لم تستطِعْ فتحها:

- لكن ماما تعرف أنّ الذنب ليس ذنبك فيما حدث. وهي تعرف أنه لا يدَ لك في الأمر.

مسَّدتُ شعرها.

- اسمعي يا حبيبتي، كلّ هذا سيتوقف قريباً. ابتداءً من العام القادم، سنستطيع أن نلتقي كلّ الوقت. وكل الأيام!

هزّت ابنتي الصغيرة رأسها.

- لا أعتقد، لا.

- لماذا تقولين هذا؟

- أخبرني بن أننا سنموت. سوليفان أخبره بذلك.

ثرتُ محتداً.

- ولكن لا يا حبيبتي، هذا هراء، كل هذا!

- لقد قلتَ كلمة بذيئة!

- أجل، وأنا مصرٌّ عليها! لن يموت أحد، اتفقنا؟

- اتفقنا، قالت، لترضيني أكثر منه لأنني أقنعتها.

قدمتُ لها القليل من عصير البرتقال في كأس من الورق المقوى.

- هل تعتقدين أنّ ماما لم تزل مغرَمة بي؟

- لا أعرف، أجابت بشيء من الضيق.

- وهل تعتقدين أنها مغرمة بنيكولا هول؟

- بابا، لا أعرف. عمري ستة أعوام فقط!

سمعتُ صوتاً ينادي «صوفيا!». انحنيتُ إلى الوراء. في الطرف الآخر من المنتزه، لاحظَت المربية الآن اختفاء الطفلة التي يفترض أنها تراقبها. لم يعُد لدي متسع من الوقت.

- أين يسكن نيكولا؟

- نسيت العنوان.

- ابذلي جهداً، من فضلك، يا قطتي.

تفكرتْ ثم بعد بضع ثوان:

- حين نكون في المصعد، نضغط الزر 33.

- لا بأس، لكن في أيّ حي؟

- لا أعرف الأحياء.

- إذاً. . . أخبريني أين يمكنك الذهاب مشياً حين تخرجين من المبنى.

- هممم، أحياناً، نذهب لنأكل همبرغر في مطعم اسمه الأوديون.

- لا بأس، أعرف هذا المطعم، إنه في تريبيكا. وماذا يشبه المبنى الذي تسكنين فيه؟

- هو جديد تماماً! الناس يسمونه أحياناً برج جينغا![1]
- حسنٌ، سأجده! قلت وأنا أشعّث شعرها. أنت قوية للغاية، يا ابنتي!
- صوفيا!
هذه المرة، كشفت المربية مكاننا. نهضتُ عن الكرسي وقبّلتُ ابنتي.
- إلى اللقاء، يا صغيرتي. نلتقي العام القادم! سيكون معي كلّ الوقت. سنفعل الكثير من الأشياء معاً، اتفقنا؟
- اتفقنا، أجابت وهي تبتسم لي ابتسامة جميلة. تَفضَّل، رسمتُ لك رسمةً.
أخذتُ الورقة التي ناولتني إياها، طويتها ووضعتها في جيبي قبل أن أغادر الحديقة العامة من الشمال.

2.

منحوتة من الكريستال، رفيعة وسامقة، يبلغ ارتفاعها مئتين وخمسين متراً.
تقع الترايبيك4 على تقاطع وورث ستريت وبرودواي، وهي إحدى المساكن الحديثة والفاخرة التي تكاثرت كالفطر في سماء مانهاتن منذ نهاية أعوام 2000.
عمرانياً، كان البرج مؤلفاً من بيوت زجاجية، بأحجام وأشكال مختلفة، يمكن وضعها بعضها فوق بعض. كلّ طابقٍ لا مثيل له،

---

(1) الجينغا: لعبة تشمل 54 قطعة من الخشب. تُصَفُّ الأخشاب فوق بعضها ويقوم كلّ لاعب بسحب قطعة خشبية بالدور شرط أن لا يسقط البناء والخاسر هو الذي يسحب القطعة التي تسبّب سقوط البناء. تُلْعَب بلاعب واحد أو أكثر.

كانت ناطحة السحاب تشبه من بعيد كدسة كتب على وشك الانهيار. لا بد أنّ إنشاءها واجَهَ منِدّدين، لكنها كانت مبتَكَرة وتتميّز عن المباني القديمة لهذا الحي التاريخي.

لكن كيف أدخل إلى هذا البناء؟ تساءلتُ وسيارة الأجرة تتوقف أمام ترايبيك4.

هرع أحد البوابين ليفتح لي الباب. خرجتُ من السيارة بثقة ودخلتُ إلى ناطحة السحاب دون أن يطرحوا عليّ أيّ سؤال. بارتفاع عشرة أمتار تقريباً، كان بهو المدخل في منتصف الطريق بين صالة المغادرة في المطار وصالة معرض متحف الفن الحديث: جدران زجاجية، لوحات تجريدية ومنمنمات، وغابة من أشجار البونزاي تبرز على امتداد جدار نباتي.

كان جسر شفاف ضخم يمتدّ إلى كتلة المصاعد المؤدّية إلى الشقق. وحين دخلتُ مقصورة مصعد، لاحظتُ أنّ الجهاز يتطلب رمزاً أو بصمة رقمية ليسمح بالوصول إلى الطوابق. كنت سأعود على أعقابي حين دخل المقصورة شخصٌ يشبه ساعياً، ذراعاه تحملان علباً ذات علامات تجارية فخمة، حيّاني وضرب سلسلة أرقام على اللوحة الرقمية. ضغط على زرّ إحدى الشقق الواقعة في قمة البرج، وعلى عجل، سألني:

- أيّ طابق، يا سيدي؟

- الثالث والثلاثون.

تركته يُدير العملية، وبعد بضع ثوان، كنت أمام مدخل شقة نيكولا هول.

كان الباب منفرجاً.

لا توجد صدفة، بدا صوت سوليفان يهمس لي.

دخلتُ الردهة من دون إحداث ضجيج، ثم تقدّمت إلى الصالون

ذي الديكور العصري، لكنه حميمي. كانت شمس نهاية العصر تخترق بأشعتها الشقة من جميع الجهات، وتحوّلها إلى مكان شبه سريالي. ضوء لطيف، نحاسي، شبه ساطع، بدا أنه يدور حولي. وأفعى بوا عاصرة من غبار مذهّب تسعى إلى ابتلاعي.

تقدمت نحو الواجهات الزجاجية العريضة وخرجت إلى الشرفة المحمية بحواجز بلورية. من هنا، يحتضن المرء إيست ريفر وجسر بروكلين والتاج الذهبي لمبنى البلدية والبرج المتلألئ الجديد لمركز التجارة العالمي...

المشهد سحري. كان المكان خلاباً، لكن شيئاً ما يكدِّرني. كانت هذه البارجة الزجاجية أثيرية أكثر ممّا ينبغي. تمنحني شعوراً بأنني منفصل عمّا أحبه حقاً: الناس، خشونة الشارع والعلاقات الإنسانية، الحياة.

عدت إلى الشقة. تعرَّفت على صور ليزا والأطفال معلقة على الجدران: قهقهات، حركات تواطؤ، لحظات سعادة مقتطعة من فيلم. الدليل على أنّ حياتهم مستمرة من دوني.

الدليل على أنني لست ضرورياً لهم.

توقفتُ أمام صورة شخصية خلابة لابنتي بتدرجات الأبيض والأسود. اضطربتُ لرؤيتها فقد غلبني الشوق إليها! وأنا أتابع استكشاف الصالون، فتشت في جيبي لأسحب الورقة التي رسمَت لي صوفيا رسمةً عليها.

في ركن الحجرة، مكتبٌ كبير من خشب الجوز يحمل أكداساً من الكتب بانتظار كلمات إهداء. نُسَخٌ من أحدث كتاب لربّ هذا المنزل. رواية ضخمة اقْتُبِسَ غلافها عن لوحة ماغريت الشهيرة وتصوّر مضاجعة بين رجل وامرأة ووجهاهما مغطيان بشرشف أبيض. بأحرف فضية، يبرز عنوان الكتاب متبوعاً باسم المؤلف على خلفية داكنة.

ع-ا-ش-ق
نيكولا ستيوارت هول

فتحتُ الورقة التي وضعتها بعناية في جيبي، ولكن عوضاً عن الرسمة التي وعدتني بها ابنتي، وجدتُ عبارة مكتوبة بأحرف كبيرة وجميلة:

هل تريدُ أن تعرف سراً يا بابا؟

شعرت برعشة تسري في جسدي. قلبتُ الورقة وقرأتُ:

الكاتب، هو أنت.

لم أفهم على الفور ما أرادت صوفيا أن تُخبرني به.

حدّقتُ عيناي من جديد في غلاف الرواية.

ع-ا-ش-ق
نيكولا ستيوارت هول

وفجأة، استولى عليّ بداية دوار، وتحرّكت الأحرف بنشاط في ذهني لتشكّل جناساً أفقَدَني توازني:

آرثر سوليفان كوستيلو

وأنا مخبول، أمسكتُ أحد الكتب وقلبته. على ربع الغلاف، يمكننا أن نقرأ سيرة ذاتية مقتضبة عن نيكولا ستيوارت هول مرفَقة بصورته الشخصية.

كانت هذه الصورة، صورتي.

.3

- **لا تقُل لي أنك فوجئتَ!**

كان شخصٌ ما قد دخل للتو الحجرة. استدرتُ لأكتشف أنه

يشبهني تماماً. مستنسَخ. أنا نفسي آخر متعجرفٌ قليلاً، متحرّر من ثقلي، ومن قيد الجاذبية، ومن همومي، ومن هذا القلق الذي قاسيت الأمرّين منه جسدياً وعاطفياً منذ سنوات.

أصبحتُ مشلولاً. من المفاجأة. من الخوف.

- من أنتَ؟ نجحتُ في أن أنطق.

- أنا أنتَ، بالتأكيد، أكّد الآخر وهو يتقدم نحوي. بشكلٍ جدّي، في سنّ الرابعة والعشرين، لم تفكّر قط في هذا الحل؟

- أيّ حلّ؟

ضحك ضحكةً ساخرة والتقطَ علبة لاكي سترايك كانت على طاولة المكتب.

- والدكَ كان مخطئاً: ليست المشكلة الحقيقية في الحياة هي في أننا لا نستطيع أن نثقَ بأحد...

قدح عود ثقاب وأشعل لفافته قبل أن يتابع:

- لا، المشكلة الحقيقية، في العمق، هي أنه ليس لدينا إلّا عدو واحد حقيقي: ذاتنا.

اقترب من طاولة جانبية وصبَّ لنفسه قدح ويسكي يابانية.

- هل تريد أن تعرف الحقيقة حول المنارة؟

وبإزاء صمتي المطبق، تابع:

- الحقيقة، هي أنّ بعض الأمور لا رَجعَة فيها. لا يمكنكَ محوها. ولا يمكنك الرجوع إلى الوراء. ولا يمكنك أن تغفر لنفسك. عليك أن تتدبّر أمرك لتعيش معها ولئلّا تسبّب أضراراً أخرى. هذا كلّ شيء.

أخذت قطرات عرق تتفصد من جبيني. وشعرتُ بالغضب يصعد في داخلي كموجة عاتية.

- وما علاقة هذا بالمنارة؟

نفث دفعة من الدخان بتلذّذ.

- آه، لا بأس، أنت تظنّنني أحمقَ، تهكّمَ. في الواقع، أنتَ لا تريد معرفة الحقيقة.

لا أريد سماع المزيد.

كان نظري مستغرقاً في قطّاعة ورق موضوعة على المكتب. أداة على شكل سيف كاتانا مصغّر مرصّع بالعاج. اجتاحني غضب مجنون لأن هذا الأنا الآخر يتلاعب بوجودي دون أن يُعاقَب، فقبضتُ على السلاح وسدّدته نحو صنوي وأنا أقترب منه.

- لماذا تحاول أن تسرق حياتي مني؟ لن أدَعك تفعل هذا. سأستعيد زوجتي وأولادي! لا أريد أن أخسرهم!

تشوّه فمه وهو ينفجر مقهقهاً:

- لا تريد أن تخسرهم؟ ولكنك سبق وخسرتهم أيها الغبي!

ولكي أسكِتُه، سدّدت له عدّة طعنات بالنصل عند مستوى كرشه. فسقط مضرّجاً بالدم على الأرضية الخشبية الشقراء.

بقيت ساكناً عدة ثوانٍ، كالتمثال، محاولاً أن أفهم وضعاً يتجاوز العقل.

ثم للمرة الأخيرة، تشوّش بصري وقفَزَت الصورة أمام ناظري، كما هو الحال في أجهزة التلفاز القديمة إبان طفولتي. بدأ جسدي يشعر بالوخزات، وتشنّج بقساوة قبل أن تهزه حركات صلبة ولاإرادية. تراخى وتفكّك وانفصل عن الواقع، وتلاشى في رائحة سكر محروق.

وبعد ذلك دوّى انفجار مصمّ، مثل طلقة مخنوقة بكاتم صوت. وحين تبخرتُ، فرضتْ صورة زوجتي وأولادي نفسها على ذهني.

عندئذٍ فقأت البداهة عينيّ.

وخلافاً لما اعتقدته دوماً، لم أكُن أنا مَن يختفي.

بل كانوا هم.

2015
اليوم الرابع والعشرون

الليل. لا شيء. كان هذا أُفقه.
كان وحيداً.
وحيد لها مرادف واحد: الموت.

فيكتور هيغو

.0

أفتح عينيّ.
أنا

القسم الخامس

الرواية غير المنجزة

أقوال الصحف
(2012 - 2015)

ليس الخيال إلّا حقيقةً يحجبها الكذب.

ستيفن كينغ

محاولة آرثر كوستيلو
في أدب الشباب

(منشورات أسبوعية - 8 أكتوبر 2012)

يعود المؤلف الأكثر مبيعاً، الذي اشتهر بقصص الإثارة ورواياته الخيالية، إلى المكتبات الأسبوع القادم مع كتابه **فتاة شارع مولبيري الصغيرة**، عمله الأول المخصّص للقراء الشباب.

كتاب لا يتجاوز المئتي صفحة، لكنه سيندرج في سيرة آرثر كوستيلو الذاتية. **فتاة شارع مولبيري الصغيرة** سيُصدره ناشره المعتاد دوبلداي، وسيكون في متناول أيدي القراء اعتباراً من يوم الاثنين 15 أكتوبر. وصرّح المؤلف في مؤتمر صحفي، «بمناسبة عيد ميلاد ابني بنجامان العاشر، أردتُ أن

أقدّم له هدية خاصة، وقرّرت بالتالي أن أكتب له هذا الكتاب».
في الواقع، تتشكّل الرواية من حكاية تروي حياة مراهِقَة شابة اسمها أوفيليا تكتشف، وهي تنبّش في سقيفة منزل أسرتها، باباً يتيح لها السفر في الزمن. قدرة ستقودها «من خلال المرآة» إلى اكتشاف عالم موازٍ ساحر ومقلق. وفي منتصف الطريق بين لويس كارول و**العودة نحو المستقبل**، يمكن للرواية أن تُقْرَأ ابتداءً من سن العاشرة، لكننا نجزم أن الأكبر سناً وحتى الراشدين ستُسحرهم هذه الحكاية الرائدة.
بدأ آرثر كوستيلو المولود عام 1966 الكتابة في سنّ مبكرة ليدفع نفقات دراسته في الطب: نشر روايتين بوليسيتين وقصة خيال علمي تحت اسم مستعار بين عامي 1986 و1989. وفي عام 1991، كان طبيباً مقيماً في قسم الإسعاف حين ظهر اسمه على الجزء الأول من ثلاثيته **الغطس** التي لاقت نجاحاً عالمياً منقطع النظير. عندئذٍ توقف كوستيلو عن ممارسة الطب وكرّس نفسه للكتابة. ومنذ عشرين عاماً، ذاع صيته في أجناس أدبية مختلفة: الخيال، الرعب، الرواية البوليسية وقصص الإثارة. ومن أشهر رواياته نذكر **لوست آند فاوند** (حازت على جائزة إدغار أوارد لأفضل رواية عام 2001)، **وهاجس** (جائزة لوكوس عام 2003)، **ومدينة لا تنام أبداً** وكذلك **الجوزاء** التي تعاونَ في تأليفها مع صديقه توم بويد.
تُرجمت أعماله في أربعين بلداً وبِيْعَ منها أكثر من سبعين مليون نسخة عبر العالم، وغالباً ما اقتبست السينما أو التلفزيون من كتبه مع مساهمة منه بصفته كاتب سيناريو.

*

آرثر كوستيلو يحصل
على جائزة هيغو عن روايته
فتاة شارع موليبيري الصغيرة

(مجلة كيركوس - 9 أغسطس 2013)

حصل آرثر كوستيلو، الحائز سابقاً على جائزة برام ستوكر لأفضل عمل للقراء الشباب، على جائزة جديدة عن روايته التي تتصدّر منذ أسابيع قائمة الأكثر مبيعاً.

وردّاً على سؤاله عن مستقبل هذا التوغّل في أدب الأطفال أجاب كوستيلو: «كتبتُ هذه الرواية بمناسبة بلوغ ابني سنّ العاشرة حين أدركتُ أنه لا يستطيع أن يقرأ أيّ رواية من رواياتي الأخرى لأنها تتضمّن الكثير من مشاهد العنف أو الرعب. أمّا ابنتي صوفيا، ذات الخمسة أعوام، فبدأت تتعلّم القراءة وهي تغار من شقيقها. تطلّبت مني الآن أن أكتب لها روايتها الخاصة. لذلك أخشى أنكم لم ترتاحوا مني بعد!».

*

الكاتب آرثر كوستيلو يحضّر
سلسلة متلفزة لصالح إي إم سي

(منوعات دوت كوم - 9 نوفمبر 2013)

وقع الكاتب مع قناة الكابل عقداً لتطوير مسلسل حصري سيشغل فيه وظيفة المنتج الكاتب والمنتج المنفذ.

وأعلنت قناة إي إم سي يوم الجمعة أنها عقدت اتفاقاً مع الكاتب لإنتاج مسلسل حصري بوليسي وخارق يعمل كوستيلو عليه منذ عدة سنوات. عنوانه **باست فورورد**

ويتناول صراعاً يستمر لعدّة أجيال بين عائلة شرطي من نيويورك وقاتل متسلسل قادر على السفر عبر الزمن.

ما زال طاقم التمثيل وجدول الإنتاج مجهولاً حتى هذه اللحظة، لكن إي إم سي -التي تحمّست لهذا المشروع حتى أنها طلبت سلفاً وبحزم ثماني حلقات في الموسم الأول- تفضّل أن تراه يُبثّ في أسرع ما يمكن.

*

ليزا آيمس تنضم إلى طاقم التمثيل في باست فورورد

(ديدلاين دوت كوم - 2 مارس 2014)

بعد ويليام دافو وبريس دالاس هوارد، جاء دور ليزا آيمس لتنضم إلى طاقم الممثلين على قناة إي إم سي التلفزيونية في دور لم يحدّد بعد.

كانت آيمس طالبة سابقة في جوليارد سكول، وصديقة سابقة لكالفن كلاين، وعُرِفت بشكل خاص في أدوارها على المسرح وفي عدد من المسرحيات الكوميدية الموسيقية في برودواي. وهي زوجة الكاتب آرثر كوستيلو، المؤلف المنتج للمسلسل.

*

حادث مأساوي على جسر ساغامور

(موقع بورني ديلي نيوز الإخباري - 11 يونيو 2014)

وقع حادث اليوم الأربعاء بُعيد الساعة الثالثة عصراً بقليل. خرجت سيارة متجهة نحو كاب كود فجأة عن الطريق

واصطدمت بحاجز جسر ساغامور. تحطّم الحاجز بسبب الاصطدام وسقطت السيارة في مياه القناة.
وعلى الفور هرع رجال مكتب الشريف ورجال الإطفاء وكذلك طاقم الغطاسين إلى مكان الحادث. الحصيلة الأولية قتيلان: صبي في العاشرة من عمره تقريباً وفتاة صغيرة. استطاع المنقذون إخراج السائقة، وهي في الأربعين من عمرها تقريباً. ونقلوها فوراً إلى مشفى بورن، فاقدة الوعي، لكنها على قيد الحياة.

إضافة الساعة 16. بحسب الشرطة، قد تكون سائقة السيارة هي الممثلة ليزا آيمس، زوجة الكاتب المشهور آرثر كوستيلو. الممثلة والكاتب يقيمان في نيويورك وهما من إقليم كاب كود، وقد اعتادا قضاء عطلهما فيه.
الجثتان اللتان انتشلهما الغواصون هم جثتا ولديهما على الأرجح: بنجامان، اثنا عشر عاماً، وصوفيا، ستة أعوام.
وبحسب معلوماتنا، لم يكن الكاتب في السيارة مع أسرته.

إضافة الساعة 23:30. بحسب مصادر طبية، تجاوزت ليزا مرحلة الخطر.

*

الممثلة ليزا آيمس تنجو
قبل قليل من الموت بعد محاولة انتحار

(إي بي سي الإخبارية - 3 يونيو 2014)

بعد ثلاثة أسابيع من موت ولديها المأساوي في حادث سيارة، حاولت الممثلة وعارضة الأزياء السابقة الانتحار هذه

الليلة بإقدامها على قَطع أوردتها بعد أن ابتلعت جرعات مفرطة من الأدوية.

زوجها، الكاتب آرثر كوستيلو، هو مَن اكتشف جسدها في مغطس حمّام بيتهما في غرينويتش فيلاج. وقد بذل الطبيب السابق والمؤلف الشهير قصارى جهده في تقديم الإسعافات الأولية لزوجته قبل نقلها إلى مشفى بلفيو في مانهاتن.

وبحسب مصدر طبي، حالة الممثلة الصحية حرجة، لكن حياتها لم تعُد في خطر.

*

الشرطة تعتقل آرثر كوستيلو إثر مشاجرة

(**نيويورك بوست** - 17 نوفمبر 2014)

وقع الحادث مساء البارحة على رصيف محطة مترو ويست فورث ستريت–واشنطن سكوير. ويبدو أنّ الكاتب كان ثملاً وأوسعَ أحد عمّال النقل ضرباً.

وأظهَرت كاميرات المراقبة أنّ الكاتب الناجح أراد أن يرمي نفسه على سكة القطار لحظة دخول هذا الأخير المحطة، لكن مارك إيرفينغ، المراقب الشاب، أمسكه في آخر لحظة لينقذه من هذه الحركة المميتة. وهو مستاءٌ، هاجمَ السيد كوستيلو عندئذٍ منقِذَه وضربه ضرباً مبرحاً قبل تدخّل الشرطة.

ورغم إلحاح النقابة، لم يرغب مراقب خطوط النقل بتقديم شكوى ضد الكاتب.

*

الكاتب آرثر كوستيلو
محتجز

(نيويورك بوست - 21 نوفمبر 2014)

بعد محاولته الانتحار الأسبوع الماضي، احتُجز المؤلف الشهير بناءً على طلبه في قسم الأمراض النفسية في مشفى بلاكويل في جزيرة ستاتن، بحسب ما أشارت اليوم وكيلة أعماله كايت وود.

«بعد موت ولديه وانفصاله عن زوجته، يمرّ آرثر بمرحلة صعبة، اعترفت الآنسة وود. لكنني واثقة من أنه سيجد في نفسه الوسائل الكفيلة بمواجهة هذه المأساة والتغلّب عليها».

*

الكاتب آرثر كوستيلو
خرج من المشفى

(مترو نيويورك - 5 يناير 2015)

خرج الكاتب المرموق هذا الصباح من مشفى بلاكويل، بعد أن أمضى فيه أكثر من شهر للعلاج بسبب اكتئاب ومحاولة انتحار ناتجين عن موت ولديه في حادث سيارة.

صرحت كايت وود، وكيلة أعماله، أيضاً أنّ المؤلف ينوي قريباً استئناف كتابة رواية جديدة، لكن الكاتب رفض تأكيد ذلك.

*

KateWoodAgency@Kwood_agency. 12 فبراير
رواية آرثر كوستيلو الجديدة ستصدر في الربيع!
وعنوانها الرجل الذي يختفي.
#BonneNouvelle!#Hâte

*

رواية جديدة لآرثر كوستيلو
قريباً في المكتبات؟

(النيويورك تايمز مراجعة كتب - 12 فبراير 2015)

انتشرت شائعة منذ بعض الوقت، لكن الناشر دوبلداي ووكيلة أعمال الكاتب كايت وود هما من أكّدا الخبر على شبكات التواصل الاجتماعي. من المفترض أن ينشر الكاتب آرثر كوستيلو رواية جديدة في الربيع القادم، وهي روايته الأولى بعد مقتل ولديه المأساوي. «عنوان الرواية الرجل الذي يختفي»، أضافت الوكيلة، لكنها رفضت الآن أن تكشف النقاب عن حبكة الرواية، مكتفيةً بالقول إن «**القصة ستبدأ في كاب كود، على جرف صخري تنتصب فوقه منارة تكتنفها الأسرار**».

لكن أعزّ أصدقاء كوستيلو، الكاتب توم بويد، كذّب الخبر في المساء: «**تحدثت مع آرثر هاتفياً عصر اليوم وطلب مني أن أكذّب هذا التصريح، أعلن الكاتب الكاليفورني. صحيح أنه استأنف الكتابة، لكن من السابق لأوانه التحدث عن النشر. لم يتعهد آرثر بأيّ التزام. وإذا أردتم رأيي، أعتقد أنّ وكيلته وناشره، باستباقهما للأحداث، يتصرفان ضدّ مصالحهما الخاصة**»، أضاف بموازبة مؤلِّف ثلاثية الملائكة.

الدواء والداء

لعل أمتع ما في حياتنا ينتمي دوماً إلى الماضي.
جيمس ساليس

مشفى بلاكويل، ستاتن آيلند
29 ديسمبر 2014

فتح المصعد أبوابه في الطابق السابع.

خرجت الدكتورة إستر هازيل من المقصورة مرتدية مريولاً أبيض. كانت امرأة قصيرة حيوية ذات شعر قصير لونه أشقر غامق. تضع نظارة مستديرة بعدسات رقيقة تُظهر عينيها الخضراوين المتقدتين ذكاءً وفضولاً. وهي تحمل ملفاً سميكاً تحت ذراعها، اتجهت إلى طرف الممر حيث تقع الغرفة 712.

هناك، قابلت الممرض المسؤول عن الطابق: عملاق يمارس رياضة كمال الأجسام ويلقبّه البعض ذو الوجهين بسبب وجهه المحترق جزئياً.

- افتح لي الباب، من فضلك؟

- حاضر، دكتورة، أجاب المستخدم. بدايةً، المريض وديع مثل حمَل، ولكنك تعرفين أفضل مني أنه لا توجد قاعدة مع هذا

الرجل المعتوه. وأيضاً يجب أن أنبّهك: زر الطوارئ في الغرفة لم يعُد يعمل. لذلك عند مواجهة أي مشكلة، لا تتردّدي في الصراخ، حتى لو لم يسمعك أحد لأنكم تجعلوننا دوماً نعمل في ظلّ نقص بالعمال!

ولأن إستر راحت تصعقه بنظرتها، تراجع ذو الوجهين.

- وحتى لم يعُد بوسعنا أن نمزح، تذمّر وهو يهزّ كتفيه.

فتح الممرض الباب وقفله بالمفتاح خلفها. تقدّمت إستر في الغرفة. كانت حجرة صغيرة جداً، زنزانة إسبرطية مفروشة بسرير من حديد الخردة وكرسي أعرج من البلاستيك وطاولة مثبتة بالأرض.

كان آرثر كوستيلو ممدداً فوق الأغطية، جذعه منتصب، يستند إلى وسادة. إنه في أواخر الأربعينيات، ولم يزل وسيماً: رجل طويل داكن الشعر وحزين بملامح حادّة يرتدي بنطالاً فضفاضاً وكنزة خفيفة.

ساكناً، وعيناه زجاجيتان، بدا في مكان آخر، مستغرقاً في حلم يقظة بعيد.

- صباح الخير، سيد كوستيلو، أنا إستر هازيل. رئيسة قسم الجناح النفسي في هذا المشفى.

ظلّ كوستيلو رخامياً، وحتى لم يبد عليه أنه لاحظ وجود الاختصاصية النفسية.

- أنا المخوّلة بالتوقيع على إذن خروجك. وقبل أن تغادر هذا المشفى، أريد أن أطمئن إلى أنك لم تعُد تشكل خطراً، لا على نفسك ولا على الآخرين.

وفجأة خرج آرثر من سباته.

- ولكن يا سيدتي، لا أرغب في مغادرة هذا المشفى.

سحبت إستر كرسياً وجلست قرب السرير.

- أنا لا أعرفك يا سيد كوستيلو. لا أنت ولا كتبك. لكنني قرأتُ ملفّك، أكّدَت وهي تضع مصنفاً من الورق المقوى على الطاولة التي تفصل بينهما.

تريَّثَت بضع ثوان قبل أن تؤكد:

- أفضِّل أن تروي لي بنفسك كيف جرت الأمور.

نظر آرثر إلى الطبيبة لأول مرة.

- هل معك لفافة تبغ؟

- أنت تعرف حقّ المعرفة أنك لا تستطيع التدخين هنا، قالت وهي تشير إلى جهاز إنذار الدخان.

- إذاً، اخرجي من هنا!

تنهّدت إستر، لكنها استسلمت. فتشت في جيب مريولها وناولته قداحتها وعلبة لفائف تبغها الرفيعة بنكهة النعناع قبل أن تُعيد سؤالها:

- أخبرني قصتك، يا سيد كوستيلو. ماذا حدث يوم موت ولديك؟

وضع آرثر اللفافة وراء أذنه.

- سبق وثرثرتُ مراراً وتكراراً بهذا الأمر لزملائك.

- أعرف يا سيد كوستيلو، لكن أريدك أن تُخبرني أنا شخصياً بذلك.

مسّد جفونه طويلاً، وأخذ نفساً عميقاً، ثم قال:

- مات بنجامان وصوفيا في 11 يونيو 2014. كنت أعيش مرحلة صعبة في تلك الفترة. كنتُ قد توقفتُ عن الكتابة منذ أشهر. هدّني موت جدي في بداية العام. فهو مَن خلق عندي هواية المطالعة والكتابة، وهو مَن أهداني أوّل آلة كاتبة وهو مَن أرشدني في كتاباتي

الأولى. لم أتفاهم قط مع أبي. سوليفان هو الشخص الوحيد الذي ساندني دوماً. والوحيد الذي لم يخنّي قط.

- ما العلاقات التي ربطتك بزوجتك؟ سألتْ إستر.

- مثل كل الأزواج، كان فيها يسر وعسر. ومثل الكثير من زوجات الكتّاب، كانت ليزا تلومني لأنني أنقطع معظم الأحيان عن العالم ولأنني لا أقضي ما يكفي من الوقت معها ومع أولادنا. كانت ترى أنني أعمل أكثر ممّا ينبغي، وأن عالمي المتخيَّل يفكّك حياتي. لهذا أسمتني «الرجل الذي يختفي».

- لماذا «الرجل الذي يختفي»؟

- لأنني غالباً ما أختفي في مكتبي لأنضم إلى شخصياتي الورقية. كانت تقول إنني أصبح في تلك اللحظات هارباً وأهمل عائلتي. وفعلاً فوَّتُ اجتماعات أولياء التلاميذ ومباريات كرة القدم وعروض نهاية العام الدراسي. حينها، كان يبدو لي كلّ ذلك تافهاً. يعتقد المرء دوماً أن أمامه متّسع من الوقت، ويظن أنه سيستطيع تعويض تلك اللحظات الضائعة، لكن هذا ليس صحيحاً.

وبعد لحظة من الصمت، ألحّت إستر هازيل على الكاتب.

- إذاً، في فترة الحادث، كنت بعيداً؟

- بل أكثر من ذلك. كنت مقتنعاً أنّ ليزا تخونني.

- على أي أساس؟

حرّك آرثر يده حركة مبهمة.

- مكالمات هاتفية تتوقف حين أدخل إلى الحجرة، غيابات منتظمة وغير مبرّرة، رمز هاتفها الذي غيرته...

- هذا كلّ شيء؟

- بدا لي هذا كافياً لأعيّنَ مُخبراً خاصاً.

- وهذا ما فعلته؟

- أجل، اتصلتُ بزكريا دونكان، الملقّب بالشيك، شرطي سابق عمل في الأمن وكنتُ أستخدمه كمستشار لكتابة رواياتي البوليسية. لا يبدو بسترة الصليب الأحمر الدائمة وقبعته ملفتاً للانتباه، لكنه واحد من أكثر المحققين كفاءة في نيويورك. اقتفى أثر ليزا، وبعد أسبوع من موعدنا الأول، أطلعني على أدلة بدت لي دامغة.

- على سبيل المثال؟

- بشكل أساسي صور فوتوغرافية تظهر فيها زوجتي بصُحبة رجل يدعى نيكولا هورويتز، في مدخل فندق وسط بوسطن. ثلاثة مواعيد في أسبوع واحد. لقاءات لم تكن تستغرق أكثر من ساعتين. قال لي زكريا أن أنتظر نهاية تحقيقه حتى أفاتح زوجتي بالأمر، لكن بالنسبة لي، لم يكن هناك أدنى شك أنّ هذا الشخص هو عشيقها.

غادر آرثر سريره وتقدم نحو النافذة، وراح ينظر عبر الزجاج إلى السحب القطنية التي تنسلّ نحو أستوريا.

- فاتحتُ ليزا بالأمر في اليوم التالي، استأنف. كان يوم سبت. وكنّا نستعد للمغادرة في إجازة نسافر إلى مكان أعشقه: **24 ويندز لايتهاوس**، منارة منطقة كاب كود التي نستأجرها كلّ عام تقريباً. كنت أجد أنّ لهذا البناء القديم سحراً جنونياً وأنه يبثّ موجات من الطاقة الإيجابية. غالباً، حين أكون هناك، كان المكان «يلهمني» وأكتب بشكلٍ جيد. ولكنني في ذلك الصباح لم أنتظر حتى نصل إلى المنارة حتى أصبّ جام غضبي على زوجتي. وفي أثناء الإفطار، أريتها الصور وطالبتها أن تفسّر الأمر.

- وماذا كانت ردة فعلها؟

- طار صوابها لأنني عيَّنتُ مُخبراً لمراقبتها، ورفضَت إعطائي تبريرات. لم أرها قط بهذا القدر من الغضب. وأخيراً، قالت للولدين أن يصعدا إلى السيارة وغادرت إلى كاب كود من دوني. وعلى هذا المسار وقع الحادث.

تهدّج صوت كوستيلو. وانتابته نوبة سعال ممزوجة بالدموع قبل أن يركن إلى صمت مديد.

- وماذا فعلتَ حين غادرتْ؟

- لا شيء. بقيت مشلولاً، عاجزاً عن التصرف، مفعماً بعطرها، المستخلص من زهر البرتقال.

- لم تخُنك زوجتك قط، أليس كذلك؟ تكهنت إستر.

- لا، على العكس. كانت قلقة عليّ وتريد أن تفاجئني. كانت قد تلقت منذ فترة وجيزة أجراً محترماً من قناة تلفزيونية على دورها في مسلسل. لم أعرف بذلك إلّا فيما بعد، لكنها استخدمت هذا المبلغ في شراء **24 ويندز لايتهاوس**.

- كانت تريد أن تهديك المنارة؟

أكّد آرثر بحركة من رأسه.

- كانت تعرف مقدار تعلّقي بهذا المكان. وظنَّت أن ذلك سيمنحني الرغبة والقوة للكتابة بعد وفاة جدي.

- وذاك الرجل، نيكولا هورويتز؟

- لم يكُن عشيقها. مجرد رجل أعمال من بوسطن لديه سلسلة فنادق ودور ضيافة في إنجلترا الجديدة. وعلى الأخص هو وريث العائلة التي تمتلك المنارة. أسرة عريقة في بوسطن لم تكن ترغب بالتخلي عن هذا البناء التاريخي. ولكي تُقنعهم ليزا، ضاعفت في الأسابيع الأخيرة مواعيدها ومكالماتها الهاتفية مع هورويتز.

سكت آرثر وأشعلَ لفافة تبغه. ولمدة بضع ثوان ظلّت إستر هي أيضاً صامتة، ثم فركت كتفيها لتدفّئ جسدها. فنحن في عزّ الشتاء والحجرة متجمدة. ونسمع بوضوح خرير الماء يجري في مشع التدفئة، لكنه لا ينشر أية حرارة.

- ماذا تنوي أن تفعل في المستقبل؟ سألتْ وهي تبحث عن نظرة آرثر.

- المستقبل؟ أي مستقبل؟ قال منفعلاً. هل تعتقدين أنّ هناك مستقبل لشخص قتلَ ابنيه؟ هل تعتقدين أن...

قاطعته الاختصاصية النفسية بحزم.

- لا يمكنك أن تختزل الأمر بهذه الطريقة. أنتَ لم تقتل ولديك وأنت تعرف ذلك حقّ المعرفة!

تجاهَلَها آرثر. سحب بعصبية سحبة دخان، ونظره شارد عبر الزجاج.

- سيد كوستيلو، أنت هنا في مشفى، وليس في فندق.

استدار نحوها ملدوغاً، وهيئته مستفهِمَة.

أوضحت هازيل قصدها:

- الكثير من المرضى الذين يُعالَجون في بلاكويل يعانون أمراضاً خطيرة ولا يملكون أيّ سلاح لمواجهتها. وهذه ليست حالتك. أنت لديكَ موارد. لا تدَع ألمك يحطّمك. اصنَعْ منه شيئاً ما!

وهو مذهول، احتجّ آرثر.

- رباه، لكن ماذا تريدينني أن أصنع منه؟

- ما تُحسن صنعه على أكمل وجه: اكتُب.

- وعن ماذا؟

- عمّا ينتابك: تجاوز هذه المحنة، عَبِّر عن حزنك، تخلّص من أعبائك. في حالتك، الكتابة هي الدواء والداء في آن معاً.
هزّ الكاتب رأسه.
- ليس هذا تصوُّري للرواية. لن أفرض حالاتي النفسية على قرائي. الكتابة ليست علاجاً. الكتابة هي شيء آخر.
- آه حسنٌ، وما هو؟
تحمّس آرثر.
- هي أولاً عمل متخيّل. هي عيشٌ لحيوات أخرى، خلقٌ لبيئات وشخصيات وعوالم خيالية. هي نمنمة كلمات وصقل جمل وضبط إيقاع وتنفّس وموسيقى. الكتابة ليست مصنوعة للشفاء. الكتابة ألم وضنَى وهاجس. أنا آسف، لكننا لا نمارس العمل ذاته، أنتِ وأنا.
ردّت له إستر بالمثل:
- أعتقد على العكس، إننا نعمل بالأدوات نفسها، يا سيد كوستيلو: المكبوت، الخوف، الألم، الأوهام.
- وبالتالي تعتقدين أنّ بإمكاننا أن نقلب الصفحة هكذا، بمجرّد أن نكتب؟
- مَن حدَّثكَ عن قلب الصفحة؟ نصحتكَ ببساطة أن تتباعَد عن ألمك وتبلوره في قصة خيالية. أن تجعل ما هو غير مقبول في الواقع مقبولاً في رواية.
- أنا آسف، لكنني غير قادر على فعل هذا.
بحركة حيوية، أمسَكَت إستر هازيل ملف الورق المقوى الموضوع على طاولة صغيرة وسحبت منه نُسَخَ أوراق مصورة.
- وجدتُ مقابلة أجريتَها مع **الديلي تليغراف** في عام 2011

بمناسبة صدور إحدى رواياتك في إنجلترا. وأقرأ لك: «**وراء الجانب الخرافي للقصة الخيالية يختبئ دوماً جزء من الواقع. وأي رواية هي دوماً شبه سيرة ذاتية، ما دام المؤلف يروي قصته من خلال موشور عواطفه وإحساسه**». وتضيف في مكان آخر: «**حتى أبني شخصيات مهمّة، أحتاج إلى التماهي معها. فأنا بالتناوب كلّ بطل من أبطالي. ومثل ضوء أبيض يجتاز موشوراً زجاجياً، أتبدّد في كل شخصية من شخصياتي**». هل تريد أن أتابع؟

رفض آرثر كوستيلو التحديق في الطبيبة النفسية، مكتفياً بهزّ كتفيه.

- لن أكون أوّل مَن يتفوه بترهات في مقابلة صحفية.

- بالتأكيد، لكن هنا، في هذه الحالة، هذا ما تعتقده حقيقةً. إنه...

كانت إستر تهمّ في تطوير حجّتها حين انطلق إنذار كاشف الدخان.

وبعد بضع ثوان، ظهر فجأة ذو الوجهين في الحجرة.

منظَر عقب لفافة التبغ وعلبة اللفافات الموضوعة على الطاولة أثارا غضبه.

- كفى، يا دكتورة، يجب أن تغادري الآن!

الحب منارة

الحب [. . .] منارة شامخة أبد الدهر لا تهزّها العواصف الهوجاء.

وليم شكسبير

اليوم.
السبت 4 أبريل 2015

كانت الشمس التي تشرق تحرق السماء فوق الأفق.

سيارة شيفروليه بيك آب بغطاء أمامي مكوّر وواقٍ من الكروم سلكت الطريق الترابي المؤدي إلى الرأس الشمالي من خليج وينشستر. كان المكان موحشاً، وآسراً، تعصف فيه الريح، محاطاً من جميع الجهات بالمحيط والجروف الصخرية.

ركنت ليزا آيمس السيارة على الممشى المفروش بالحصى المحيط بالمسكن. كلب صيد ضخم لابرادور بشعرٍ أشقر اندفع إلى خارج السيارة ونفضَ وبره بصخب.

- اهدأ يا ريمنغتون! طلبت ليزا وهي تصفق باب البيك آب.

رفعت عينيها، وحدقت في المنارة الراسخة المثمنة الأضلاع التي ترتفع بجانب منزل حجري يغطيه سطح مدبب من حجر الأردواز.

بمشية مترددة، صعدت ليزا الدرجات المؤدية إلى البيت الريفي الصغير. أخرجت ربطة مفاتيح من جيب سترتها، فتحت الباب وتقدّمت في الحجرة الرئيسة: صالون كبير، تتخلّله عوارض مكشوفة تعلوها نافذة عريضة تطلّ على المحيط.

كانت الصالة مفروشة بمكتبة، وخزانة وعدّة رفوف خشببية محفورة. على الجدران والرفوف، شباك صيد، مجموعة حبال، قناديل مقاوِمَة للرياح من كلّ الأحجام، وأقفاص لجراد البحر من الخشب المطليّ بالورنيش، ونجوم البحر، ومجسّم سفينة شراعية محبوسة داخل زجاجة.

قرب الموقد، اكتشفت ليزا زوجها، مسترخياً على الأريكة، يغطّ في نوم عميق، وإلى جانبه زجاجة ويسكي فرُغَ ثلاثة أرباعها.

اغرورقت عيناها بالدموع. لم تكن قد رأته منذ موت بنجامان وصوفيا. بعد أن فقد نحو عشرة كيلوغرامات من وزنه، صار من الصعب التعرّف عليه بشعره الطويل الأشعث، ووجهه المغطى بلحية كثة وطويلة، وجفونه الغائرة في هالات سوداء.

على طاولة المكتب الخشبية، تعرّفتْ على الآلة الكاتبة القديمة التي أهداها سوليفان لحفيده في عيد ميلاده الخامس عشر: ماركة أوليفيتي ليترا بغطاء من الألمنيوم الأزرق الباهت.

حيّرَها وجودها، لأنّ آرثر لم يعُد يكتب رواياته على الآلة منذ زمن طويل. أدارت الأسطوانة لتسحب الورقة المحشورة في دواليب الآلة.

2015

اليوم الرابع والعشرون

الليل. لا شيء. كان هذا أُفقه.
كان وحيداً.
وحيد لها مرادف واحد: الموت.
فيكتور هيغو

0.
أفتح عيني.
أنا

يتوقف النص هنا. لم تفهم معنى هذا. ثم اكتشفت كدسة سميكة من الأوراق بجانب الآلة. أمسكت المخطوطة بيدين مرتعشتين وقرأت سطوره الأولى.

تاريخ مخاوفنا

1971

– لا تخف يا آرثر. اقفز! سأتلقفك وأنت طائر.
– أنت... أنت متأكدٌ يا بابا.

عمري خمس سنوات. أجلس فوق فراش الطابق الثاني للسرير الذي أتقاسمه مع أخي، وساقاي متدليتان في الفراغ. رمقني أبي بنظرة عطف وهو يفتح ذراعيه.

- هيا، يا كبيري!
- لكنني خائف...

أقل من عشرة أسطر وتجهش ليزا بالبكاء. جلست على أريكة الخيزران وراء طاولة العمل واستأنفت قراءتها.

*

بعد ساعتين، حين وصلت إلى آخر سطر، كانت عينا ليزا حمراوين وحلقها غاصاً. فهذه الرواية، هي رمز لقصتهما. في ثلاثمئة صفحة، رأت فيلم حياتها. أولاً، لقاؤها مع آرثر في نيويورك بداية سنوات 1990، حين كانت شابة في مدرسة جوليارد، وكانت تعمل في حانة تحت الأرض لتدفع نفقات دراستها. ثم التجمل والمساحيق والتشابكات في قصة خيالية، أفراح ومصاعب زواجهما، ورحلة شهر العسل إلى باريس، ولادة بنجامان وصوفيا، الحب الحقيقي، لكن أحياناً المعقّد الذي تقاسَموه هم الأربعة، ومرور الزمن والأيام المثير للحنين.

مسحت ليزا دمعة عن خدها. وطيلة قراءتها، شاركت آرثر إثمه وندمه اللذين اكتشفتهما عميقين وغير محتَمَلين عنده كما عندها. وعبر الصفحات، انعقدَ من جديد رابط بينهما فراحت تأسف الآن لأنها حمّلته فوق طاقته وجعلته مسؤولاً عن الحادث.

حين رفعَت رأسها، كانت أشعة الشمس تخترق النافذة الزجاجية، وتلهب الصالون بنور أصفر ذهبي. وهو لم يزل مسترخياً على الأريكة، تنهّد آرثر وفتح عينيه.

هبّ واقفاً، وحين اكتشف زوجته جالسةً إلى طاولة مكتبه، بقي ساكناً لبرهة، مذهولاً، مترنحاً كأنه ألفى نفسه أمام شبحٍ أو طيف.

- مرحباً، بادرت ليزا.

- أنتِ هنا منذ وقت طويل؟

- أكثر من ساعتين بقليل.

- لماذا لم توقظيني؟

- لأنني كنت أقرأ روايتك.

وبينما كان يهزّ رأسه، هرع ريمنغتون في اتجاهه وهو ينبح ولعق يديه.

- تنقصها النهاية، أبدَت ملاحظتها.

باعَدَ آرثر ذراعيه كعلامة موافقة.

- النهاية، أنتِ تعرفينها. لا يمكننا مواجهة القدر. لا يسَعنا إصلاح ما لا يمكن إصلاحه. لا نستطيع العودة إلى الوراء.

خطَت خطوة نحوه.

- لا تُنهِ هذه الرواية يا آرثر! رجَتْه بقوة. لا تجعل ولدينا يموتان مرة ثانية، من فضلك.

- ليس هذا إلّا محض خيال، دافع عن نفسه برخاوة.

- أنت تعرف أكثر من أي شخص قوى الخيال! وعلى مدى هذه الصفحات، أنتَ أعدتَ إحياء بن وصوفيا. أعدتَ إحياءنا جميعاً. أنت تجعلنا نقاتل. فلا تحطّمنا من جديد. لا تهدم كلّ شيء في بضعة أسطر. إذا أنهيتَ الرواية، ستفقدنا حتماً. لا تؤجّج ذنبك. لا تحمِّل نفسك مرة أخرى مأساة حياتنا.

اقتربت أيضاً لتلحق به أمام النافذة الزجاجية.

- هذا الكتاب، هو آلامنا وأسرارنا. لا تعرِضه على الناس. إنهم لا ينتظرون سوى هذا. جميعهم. لن يقرأ أحد كتابك كرواية.

سيقرؤونه كمتلصّصين، وسيحاولون أن يعطوا معنى لكلّ تفصيل. سيقرؤون قصتنا وهم يجتزئون منها. وقصتنا تستحق أفضل من هذا.

فتح آرثر النافذة على اتّساعها وخرج إلى الشرفة الحجرية التي تطلّ على المحيط. لحقت به ليزا، والرواية تحت إبطها، يتبعها كلب الصيد لابرادور الذي نزل الدرجات المنحوتة في الصخر باتجاه الشاطئ.

وضعت ليزا المخطوطة على طاولة خشبية عانى طلاؤها المتقشّر صروف الزمن.

- تعال، بادرت وهي تمدّ يدها نحو زوجها.

أمسكها آرثر وشدّها بقوة كان يعتقد أنه لم يعُد خليقاً بها. حرارة بشرتها، استسلام أصابعها مَنَحاه قوة جديدة، كان يظنّ أنه فقدها للأبد.

وبينما يتجهان إلى المحيط، قالت له:

- لن نكون أربعة مرة أخرى أبداً، يا آرثر، ولكن لم يزَل بوسعنا اختيار أن نكون اثنين. سبق لنا وتجاوزنا الكثير من المحن. تلك المحنة هي الأكثر فظاعةً، لكننا لم نزل هنا، أحدنا لأجل الآخر. وربما يمكننا أن نأمل بطفل من جديد. طالما هذه رغبتنا، أليس كذلك؟

في البداية، ظلّ آرثر صامتاً. مشى إلى جانب زوجته على الشاطئ المقفر الذي يمتدّ على طول كيلومترات. هبّت الريح، وأنعَشَت النسمة وجهيهما، وزبَد الأمواج الفضي لعَقَ أقدامهما. كانت ليزا وهو معجبين بعنفوان هذا المشهد. كان مظهره المتوحّش واللازمني يعطيهما اليوم أكثر من أيّ وقت إحساساً بأنهما على قيد الحياة.

ثم زوبعة أقوى أثارت الرمل. التفت آرثر ووضع يده كواقية لينظر إلى الشرفة في أعلى الجرف الصخري.

كانت صفحات مخطوطه تُدَوِّمُ في السماء وقد كنَسَتها الريح. مئات الأوراق تتطاير وتحلق لبضع ثوان بين النوارس قبل أن تتجه نحو عرض البحر أو تدور فوق الرمل المبلّل.

نظر آرثر وليزا كلّ واحد منهما للآخر.

كانت أسطورة المنارة تقول الحقيقة: الأربع وعشرون ريحاً لم تترك شيئاً على طريقها ولعلّ هذا أفضل.

لأنّ ما يهم هو تتمة القصة.

وقد اتفقا على أن يكتباها معاً.

غيوم ميسو

اللحظة الراهنة

آرثر وليزا لا يلتقيان سوى مرّة واحدة كل عام.
يمضي حياته سعياً وراءها...
...وتقضي حياتها تنتظره.

تحلم ليزا أن تصبح ممثلة، وتعمل في حانة في مانهاتن لتغطي تكاليف دراستها لفن الدراما. وذات مساء، تتعرف إلى آرثر كوستيلو، طبيب إسعاف شاب تنجذب إليه على الفور، مستعدّة أن تفعل أي شيء وأن تواجه جميع المخاطر من أجله. إلّا أن آرثر ليس رجلاً كسائر الرجال، وسرعان ما يفشي لها بالحقيقة المرعبة التي تمنعه من حبها:

«ما يحدث لي لا يمكن تصوّره، لكنه حقيقي...»

في مدينة نيويورك التي تتسارع التحوّلات فيها باطّراد، يربط آرثر وليزا مصيرهما ليتجاوزا الكمائن والفخاخ التي نصبها لهما ألد أعدائهما: الزمن.

قصةٌ مثيرة ذات نهاية مذهلة.

تأملٌ في علاقتنا ونظرتنا الخاطئة للزمن.

درسٌ مدهش في الحياة.

❖ ❖ ❖

«المؤلف الفرنسي الأكثر مبيعاً يثبت مرّة أخرى أنه أستاذ في فن التشويق».

أندريه لوبيل، جريدة **لا برس**

«تشويق ذكي ومدوّخ. يصعب ترك **اللحظة الراهنة** حتى نهايتها المذهلة. لعلّها أفضل روايات ميسو».

جيروم فيرمولان، جريدة **ميترونيوز**

«قصة لاهثة لا يسعكم تخيُّل نهايتها».

إيفا روك، إذاعة **أوروب 1**

ISBN 978-9953-68-897-8

المركز الثقافي العربي

الدار البيضاء: ص. ب. 4006 (سيدنا)
بيروت: ص. ب. 113/5158
markaz.casablanca@gmail.com
cca_casa_bey@yahoo.com

سما للنشر